الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة
معهد الدعوة
وأصول الدين
شعبة العقيدة

أبو الحسن الشاذلي

حياته ومدرسته في التصوف

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب :
الوهاب فرحات

إشراف الدكتور
بشير بوجنانة

السنة الجامعية : 1415هـ الموافق لـ 1994 -1995 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأزهر
مركز تطوير العلوم الإسلامية

الإهداء

إلى والدتي الكريمة الصبورة
عرفاناً بجميلك عليّ
وأداء لبعض حقك عني
أهديك رسالتي
هذه المتواضعة.

جامعة أم القرى
مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين وخير الخلق أجمعين سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن المتتبع لمسار حركة التصوف في العالم الإسلامي يجد أنّ مساهمة متصوفة المغرب العربي منذ عصر أبي الحسن الشاذلي كانت كبيرة.

وكان من المفروض أن يحضى التصوف المغربي بسبب ذلك بنصيب كبير من عناية الباحثين إلا أن ذلك لم يحدث وبقيت شخصياته مغمورة، وذخائره مبعثرة هنا وهناك في مكتبات الشرق والغرب.

وإذا كان التصوف في المشرق قد وجد من ينصفه، وينشر الكثير من روائعه وكنوزه، ويقوم بتحقيق الكثير من نصوصه فإن التصوف المغربي لم يأخذ نصيبه بعد من عناية الدارسين، وإذا قدّر لبعض المستشرقين أن يتناولوه بالدرس والتحليل كما فعل «آسين بلاثيوس» مع «ابن عربي»، و«ميشون» مع «ابن عجيبة» فإن دراساتهم هذه كانت فجّة وخالية من العمق الفلسفي.

نعم! إنّ الدراسات التي قام بها الغربيّون خصوصا الراهب الإسباني «بلاثيوس»، والفرنسي «لوي ماسنيون» بينت عدم وفائها بشروط البحث الموضوعي النزيه، حتى إنك تلمس روحا مسيحية تريد أن تصبغ التصوف الإسلامي بصبغتها وتلونه بلونها ، أما أن تحاول إبراز الشمول الذي ظهرت به بعض الدعوات الصوفيّة - كالشاذلية مثلا - فهي أبعد من أن تدركه، وهل يرجى من باحث ينظر للتصوف بالمنظار الكنسي للدين أن يصل إلى إدراك هذه الحقيقة!

ومما زاد الأمر خطورة أن الكثير من أصحاب هذه الدراسات كانوا يعملون في سلك الاستخبارات، ولم يكن همهم من دراساتهم سوى فهم أديولوجيّة تلك الطرق ليتسنّى للمستعمر بعد ذلك بسط سلطته وإحكام قبضته، فلا غرابة أن مثل هذه الأبحاث تأتي بتراء وناقصة.

وهذا ماحدا بنا أن نسلك هذا المسلك، ونختار هذا البحث لنسد بذلك ثغرة، ونملأ فراغا لازال يعاني منه الفكر الإسلامي في شمال أفريقيا الشيء الكثير.

ويستمد البحث قيمته من مساهمته المتواضعة في إيجاد وعي ذاتي بكياننا الروحي، ودوره في صياغة شخصية سويّة متوازنة تقف في معترك التيار المادي الغربي الذي غزانا في عقر دارنا والذي يحتم علينا مواجهته إذا أردنا البقاء كأمة مستقلّة بتراثها الفكري والحضاري.

وإن هذه الأهمية لتتأكد بالنظر في حال الصحوة الإسلامية اليوم، فقد بدأت إرهاصات رجوع الغفلة إلى أبنائها تلوح في الأفق بأشدّ مما كانت عليه من قبل،

وهذا مايدعو الباحث للتفكير في طلب الوسائل التي تدفع أسباب كل تراجع وتقهقر.وهدفنا من هذا البحث بيان أهميّة التجربة الإيمانية في وقاية الصحوة الإسلاميّة من الانتكاس والتردي، أو الانقسام والتشرذم.

وقد دفعتنا هذه الأسباب على أن نجعل أبا الحسن الشاذلي موضوعا لبحثنا باعتباره شخصيّة هامة في تاريخ التصوّف الإسلامي المغربي من جهة، ولأنه صاحب مدرسة مشهورة في التصوف لازال لها حضور قوي إلى الآن في كامل ربوع العالم الإسلامي من جهة ثانية.

وممّا قوّى عزمنا على المضي في هذه الدراسة أمران :

أولهما : - ماكان يمثله أبو الحسن الشاذلي في عصره، حيث كان يمثل التصوف السنّي المتقيّد بالكتاب والسنّة.

ثانيا - ماكانت تتميز به شخصيّته من اعتدال ظهر جلّيا في إتزانه عند التعبير عن الحقائق الإيمانية، وابتعاده عن شطحات الصوفيّة كما ظهر ذلك في «طريقة الشكر» التي انتهجها في تربية مريديه.

وقد قمت في هذه الرسالة بدراسة أهم جوانبه الفكريّة، وأعني به الجانب الروحي، وأعتقد أنني قدمت في فصول الرسالة، دراسة وافية لسيرته الذاتية، وآرائه الصوفيّة، يتبين من خلالها إلى أيّ حد اتسمت مدرسته بالأصالة والإبتكار.

وركزت عند دراستي للمدرسة الشاذليّة على تتبع أصولها الفكريّة، ومقارنتها بآراء المدارس الأخرى.

وحاولت في إنجاز هذه الرسالة أن ألتزم المنهج التحليلي التركيبي، حيث عمدت إلى جمع المتناثر من أقوال الشاذلي هنا وهناك، ثم اجتهدت في فهم تلك الأفكار بتحليل عناصرها، وتبيّن حقيقتها، ثم وضعتها موضع الموازنة والمقارنة بمثيلاتها عند السّابقين عليه ممّن يظن أنّه وقف على آرائهم كالحكيم الترمذي، والغزالي حتى تتوضح لنا الخصائص العامة التي يتميّز بها التصوف الشاذلي المجدّد، ثم رتبت تلك الأفكار في إطار واحد يسلّم بعضه إلى بعض لتظهر آراء هذه المدرسة متكاملة الصورة متناسقة الأجزاء.

وقد جاءت الرسالة في سبعة فصول بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة نوجزها فيما يلي :

الفصل الأول : وتحدثت فيه عن عصر الشاذلي بما فيه من أحداث سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة، كما حاولت تصوير البيئة التي عاش فيها الشاذلي قدر المستطاع.

وقدمت ذلك عن التعريف بشخصيّة أبي الحسن لأنني أعتقد أن الإنسان ابن بيئته.

وهذه الترجمة هي أوفى ترجمة عن حياة أبي الحسن الشاذلي فيما نعلم، غير أن أسلوبها يطفح بالعبارات العاميّة التي لاتتفق مع أسلوب العصر وذوقه.

3 - وثمّة ترجمة ثالثة وهي التي ألّفها ابن عيّاد الشافعي وسماها« المفاخر العليّة في المآثر الشاذلية» وتمتاز هذه الترجمة على الكتابين الآنفي الذكر بأنّ فيها بيانا مفصّلا يتضمن المقامات التي لابد أن يجتازها المريد، وهي تزيد على ماتشترك فيه مع الترجمتين السابقتين بكلام واف عن المدرسة الشاذلية، وتضيف أمورا أغفلها كل من ابن عطاء الله، وابن الصبّاغ ولاشك أن هذه الإضافات وإن كانت قليلة لها أثرها في توضيح معالم المدرسة الشاذلية.

هذه أهم المصادر القديمة التي اعتمدت عليها في بحثي في تحقيق الحياة الخاصة بأبي الحسن الشاذلي، واستقيت منها العناصر التي تؤلف مذهبه في التصوف.

ثانيا : المصادر التكميليّة :

وأعني بها المصادر التي رجعت إليها لمعرفة الظروف التي أحاطت بشخصية الشاذلي أذكر منها (تاريخ ابن خلدون، والبداية والنهاية لابن كثير، والخطط، والسلوك، للمقريزي) ورجعت إليها في تحقيق الأوضاع السياسيّة والإجتماعية.

ومنها (روح القدس في محاسبة النفس لابن عربي، والتشوف لرجال التصوف للتّادلي، والفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي لـ«الفرد بل») ورجعت إليها في تحقيق الأوضاع الفكريّة والروحيّة.

ومنها كتب الطبقات وهي كثيرة، وبخاصة : (طبقات الأولياء لابن الملّقن، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ووفيات الأعيان لابن خلّكان) وعدت إليها في تحقيق كثير من الأسماء التي تتصل بالشاذلي، كما أفادتني كثيرا عند ترجمتي لأعلام المدرسة الشاذلية.

بالإضافة إلى كتب التصوف بصفة عامة (كختم الأولياء للحكيم الترمذي، ولمع السرّاج، وقوت المكي، ومواقف النّفري، ورسالة القشيري، وإحياء الغزالي، وفتوحات الحاتمي)، حيث نفعتني هذه الكتب عند دراستي المقارنة للأفكار. كذلك استفدت برجوعي إلى أشهر ماكتب بعده : ككتب «ابن عطاء الله السّكندري» عامة، وبخاصة «الحكم» وشروحها الكثيرة.

ثم تأتي بعد هذه المصادر مراجع عامة، كثيرة ومتنوعة، في التصوف، والفلسفة أفادتني كثيرا من الناحية الفنيّة وكيفيّة استثمار النصوص، كما استفدت منها في إثراء جوانب مختلفة في الموضوع.

وقد واجهتني صعوبات جمّة عند إعداد هذا البحث أهمها :

أولا : ندرة المصادر والمراجع التي اهتمت بدراسة شخصية الشاذلي ،وآرائه وهو ماجعلنا نحسّ باستمرار أننا نطرق جوانب في تفكير الرجل، غير مطروقة من قبل، وإن كانت مادة بحثها موجودة في طيّات المدّون من هذه المصادر القليلة النادرة، التي بذلنا جهودا مضنية للحصول على بعضها.

ثانيا : صعوبات ترجع إلى طبيعة البحث ذاته إذ أن التصوف يعتمد على الذوق والوجدان، والتجارب الشخصية أكثر من اعتماده على النظر والبرهان، وليس لنا من تلك التجارب الكثير ولا القليل.

هذا وإنّي لأرجو أن تكون هذه الرسالة في مستوى ما تجشمته في سبيلها من عناء ومشقة، وأن تحقق الهدف الذي توخيته منها، ونحسب أن النتائج التي وصلنا إليها في إطار البحث في فكر الشاذلي الصوفي هامة ومفيدة.

وأخيرا أتوجه بعظيم شكري، لكل من قدموا إليّ يد العون لإتمام هذه الرسالة، وأخص منهم الأستاذ المشرف الدكتور بشير بوجنانة الذي منحني من وقته وجهده الشيء الكثير، وجنبني الكثير من الأخطاء العلميّة التي كنت أقع فيها، بحيث يمكن القول بأنّ هذا البحث لايعدو أن يكون بعض غراسه.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الإخوة عمال المكتبة الذين صبروا معي طيلة فترة البحث، كما لاأنسى أولئك الذين ساعدوني بتوجيهاتهم السديدة كالأستاذ يوسف حسين، ومفتاح عبد الباقي، ونور الدين بولحية، وحسان الجيلاني وغيرهم من الأخيار الذين سهّلوا لي الصعاب، وذلّلوا لي العقبات التي كانت تعترض سبيلي عند إنجاز هذا البحث، فلهم منّي جميل الثناء، وخالص الدعاء.

واللّه وحده المسئول أن يكتب لنا التوفيق والسّداد.

الفصل الأول

عصر أبي الحسن الشاذلي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

يمكن القول أنّ أيّة محاولة تهدف إلى فهم شخصيّة ، وأفكار، وحركة مصلح ما، بمعزل عن الظروف التي نشأ فيها، وأحاطت به، هي محاولة تبعد صاحبها عن جادة الصواب، ذلك لأن الإنسان مخلوق حسّاس اجتماعي بطبعه، يتأثر بما يوجد حوله سلبا وإيجابا.

لذلك يتحتم علينا، ونحن نبحث عن حياة الإمام أبي الحسن الشاذلي، ونسعى لتفهم آرائه، أن نعقد فصلا لعصره، وماسبقه بقليل، نعنى فيه بدراسة الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة، ثم الأوضاع الفكريّة والروحيّة، لندرك طبيعة العصر الذي واجهه الإمام الشاذلي، وهو يقوم بدوره الاصلاحي التربوي.

أولا - الأوضاع السياسيّة والاجتماعية في عصر الشاذلي

1 - الوضع السياسي :

تجمع المصادر التي بين أيدينا على أنّ وفاة الإمام كانت في صحراء عَيْذاب بمصر، في سنة 656 هـ، بعد أن قضى شطرا من حياته في المغرب الأقصى، وتونس، ولقد كانت هاته الفترة التي عاشها أبو الحسن حافلة بالأحداث السياسيّة في العالم الإسلامي مغربه ومشرقه.

وسنتعرض في هذا المبحث بإيجاز إلى أوضاع كل من هاته البلدان، باعتبارها الإطار الذي عاش فيه الرجل.

1.1 - الوضع السياسي بالمغرب العربي :

ففي المغرب العربي آل الأمر إلى دولة الموحدين، إذ كانت تعرف أزهى أيامها في ظل حكم «أبي يوسف يعقوب»(1) المعروف بالمنصور صاحب الفتوح المظفّرة في الأندلس، والذي اشتهر بإكرامه للفقهاء ،والصالحين ، وأهل الفضل، حيث أجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال(2).

---

1 - هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسى الكومي صاحب بلاد المغرب، ولد سنة 554هـ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة 580هـ، توفي رحمه الله سنة 595هـ. أنظر في ترجمته :ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت :دار الثقافة [د - ت]، ج7، ص 3- 15.

2 - أحمد السلاوي الناصري، **الاستقصاء في تاريخ المغرب الأقصى**، ط1. القاهرة: المطبعة البهيّة المصرية سنة1312هـ، ج1، ص : 164.

وفي الوقت الذي كان «أبو يوسف يعقوب»يسعى إلى توطيدملكه، ويعمل على رد المظالم التي ظلمها العمال في أيّام أبيه، فاجأه «ابن غانية»(1) بخروجه عن طاعته، واحتلاله لبجاية سنة 581هـ، ليمد ملكه إلى الجزائر، ومليانة، ومازونة، والقلعة، ولما سمع به المنصور أرسل له جيشا بقيادة« أبي زيد بن أبي حفص» لكنّ ابن غانية تغلبّ عليه، مما اضطر المنصور للخروج إليه بنفسه، وناجزه وانتصر عليه، ورجع إلى مراكش سنة 584هـ(2).

غير أن« ابن غانية »بقي يمثل خطرا يهدّد استقرار الدولة الموحدّية مما حدا بالخليفة «محمد الناصر» (3) - ابن الخليفة «يعقوب المنصور» - إلى خضد شوكته وافتكّ منه المهديّة سنة 602هـ(4). لينتهي بذلك عهد« ابن غانية »آخر مدافع عن دولة المرابطين.

إلا أنّ بعض الأعداء من الإسبان النصارى، أرادوا أن ينتهزوا فرصة انشغال المنصور بإخماد ثورات «ابن غانية»، فحشدوا حشودهم لتحقيق انتصار ساحق، طالمّا منّوا أنفسهم به، فبعث ملك قشتالة «ألفونسو الثامن» برسالة إلى «يعقوب المنصور» ليغيظه، فأخذت النخوة والحميّة الإسلاميّة «يعقوب المنصور» فنادى إلى الجهاد في جميع أنحاء المغرب ضد النصارى، وعبر إلى الأندلس لملاقاتهم، فالتقى الفريقان، على مقربة من قلعة الأرك ALARCOS سنة 591هـ، ودارت معركة عنيفة بين المسلمين والنصارى انتهت بنصر مؤزر للمؤمنين، وهزيمة منكرة للصليبيين حيث استولى المسلمون خلالها على قلعة الأرك ورباح المنيعتين(5).

لكن هذه الهزيمة المنكرة التي مني بها النصارى دفعتهم إلى الثأر والانتقام فاشتدت تحرشاتهم على الأندلس، مما اضطر السلطان محمد الناصر لمواجهتهم، فكانت موقعة حصن العقاب في سنة 609هـ،(6) لكنّ المسلمين انهزموا بعد حرب مريرة استشهد فيها كثير من المجاهدين.

---

1 - هو علي بن إسحاق بن محمد المعروف بابن غانية أنظر في أخباره : أحمد السلاوي، الاستقصاء، ج1، ص 164، 165.

2 - المرجع نفسه، ج1، ص 165.

3 - هو أبو عبدالله محمد الناصر، بويع له بالخلافة في حياة والده يعقوب المنصور، ثم جددت له في سنة 595هـ، وهي السنة التي توفي فيها والده، توفي رحمه الله سنة 610هـ، أنظر:ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت : دار الآفاق الجديدة [د، ت]، ج5، ص 43 - 44.

4 - السلاوي ،المرجع السابق ، ج1، ص 189.

5 -المرجع نفسه، ج1، ص 175 - 180.

6 - المرجع نفسه ، ج1، ص 193.

ولقد كان لهذه الهزيمة أثر كبير في الإسراع بالدولة الموحديّة إلى السقوط والإنهيار، ومما إن جلا الموحدون من هذه المعركة حتى تعرضت الامارات ،والمدن الإسلامية لزحف سريع لم يكن يتوقف إلا ليستعد لجولة أخرى، وفي خلال سنين قليلة اكتسح المسيحيون أكثر البقاع الإسلامية.(1)

كما أفضت هذه الهزيمة إلى إضعاف سلطان الموحدين في المغرب الأقصى الأمر الذي دفع «أبا زكريا يحي عبد الواحد» إلى إعلان استقلاله التام بتونس عن الحكومة المركزيّة وكان ذلك عام 627هـ(2)، وهكذا ظهرت الدولة الحفصيّة على واجهة الأحداث السياسيّة.

ولم يمض وقت طويل حتى استطاعت أن تمدمساحة ملكها إلى القطر الجزائري (حتى مدينتي الجزائر وتلمسان) وإلى القطر المغربي (حتى سلجماسة ومكناسة وسبتة وطنجة)(3).

ويمكن القول أن الدولة الحفصية شهدت أزهى فترات ازدهارها في ظل حكم «أبي زكريّا الحفصي» - وهوالذي كانت فترته فترة إقامة أبي الحسن الشاذلي بتونس -ومما يظهر لنا عظم هذه المكانة استنجاد شاعر الأندلس الكبير« ابن الأبّار القضاعي»(4) بالأمير «أبي زكريّا »يستنهضه فيها لنصرة إخوته في الأندلس على الإفرنج ، لإنقاذ بلنسية ومما قال في قصيدته المؤثرة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلســـا ***** إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست ***** فلم يزل منك عزّ النصر ملتمسا
ياللجزيرة! أضحى أهلـــها جزرا ***** للحادثات، وأمسى جدّها تعسا.(5)

وأرسل أبو زكريا أسطولا لنجدة بلنسية ولكن الأسطول وصل بعد فوات الأوان.

وبعد وفاة أبي زكريا خلفه ابنه «محمد المستنصر بالله »(647هـ - 675هـ) الذي ورث دولة قوية، ووجد جوا ملائما ليعلن بأنه خليفة المسلمين، وليدعو الناس لمبايعته، وممن بايع الخليفة الحفصي حاكم مكة «ابن نمي »ويذكر لنا ابن خلدون نص هذه البيعة التي أنشأها له الفيلسوف الصوفي ابن سبعين (ت 669)هـ.(6)

---

1 - أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ط7 . القاهرة : دار النهضة المصريّة، 1984، ج4، ص 75.

2 - السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص 200 .

3 - حسن حسنى عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط2. تونس : المطبعة التونسية، 1924م، ص 110، 111.

4 -توفي مقتولا بأمر المستنصر والي تونس سنة 658هـ، أنظر: ابن العماد ، شذرات الذهب، ج5،ص 295.

5 - أحمد بن محمد المقرّي التلمساني، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر،1968م، ج4، ص 457 إلى 460.

6 - ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1983م. ج6، ص 435 -651.

وبالرغم من أن حضارة الحفصيّين بلغت أوجها في عهد« أبي زكريا »إلا أنّ تونس كانت في أيّامه هدفا لحملة صليبية قادها «لويس التاسع»، غير أن الفرنسيين هزموا بعد أن فشا الطاعون في تونس، وأتى على الجيش الفرنسي فهلك فيه «لويس التاسع» في العاشر من محرم سنة 669هـ، ودفن بمدينة قرطاجنة.

ولما توطّدت دعائم الدولة الحفصية أغرى ذلك كلا من بني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد في الجزائر إلى إعلان الاستقلال عن الدولة الموحدية، وظلت أمور هذه الدولة تتدهور إلى أن سقطت نهائيا سنة 668هـ، وانتهت بذلك أعظم دولة عرفها المغرب العربي.

هذا عرض موجز للأحداث السياسية بالمغرب العربي عامة، ومن خلاله يتبين بوضوح المغرب الذي استقبله الشاذلي وهو المغرب المنهارالقوى بسبب كثرة الحروب التي مزقت أوصاله.

1 .2 - الوضع السياسي في مصر :

قدم أبو الحسن الشاذلي إلى مصر في عهد الأيوبيّين، وكان الوضع السياسي فيها لايختلف عنه في المغرب والأندلس، فما أكثر الحروب التي شنّها الصليبيون على مصر والشام.وماأكثر الفتن الداخلية التي وقعت في البلاد من جرّاء تنافس الأمراء وتنازعهم على السّلطة.

على أنّ هذه الفترة أشهر من أن يتناولها البحث بالتفصيل إذ كفتنا ذلك كتب التاريخ التي هي على حبل الذراع لمن يريد، ولكن حسبنا أن نشير إلى حملة «لويس التاسع» ملك فرنسا على مصر في عهد الصالح «نجم الدين أيّوب» (636هـ - 647هـ). ذلك لأنّها معركة فاصلة حضرها الشاذلي نفسه.

ويذكر «اليافعي »اليمني أن الحملة سارت إلى مصر، ونزلت على دمياط، واستولت عليها في سنة 647هـ، بلا طعنة ولاضربة(1) مما أغرى «لويس التاسع» ،فتقدم بعدها إلى المنصورة، فدخلها دون مقاومة، ثم فوجيء بهجوم كاسح من الجيش الإسلامي، فدارت معركة عنيفة في شوارع المنصورة انهزم خلالها جل الفرنج ورفع الباقي أيديهم بالتسليم، فشدّ المسلمون وثاقهم، وأخذوهم أسرى، ويذكر «اليافعي» اليمني أن الملك « لويس التاسع »كان ممن أسر في هذه المعركة مع أكثرمن عشرين ألف جندي، إلا أنّه افتدى نفسه بخمسمائة ألف دينار.(2)

---

1 - اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط1. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1339هـ، ج4، ص 116.

2 - المرجع نفسه، ج4، ص 117، 118.

غير أن سنّة التاريخ جرت على الأيوبيين ،فانقرضت دولتهم سنة 648هـ. بعدأقل من سنة من هذا الانتصار العظيم الذي حققوه في معركة المنصورة على يد ملكهم «طوران شاه» ابن الملك الصالح الذي ظهرت منه خفة وطيش ،وأمور خرج عليه بسببها مماليك أبيه فقتلوه، وملّكوا مكانه «عز الدين بن أيبك التركماني»(1) الملّقب بالملك المعز، فكان أول سلاطين المماليك.

وقد تابع المماليك حرب الصلّيبيين، وردوا خطر التتار على الشام ومصر بعد سقوط الخلافة العباسيّة ببغداد ، وقتل الخليفة« المستعصم بالله »سنة 656هـ (2)، وهي السنة التي توفي فيها الشاذلي.

وهكذا كان العصر الذي استقبل الشاذلي، عصرا مليئا بالأحداث، والتطورات السياسيّة التي تمثلت في الحروب الصليبيّة التي كانت مستعرة في أرجاء العالم الإسلامي آنذاك مشرقه ومغربه ،انضافت إليها حملات التتار، علاوة على الفتن الداخليّة التي اكتست صبغة الحروب الأهليّة الخطيرة لاسيّما بين الحفصيين، والزيانيين، والمرينيين الذين كانوا يتصارعون على النفوذ والسلطة في المغرب الإسلامي، والتناحر على الحكم بين أبناءوأمراء البيت الأيوبي في المشرق.

في هذه الفترة التي توالت فيها النكبات والأرزاء، تنبهت العواطف الدينيّة، وتيقظت فيها النزعة الروحيّة، فظهر التصوف واتسع نطاقه في أوساط كثيرة من النّاس حتى قيل إنّه حينما تضعف السلطة السياسيّة، أو تختل الحياة الاجتماعيّة تتسع الأحوال الصوفيّة.(3)

2 - الوضع الاجتماعي :

سبق أن بينّا أنّ الجوّ السياسيّ الذي عاش فيه الشاذلي تميز بالاضطرابات والفتن، وطبيعي أن يكون عصر هذه حالته السياسية أن يتسم باضطراب في أحواله الاجتماعية التي تجلّت لنا أكثر في المستويات التالية :

2 .1 - أجناس وطبقات الشعب :

كان المجتمع المغربي في عصر الشاذلي يتألف من عدة عناصر مختلفة أهمهاالعنصر

---

1 - هو المعز بن أيبك التركماني الصالحي، صاحب مصر كان ذا عفة ودين وترك للمسكر، قتل من طرف شجرة الدّر وهو في الحمّام، توفي سنة 655هـ أنظر في ترجمته : الذهبي، العبر في أخبار من غبر،ط1. الكويت: مطبعة الحكومة، 1966م، ج5، ص 222.

2 - أنظر : ابن كثير ، البداية والنهاية، ط7، بيروت:مكتبة المعارف 1988م، ج13، ص204.

3 - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ط1، بيروت، دار العلم للملايين 1983م، ج6، ص 74.

العربي، والعنصر البربري، إلى عناصر أخرى مثل الأكراد والجراكسة، إذ تشير المصادر التاريخية(1)أن كثيرا من هؤلاء الجند الذين بعث بهم «صلاح الدين الأيوبي» لقتال «يعقوب المنصور الموحدي» قد استوطنوا طرابلس ،والجنوب التونسي بل تشير هذه المصادر أن «المنصور» قد استطاع أن يستميل الكثير منهم، ويستخدمهم في الجيش الموحدي بالإضافة إلى الإفرنج الذين وقع الكثير منهم تحت الأسر وأقاموا في البلاد.

أما المجتمع المصري في عهد الأيوبيين، فقد كان مجتمعا خليطا من جماعات مختلفة، وأجناس متباينة من العرب، والبربر، والترك، والأرمن، والإفرنج، والمغل، كما هو الشأن في الأزمان التي تكثر فيها الحروب، وفي هذا يقول المقريزي :

«فلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق وأسروا كثيرا منهم وباعوهم، تنقلوا في الأقطار ، واشترى الملك الصالح «نجم الدين أيوب» جماعة منهم سماهم البحرية، منهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز بن أيبك»(2).

هؤلاء جميعا وآخرون غيرهم عاشوا في صعيد واحد على اختلاف أجناسهم، وتباين تقاليدهم. وطبيعي أن يكون المجتمع الذي يتألف من هذا النحو مجتمعا مضطربا ليس فيه قرار ولاسكون.

وكان الناس في عهد الموحدين ينقسمون ثلاث طبقات هي : السابقون الأولون، ثم الأتباع، ثم العامة، وخص أعضاء الأسرة المالكة من أبناء «عبد المؤمن بن علي» أنفسهم بلقب السيّد(3).

ومن أضبط الوثائق التي توقفنا على بنية المجتمع المصري للعصر الذي عاشه أبو الحسن وثيقة لـ«شهاب الدين المقريزي» صوّر فيها طبقات المجتمع إذ يقول :

«فالقسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني:أهل اليسار من التجار، وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، يلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة، والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أرباب الزراعة، والحرث وسكان القرى، والريف، والقسم الخامس: الفقراء، وهم جل الفقهاء،

---

1 - حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي** ط1، بيروت : دار الأندلس، 1967. ج4، ص 629. وانظر تاريخ بن خلدون. ج6، ص 395.

2 - تقي الدين المقريزي، **الخطط والآثار**، القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه. [د، ت]،ج2، ص 221.

3 - عمر فروخ : **تاريخ الأدب العربي**، ج5، ص363.

وطلاب العلم، والقسم السادس: أرباب الصنائع، والأجراء أصحاب المهن. والقسم السابع: ذوو الخصاصة، والمسكنة، وهمٌ السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون من ذلك (1)»

ومن طبقات المجتمع في تلك الحقبة، طبقة الرقيق الذين كانوا يؤلفون فئة كبيرة من أسرى الحروب، منهم الرقيق الزنجي، والتركي، والرومي، فانتشرت بسبب ذلك الجواري المأسورات انتشارا واسعا، مما كان له أثره السيء في إفساد الروابط الاجتماعية، لما ترك من اختلاف في مزاج الأبناء.

وقد اضطلع هذا الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال متنوعة، وتغلغل في وسط المجتمع، فكان منهم الجند والقواد.

أما في مصر فقد بلغوا أرقى المناصب، حتى كان منهم من ملك ديار مصر «كالمعز بن أيبك التركماني».

ومن هذا نرى كيف أثّر الرقيق من الناحية الاجتماعية، والحربية، والأخلاقية، بل والمالية. ذلك لأن المماليك كانوا طبقة عسكرية قائمة على الاقطاع.

ولقد ترتب عن هذا الاضطراب الاجتماعي، **اضطراب الأحوال الإقتصادية** إذ أن خزينة الدولة لابد أن تتأثر بهذه الاضطرابات التي تؤدي غالبا إلى تفشي المجاعة، والقحط ،ويذكر ابن الصباغ أن الشاذلي قال : «دخلت تونس وأنا شاب صغير فوجدت فيها مجاعة شديدة، ووجدت النّاس يموتون في الأسواق»(2)

أما مصر فلقد كانت في الفترة التي دخلها الشاذلي، تعرف نوعا من الاستقرار والرخاء المادي، في عهد الملك الصالح، ويصور لنا المقريزي ذلك فيقول : «وكانت البلاد في أيامه مطمئنة، والطرق سابلة» (3) إلا أن هذا الاستقرار لم يكن عاما ففي سنة 656 هـ باشر البلاد الغلاء. ويحدثنا المقريزي عن ذلك فيقول :

> فيها وقع الغلاء وباشر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق، وحلب وأرض مصر، وبيع المكوك[مكيال للحبوب يسع صاعا ونصفا] بمائة درهم، والشعير بستّين درهما، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما وبقية الأسعار في هذه النسبّة.(4)

---

1 - نقلا عن : عاطف جودة نصر، **عمر بن الفارض**. ط1، بيروت : دارالأندلس 1982م ص 53، 54.

2 - ابن الصباغ ، **درة الأسرار وتحفه الأبرار**،ط1، تونس : المطبعة الرسمية 1304هـ، ص 5.

3 - المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**،ط1، القاهرة، دار الكتب المصريّة 1934م، ج1، ق2، ص 340.

4 - المرجع نفسه. ج1، ق2، ص 409.

وبسبب هذا كلّه نشأت مظاهر مؤلمة في الحياة الإجتماعية، فكثرت وسائل الاستغلال، وبرز الاحتكار، فكان من نتائج ذلك انتشار نزعة التصوف والطرق، وبخاصة في أوساط العوام الذين يكونون الأغلبية السّاحقة في الأمّة ويظهرلنا «قطب الدين القسطلاني» أوضاع الطرق الصوفية في عهده فيقول :

ورأيت ماظهر في زماننا هذا من إعتناء العوام بأهل الإدعاء والإتباع للأهواء، لفقد نور العرفان المميّز بين مراتب الأصفياء [...]ظنّوا أن الفقروالتصوف أذكار مشهورة، ومنامات مستورة، وخيالات مذكورة جعلوا التلبّس بشعار الفقر مأكلة، والتقدس بذكر اللّه بينهم مشغلة، والتآنس بالمعاشرة عن المبادرة للطاعة مكسلة،وتلك حالة لمن تأملها مشكلة وفتنة لمن تعقلّها مذهلة(1)

والحقيقة أن هذا النّص يعبر بصدق عن روح ذلك العصر، الموسومة بالقلق والاضطراب. مما ألجأ النّاس لاستشراف الغيب، فانتشرت الشعوذة، والسحر، والطّلسّمات، وهي أمور في العادة تتبع ظهور التصوف المنحرف عن أهدافه النّبيلة.

أما طبقة الفقهاء فقد كانت منقسمة إلى قسمين :

قسم يتصلون بالأمراء والسلاطين، أو يعملون في مناصب الدولة، وكان هؤلاء ميسورين نسبيا بفضل مايغدقه عليهم الأمراء والسلاطين من مرتبات طيبّة من ذلك مثلا : الفقيه الشاعر «أحمد الليانى»(2) الذي جمع ثروة طائلة، كانت السّبب في قتله.

أما من بَعُدَ من العلماء عن القصور فكانوا فقراء غالبا لايجدون مايقيم أودهم وكذلك كان الحال في مصر تقريبا ،إذ تشيرالمصادر أن قاضي القضاة «تاج الدين بن بنت الأعز» كانت بيده سبعة عشر منصبا يقول ابن كثير عنه : «وكان بيده سبعة عشر منصبا، منهاالقضاء والخطابة ونظر الأحباس، ومشيخة الشيوخ، ونظر الخزانة وتداريس الكبار، وصادره بنحو أربعين ألف، غير مراكبه وأشياء كثيرة»(3)

---

1 - قطب الدين القسطلاني، إقتداء الغافل بالعاقل. نقلا عن: جلال الدين السيوطي تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذلية، ط1، القاهرة : المكتبة الإسلامية 1934م، ص31، 32.

2 - أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، بيروت : دارالكتاب اللبناني 1349هـ، ج1، ص189.

3- ابن كثير، البدايةوالنهاية، ج13،ص 322.

وإلى جانب ذلك نرى علماء يكادون يتكفّفون النّاس وهو مانتبينّه من رسالة بعث بها «جمال الدين محمد بن مالك» إلى السلطان يستدرُّ بها عطفه قال فيها :

رفعها الفقير إلى رحمة ربّه محمد بن مالك يقبّل الأرض وينهي إلى السلطان أيّد اللّه جنوده، وأبّد سعوده، أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات، والنحو، واللّغة وفنون الأدب وأمله أن يعيّنه سيّد السلاطين ومبيد الشياطين - خلّد اللّه ملكه وجعل المشارق والمغارب ملكه - على ماهو بصدده من إفادة المستفدين والمسترشدين بصدقة تكفيه همّ عياله وتغنيه عن التسبّب في صلاح حاله(1)

وعلى الرغم من الخصاصة التي يعانيها غالبية العلماء تقريبا، فإنّ هذا لم يدفعهم جميعا إلى الاستكانة، والخضوع للحكام، وإذ اكان في العلماء مثل هذا الصنف الذي لايخلو منه أيّ عصر فإننا نجد فيهم مثل : «النووي» (ت 676هـ) الذي كان يأمر بالمعروف ،وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم(2)، «والعزبن عبد السلام» صاحب المواقف المشهورة مع سلاطين عصره وأمرائه.

ويكفي أن نشير إلى أحد مواقفه وذلك حين بنى بعض غلمان الصاحب «معين الدين» شيخ الشيوخ ، وزير الملك الصالح، بناء بأمر مخدومه على سطح مسجد بمصر، فأنكر ذلك العز ومضى بنفسه وأولاده حتى هدم البناء، ثم أشهد قاضي القضاة على نفسه أنه قد أسقط شهادة الوزير«معين الدين»، وأنّه قد عزل نفسه من القضاء(3).

أما طبقة السلاطين والأمراء، فإنهم على رغم الحروب لم ينسوا أن يحيطواأنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة، من ذلك مايذكره « المقريزي »من حبّ الملك الصالح للبناء حتّى أنه كان يباشره بنفسه، - وهو السلطان الذي قدم في عهده

---

1 - جلال الدين السيوطي، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**. نقلا عن : محمد أبي زهرة، ابن تيمية. القاهرة: دار الفكر العربي، [د. ت]، ص 152.

2 - ابن كثير: المرجع السابق، ج 13، ص279.

3 - تقي الدين المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، ج 1 ، ق 2 ، ص 312.

الشاذلي إلى الديار المصرية - فيقول:

وعمر بمصرمالم يعمره أحد من ملوك مصر، فأنشأ قلعة الروضة تجاه مدينة فسطاط بمصر، وأنفق فيها أموالا جمة. وأسكن بهذه القلعة ألف مملوك من الترك وقيل ثمانمائة - سماهم البحرية - فجاءت هذه القلعة من أجلّ مباني السلطان، وبنى على النيل قصورا بلغت الغاية من الحسن... وبنى قصرا فيما بين القاهرة ومصرسماه الكبش على الجبل بجوار جامع ابن طولون وبنى قصرا بالقرب من العلاقمة بأرض السائح وجعل له مدينة سماها الصالحية (1)

كما تشير المصادر أنّ العمران قد اتّسع في أيام الموحدين، بخاصة في أيام «يعقوب المنصور»، ومن آثاره الجامع الأعظم بمراكش، وجامع أشبيلية ومئذنته التي هي طراز رائع من العظمة والزخرفة وارتفاعها خمسة وتسعون مترا (2).

2 .2 - الخلافات المذهبيّة :

ويجب ألاّ يغيب عن أذهاننا ،ماكان يسود هذا المجتمع أحيانا كثيرة من قلق واضطراب نتيجة اختلاف بعض الفرق الإسلامية حول مسائل كلاميّة، وسياسيّة، كثيرا ماكان ضيق الأفق، والتعصّب المذهبي، يحولّها إلى شحناء، وبغضاء، ودسائس، وموالاة لأعداء الإسلام، من ذلك ماوقع في سنة 655هـ. إذ يحدّثنا ابن كثير عن وقوع فتنة عظيمة بين السنّة والشيعة، فنهب خلالها الكرخ، وبيوت الرافضة، حتّى بيت الوزير« ابن العلقمي»(3)، فكان ذلك من أقوى أسباب حنقه التي دعته إلى ممالأة التتار(4) الذي أفضى إلى سقوط بغداد وقتل الخليفة «المستعصم »ومعه أكثر من مليون نفس(5).

---

1 - تقي الدين المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج1، ق2، ص 342.

2- عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج5، ص 363 - 364.

3 - هو الوزير الشيعي محمد بن محمد الملّقب بمؤيد الدين، ولي وزارة العراق أربع عشرة سنة، وكان ذا حقد وغل على أهل السنّة توفي سنة 656هـ. أنظر في ترجمته : اليافعي ، مرآة الجنان، ج4، ص 147.

4 - أنظر : ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص196.

5 - اليافعي، المرجع السابق ،ج4، ص 137.

ومن هذا النوع، خلاف الصوفي «عبد الحق بن سبعين»(1) مع الفقيه «أبي بكر بن خليل السّكوني» (2)، الذي كان سببا وراء هجرة ابن سبعين إلى المشرق . وهي الخلافات نفسها التي حاكت المؤامرات للشاذلي في تونس واضطّرته للرحيل إلى الديار المصريّة.

2 .3 - الأخلاق العامة :

وبعد الذي قدّمنا عن فساد الأوضاع السياسيّة، وسوء الأحوال الاجتماعيّة، نعرف مقدار فساد الحياة الخلقيّة لعهد الشاذلي ،إذ ليست النتائج الحاصلة إلا صورة مرهونة بمقدّماتها ، وما بنا حاجة للإطالة في هذا ،فإن هذا المجتمع لم يكن بدعا عن كثير من المجتمعات التي تقدّمته أو جاءت بعده، ومن ثمّ نكتفي بإيراد هذه الأمثلة، ونعتقد أنّ فيها مقنعا لمن شكّ أو ارتاب.

أ - يذكر المؤرخون، أنّ «أبازيد بن السيّد عبد اللّه» «حفيد عبدالمؤمن بن علي» وشقيق آخر خليفة موحدي، يعلن تنصّره في مشهد حافل بحضور« الفونسو العاشر» ملك قشتالة، ومماقاله أبو زيد في ذلك الحفل: «استشهدكم يامن حضر من المسلمين والنصارى واليهود أني قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة وكنت أكتمه - وأنا الآن - أبحته وأظهرته وأن دين المسيح بن مريم هوالدين القويم الأزلي»(3)

ولاشك أن هذا النّص يثبت بما لايدع مجالا للشك مدى التميّع الذي آل إليه أحفاد «علي بن عبد المؤمن».

ب - ويذكر المقريزي في حوادث سنة 664هـ أن السلطان الظاهر بيبرس «اشتدّ انكاره للمنكر، وأراق الخمور، وعفى آثار المنكرات ومنع الخانات(4) ،والخواطيء

1- الصوفي المتفلسف، صاحب كتاب «بد العارف» توفي سنة669هـ. مقتولا. أنظر في ترجمته : اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص 171؛ ابن الملّقن ،طبقات الأولياء. بتحقيق نور الدين شريبة، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي 1973م، ص 442؛ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، ابن سبعين وفلسفته الصوفيّة، ط1 ، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1973م.

2 - هو أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل السكوني، كان فقيها صالحا توفي في سنة 716هـ أنظر في ترجمته :أ حمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، ط1. القاهرة : مطبعة السعادة 1329هـ، ص 255.

3 - أنظر : عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. ط1، القاهرة ، لجنة التأليف والنشر 1964 ج2، ص 561.

4 - الخانات ومفردها خانة وهي أماكن العبث والاستهتار.

بجميع أقطار مملكته بمصر والشام فطهرت البقاع من ذلك» (1)

وعلى الجملة فإن الوضع الاجتماعي في العالم الإسلامي قاطبة كان قلقا، نتيجة الاضطراب السياسي في الداخل، وكيد الأعداء من الخارج، مما حدا بالكثير إلى الإنضواء تحت لواء مشائخ الصوفية، عساهم يجدون عندهم العزاء مما يصيبهم من عنت ومشقة ،بسبب كثرة الفتن، واختلال الأمن.

هذه أهم مظاهر الوضع الإجتماعي في عهد أبي الحسن الشاذلي، صورناها بإيجاز وستتبين معالمها أكثر عند دراستنا للأوضاع الفكريّة، والروحية.

ثانيا - الأوضاع الفكريّة والروحيّة في عصرالشاذلي :

1 -الوضع الفكري :

إن الباحث في العهد الذي عاشه الشاذلي يجد أن الأوضاع الفكريّة خلال هاته الفترة وماقبلها كانت مزدهرة جدا ،على الرغم من الاضطرابات السياسيّة، والفوضى الاجتماعيّة، والانحطاط العام. ويرجع الفضل في شطر كبير منه إلى النشاط الذي أوجده الموحّدون ،والأيوبيّون في كل من المغرب ،ومصر من أجل دراسة العلوم الدينيّة حيث انتشرت في عهدهم المدارس انتشارا واسعا مما مهد لازدهار النهضة العلميّة.

ولم تكن هذه النهضة العلميّة وليدة رغبة ذاتيّة، بل انضاف لها عامل آخر ربّما كان أقوى من رغبة السلاطين الشخصيّة في نشر العلم، يتمثل في رغبة السلطة السياسيّة سواء في المغرب ،أو المشرق في استغلال هذا المعطى استغلالا سياسيا لمقاومة مذاهب الخصوم ،والقضاء على تأثيرها نهائيا.

1 .1- الوضع الفكري بالمغرب العربي :

فإذا انتقلنا إلى العهد الموحدي، وهو العهد الذي عاش فيه الشاذلي ،فإننا نجد «المهدي بن تومرت»(2) زعيمهم يولي عناية خاصة بالعلم وفضله، يقول في مفتتح

---

1 - تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك. ج1،ق 2، ص 553.

2 - أبو عبد الله محمد المغربي السوسي، مؤسس الدولة الموحديّة، توفي سنة 524هـ، أنظر في ترجمته : ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 45 - 55؛ عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت**،ط1. بيروت : دارالغرب الإسلامي 1983م.

كتابه «أعز مايطلب» :«أعز مايطلب، وأفضل مايكتسب، وانفس مايدّخر، وأحسن مايعمل، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير»(1)

فلا مصدر للهداية عند المهدي إلا بالإيمان، ثم يقرر أن الإيمان لايتوصل إليه إلاّ بالعلم، وهو المعنى الذي ألّح عليه في مواضع متفرّقة في كتابه الآنف الذكر.

ولقد سار خلفاؤه من بعده، على هذا الدرب الذي سلكه، فأثبتوا حرصهم على العلم، وإكبارهم للعلماء وحبّهم في اقتناء الذخائر العلميّة.

ولقد عمد المهدي إلى نشر الأشعريّة في المغرب والأندلس، ضمن خطته الراميّة إلى تعويض ماكان سائدا من تصورات عقائديّة تنزع في مجملها إلى ترك التأويل، وإقرار المتشابهات كما جاءت، فطعن على أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعريّة في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم، مثل «المرشدة في التوحيد.»(2)

فالإتجاه العام الذي يميز دعوة المهدي هو نشره للعقيدة الأشعريّة حتى دان بها أهل المغرب، وأصبحت المذهب الرسمي في سائر البلاد.

ولما تولّى «عبد المؤمن بن علي» الملك اعتنى بمؤلفات المهدي، بل كان بنفسه يقوم بتدريس مسائل منها، وأصدر في ذلك مرسوما يأمر فيه العامة بأن يشتغلوا بدراستها، فتكونت بسبب ذلك مدرسة مغربيّة في أصول الدين ذات صبغة أشعريّة وقد قام على تنشيط هذه المدرسة جماعة من العلماء نذكر من هؤلاء : «أبا الحسن علي بن محمد بن خليل الأشبيلي »ت 567هـ. و«أبا عمرو عثمان القيسي القرشي» المعروف بالسلالجي ت 564هـ. صاحب «العقيدة البرهانية»، و«أبا العباس أحمد بن الرحمن بن الصغير الأنصاري» ت 559هـ. وألّفوا في ذلك كتبا لنصرة عقيدة الأشعري(3).

وحقيقة مذهب «الأشعري »رحمه اللّه كما يقول المرحوم أبو زهرة :

أنّه سلك في الاستدلال على العقائد مسلك النّقـــل
ومسلك العقل، فهو يثبت ماجاء في القرآن والحديث

1- المهدي بن تومرت، أعز مايطلب، تحقيق د عمّار الطالبي، ط1. الجزائر : المؤسسة الوطنيةللكتاب 1985م، ص 29.

2 - ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 6 ص 446.

3 - عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، ص 444، 445.

الشريف من أوصاف الله تعالى ورسله... ويتجّه إلى الأدلّة والبراهين المنطقية ليستدل على صدق ماجاء في القرآن والسنّة عقلا بعد أن وجب التصديق بها كما هي نقلا. وقد استعان في سبيل ذلك بقضايا فلسفيّة، ومسائل عقليّة خاض فيها الفلاسفة وسلكها المناطقة.(1)

وقد كان لانتشار هذه الطريقة في الاستدلال أثرها في نمو النزعة العقليّة بخاصة في بلاد المغرب والأندلس، حيث شهدت الفلسفة بعض الانتشار على يد «يعقوب المنصور الموحدي »الذي قرّب إليه بعض الفلاسفة« كابن طفيل» الذي نحا في الفلسفة منحى إشراقيًا كما في رسالته «حي بن يقظان».

حيث رام أن يثبت فيها أن العقل، والشرع يؤديان إلي غاية واحدة، و«كابن رشد» الذي بذل جهودا مضنية في التوفيق بين الفلسفة والدين، أوالحكمة والشريعة، على حدّ تعبيره تجلّت أكثرفي كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال».

وهكذا ازدهرت الفلسفة في هاته الفترة، ولقيت شيئا من التقدير كان من نتائجه الازدهار الرائع لحركة التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين، كما يرى المستشرق «ألفردبل»(2). ويبدوأنّ هذا الازدهار العلمي لم يكن حكرا على الخاصة، بل امتد إلى سواد النّاس وفي ذلك يقول «المقري »عن قرطبة : «وهي أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأهلها أشد النّاس اعتناء بخزائن الكتب»(3)

أما تونس، وهي المدينة التي عاش فيها الشاذلي ردحا من عمره، فإننا نجد سلطانها « أبا زكريا »مؤسس دولة الحفصيين - يهتم بإنشاء المدارس وتشييد المساجد،ويذكر المؤرخون أنّه أنشأ دارا للكتب جمع فيها أكثر من ستة وثلاثين ألف مجلّد من أنفس المؤلفات.(4)

---

1 - محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، القاهرة : دار الفكرالعربي [د، ت] .. ص 167 ، 168.

2 - ألفردبل، الفرق الإسلاميّة في الشال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي ط2، بيروت : دار الغرب الإسلامي 1981م. ص 379.

3 -المقري التلمساني، نفح الطيب، ج1، ص 215.

4 - نقلا عن: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ص 111.

وفضلا عن ذلك فإنّ« أبا زكريا » (1) كان كما يذكر مترجموه عالما، وشاعرا، ووصيته المشهورة تشهد له على مثل هذه الأوصاف.

ولاغرو أن يكون الانتاج العلمي في هذا العصر غزيرا في كل ميدان، ولا أدلّ على ذلك من عظم الثروة العلمية التي تحفل بها مكتباتنا والتي وصلتنامن ذلك العهد، ويحسن بنا أن نذكر بعضا منها:«كالتكملة لكتاب الصّلة »، و «الحلّة السيراء» لأبي عبد اللّه محمد المعروف بابن الأبّارالقضاعي (ت 658هـ)؛ «وروح القدس في محاسبة النفس »و«الفتوحات المكيّة»، لابن عربي(2) (ت 638هـ)، و«بد العارف »لعبد الحق بن سبعين(ت669هـ)؛ و«الوافي في الفرائض»، و«مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل» لأبي الحسن على الحرالي التجيبي (3)(ت 637هـ).

1 .2- الوضع الفكري في مصر :

إن المتأمل في الأوضاع الفكرية بمصر، في عهد الأيوبيّن - وهوالعصر الذي عاش فيه الشاذلي - يجده مزدهرا للغاية. وممّا ساعد على ازدهار الحركة الفكريّة رعاية أولى الأمر للعلم والعلماء، فكان «صلاح الدين» كما يشير إلى ذلك مترجموه «يحب العلماء، وأهل الخير، ويقرّبهم، ويحسن إليهم» (4).

وقد تابع أمراء البيت الأيوبي سيرته في ذلك، فكان أخوه «العادل» مائلا إلى العلماء، حتّى صنّف له فخر الدين الرّازي كتاب «تأسيس التقديس» (5)

كذلك ساعد على نمو الحركة الفكريّة في هذا العهد انتشار المدارس في مصر والشام، فلقد أكثر الأيوبيّون من بناء المدارس للقضاء عل آثار المذهب الشيعي من جهة، ولتدعيم المذهب السنّي من جهة ثانية.ويذكر «المقريزي»أن «صلاح الدين »بني لهذا الغرض عدة مدارس أشهرها المدرسة النّاصرية، بجوار الجامع العتيق لتدريس المذهب الشافعي، والمدرسة القمحيّة ،لتدريس الفقه المالكي، والمدرسة السيوفيّة لتدريس الفقه الحنفي(6).

---

1 - أنظرفي ترجمته : محمد النيفر، عنوان الأريب، ط1. تونس : المطبعة التونسية. [د. ت] ج1، ص 62، 63، 64، وانظر وصيته المشهورة عند ابن خلدون، العبر، ج6، ص 620 إلى623.

2 - متصوف أندلسي، من أخطر مؤلفاته : الفتوحات المكيّة» وفصوص الحكم» أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء،ص 469؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5 ، ص 190- 202؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج4 ،ص 100، 101.

3 - أنظر في ترجمته : الغبريني ، عنوان الدراية : تحقيق رابح بونار، ط2،الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981م ص :145، 146.

4 - أنظر : ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص 207.

5 - نفس المرجع ، ج 5، ص 76.

6 - المقريزي، الخطط والآثار. ج 2، ص 363.

وقد نهج سلف «صلاح الدين» نهجه في ذلك، فلم يتوانوا في إنشاء المدارس، ويكفي أن نشير إلى بعض المدارس التي أسست في العهد الأيّوبي :

المدرسة الكامليّة : وتعتبر الدار الثانية التي تخصصت في دراسة «الحديث النّبوي» بالشرق الإسلامي، بعد المدرسة النوريّة، وأسس هذه المدرسة «الملك الكامل» سنة 622 هـ.(1)

المدرسة الصّالحية وبناها الملك الصالح «نجم الدين أيوب» سنة 639هـ . وجعلها لفقهاء المذاهب الأربعة (2).

ويذكر المؤرخون أن عدد المدارس التي شيّدت في العصر الأيوبي بلغ ستا وعشرين مدرسة (3) ولاشك أنّ التوسع في إنشاء المدارس يدل على مدى رقي الحياة الفكريّة في عهد الأيّوبيّين.

والواقع أن مدارس ذلك العصر هي بمثابة جامعات عصرنا الحاضر، تعنى بتدريس العلوم الدّينيّة من فقه ،وحديث ،وتفسير، وغيرها، كما تعنى بتدريس العلوم غير الدينيّة كالفلسفة والمنطق والحساب.

ولقد حذا المماليك حذو الأيوبيين، فاعتنوا ببناء المدارس، وتشجيع العلماء وتكريمهم.

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا كلّه إلى ازدهار رائع لحركة التأليف، ولاأدل على ذلك من كثرة التصانيف، والموسوعات العلميّة في شتّى فنون المعرفة التي وصلتنا من ذلك العهد، نذكر منها :

«قواعد الأحكام» للعز بن عبد السّلام (ت 660هـ)؛ و «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (ت 671هـ)؛ و «البحر الكبير في نخب التفسير» لابن المنير (ت 683هـ)؛ و«الترغيب والترهيب» لعبد العظيم المنذري (ت 656هـ)؛ و «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة الأندلسي (ت 675هـ)؛ و«أخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي (ت 646هـ)؛ و «الألفيّة» في النحو لابن مالك (ت 672هـ)؛ و «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (ت 665هـ)، وغيرها مما يتعذر ذكره.

هذه صورة موجزة للأوضاع الفكريّة، في البيئة التي نشأ فيها الشاذلي بشقّيها : المغربي والمشرقي وهي صورة تضيء لنا الطريق في دراسة الشاذلي المتصوف، وتلقي ضوءا كبيرا على الحياة الروحيّة لذلك العصر.

---

1 - المقريزي، الخطط والآثار، ج2، ص 375.

2 - نفس المرجع، ج2، ص 374.

3 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ج4، ص 608.

2 - الوضع الروحي :

أشرنا سابقا إلى الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والفكريّة لعصر الشاذلي وماكان منها ذا تأثير على حياته، ولما كان التصوف هو أبرز ناحية في شخصيّة الشاذلي. بات لزاما علينا أن نعرف الأوضاع الروحيّة في عهده، حتّى نفهم ذلك التجديد الذي أدخله الشاذلي عل الفكر الصوفي في العالم الإسلامي بأسره.

2 .1 - الوضع الروحي بالمغرب الإسلامي والأندلس :

بلغت الحياة الروحيّة في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ،أوج ازدهارها ،حتى يمكننا ان نعتبرهذين القرنين بحق عصري ازدهار التصوف في المغرب، حيث نجد عددا من النوابغ، وأصحاب الفضل والكمال.

فلقد شهد القرن السادس في المغرب أعلام التصوف الذين حفظوا لنا أسسه وأصوله، كالشيخ الرباني «أبي مدين» الذي كان تأثيره على متصوفة المغرب العربي عظيما ، حتى لم تبق بقعة في هاته البلاد إلا ويوجد فيها نفر من خلفائه وأتباعه. وتحولت تلمسان وهي المدينة التي ضمّت قبره - إلى مركز روحي خرّج الكثير من أئمة الصوفيّة على منهج الشيخ، هذا المنهج الذي يقول عنه الفاضل بن عاشور :

> هو منهج التصوف السنيّ القائم على الجمع بين الشريعة والحقيقة،وقداستقى الشيخ «أبو مدين» أصول ذلك المنهج و أسراره ، بالحذق من إمام الطريقة الصوفية الشيخ« عبد القادر الجيلاني» وجعل مرجعه الأساسي في ذلك كتاب الإحياء لـ« الغزالي » ، وقد جاء هذا المزج بين التصوف و الفقه ،على طريقة الغزالي، متجانسا مع روح العقلية الإسلامية ،المسيطرة يومئذ على بلاد المغرب العربي بصفة خاصة تبعا لسيادة الموحدين وقد كان المهدي بن تومرت من أتباع الطريقة الغزالية وأشياعها .(1)

والحقيقة أنّ إتجاه «المدرسة المدينيّة»(2) امتداد طبيعي لمدرسة الغزالي السنيةّ

---

1 - الفاضل بن عاشور، **أعلام الفكر الاصلاحي في تاريخ المغرب العربي**، ط1، تونس : مكتبة النجاح ص 81.

2 - تنسب الطريقة المدينيّة إلى شعيب بن الحسين المعروف بأبي مدين ولد في قنطيانة قرب أشبيليّة قال عنه ابن قنفد أنه كان زاهدا في الدنيا، عارفا بالله توفي سنة 594هـ، أنظر في ترجمته : ابن قنفد، **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، المغرب : المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965م ،ص 11. ومحمد عبد الرؤوف المناوي، **الكواكب الدّرية في تراجم السّادة الصوفية** مخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 2037، ص 8 - 10 وأ نظر أيضا :

A:BEL:Encylopedie de l'Islam ;Art: Abu madyan: paris 1913; v1;pp100 -101

وانظر أيضا: Emile; Dermenghem: Vies des saints musulmans; paris sindbad; 1983; pp 249 - 263

التي تقوم على الزهد ، والتقشف، والتفاني في طاعة الله، وتدعو للعمل المنتج، ومن المعروف أنّ حركة التصوف المتأثر« بأبي حامد الغزالي» عرفت انتشارا واسعا في مغرب هذا العهد إبّان ازدهار الدولة الموحديّة، وتشير المصادر التاريخيّة إلى أنّ مؤسس هذه الدولة «المهدي بن تومرت» كان من تلاميذ الغزالي المباشرين، وهو الذي دافع عن كتبه، وندب الناس إلى قراءتها ، فصارت «قراءتها شرعا ودينا بعد أن كانت كفرا وزندقة» (1) على حد تعبير «ابن طملوس» تلميذ «ابن رشد» الأمر الذي أدّي إلى بروز أساتذة ممتازين في علوم الصوفيّة، أشهرهم «أبومدين» الذي أخذ عن «الغزالي» بطريق غير مباشر بواسطة تتلمذه على الصوفي «أبي الحسن علي بن حرزهم» الذي أخذ عن «أبي بكر بن العربي» (2). ومن المعروف أن «أبا بكر بن العربي» أخذ عن الغزالي في المشرق . كما صرّح بذلك بنفسه في مقدمة كتابه «العواصم من القواصم»(3).

وتحدثنا المصادر التي ترجمت لأبي مدين أنّه درس «الإحياء» في أيّام طلبه للعلم وتورد لنا قولته الشّهيرة فيه «طالعت كتب التذكير فما رأيت مثل كتاب الأحياء» (4). كما تذكر لنا أنّ «أبا مدين» درّس في مجالس وعظه كتاب «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للغزالي (5) وهذا الكتاب على صغر حجمه من أجلّ وأعظم كتب الغزالي أهمية في التصوف.

وهكذا أدّى التصوف المتأثر بالغزالي إلى ازدهار رائع لحركة التّصوف ممثّلة في قطب الصوفيّة « أبي مدين الغوث» الذي أنزل منزلة عالية في التصوف المغربي حتّى لقبوه « بشيخ الشيوخ» و «بشيخ المغرب» كما لقب «عبد القادر الجيلاني» «بشيخ المشرق» ولاغرابة في ذلك فقد تخرّج على يديه أكثر من ألف تلميذ،

---

1 - ابن طملوس، المدخل لصناعة المنطق، تحقيق أسين بلاثيوس، ط1، مدريد، مطبعة الأبيرقه 1916م . ص 12.

2 - ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 42.

3 - أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، تصحيح ، عبد الحميد بن باديس، ط 1، الجزائر: المطبعة الجزائرية الإسلامية 1926م . ص 20 .

4 - أنظر : الغبريني، عنوان الدرايّة، ص 56.

5 - نفس المرجع، ص 192.

ظهرت على يد كل منهم كرامة(1) كما يقول التادلي في التّشوف.

وإذا أردنا أن نعرف أكثر مدى هذا التأثير الذي خلّفه «أبو مدين» فيكفي أن نرجع إلى رسالة «روح القدس» لابن عربي الحاتمي التي كتبها إلى صديقه الحميم «عبد العزيز المهدوي »(ت 621هـ) - أحد تلاميذ أبي مدين وممن تعرف عليهم الشاذلي بتونس - فقد ذكر فيها المؤلف نحوا من خمسة وخمسين أستاذا له نجد أغلبهم ممّن أخذ على «أبي مدين».

أما في تونس فقد كان يقيم عدد كبير من أعلام التصوّف الذين راضوا أنفسهم عل منهج «أبي مدين» من أمثال « أبي على النفطي» (ت 610هـ)، و«أبي يوسف الدهماني »(ت 621هـ)، و«الطاهر المزوغي السّافي » (ت 646) و«أبي عبد الله محد الدّباغ »(ت 618هـ) والد صاحب معالم الإيمان، و «عبد العزيز المهدوي» (ت 621هـ) و «أبي سعيد الباحي» (ت 628 هـ)(2) وغيرهم.

وقد عاصر الشاذلي هؤلاء أثناء إقامته في تونس، وتردد على بعضهم، وأخذ عنهم وقد أشار إلى ذلك بنفسه فقال :

ولما دخلت تونس قصدت من فيها من المشائخ
ولم أجد فيها من عرفني ماكنت في حيرة منه
إلا الشيخ الصالح أبا سعيد الباجي، فإنه أخبرني
بحالي قبل أن أبديه وتكلّم على سرّي فعلمت
أنه وليّ الله حقا، فلازمته وانتفعت به كثيرا(3)

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة في تصوف مغرب هذا العهد بروز التصوّف «العرفاني» القائم على التعليلات الفلسفيّة، والتحقيقات الكلاميّة على يد جماعة نذكر منهم : «محي الدين بن عربي» (ت 638هـ)؛ و «أبا الحسن الحرالي» (ت 637هـ)؛ و «عبد الحق بن سبعين» (ت 669هـ). وتلميذه «أبا الحسن الششتري» (ت 668هـ) صاحب الأزجال المعروفة، ولقد توسع هؤلاء في عقيدة «وحدة الوجود» وهي العقيدة التي أحدثت دويّا كبيرا في ذلك العصر تردد صداه في

---

1 - ابو يعقوب يوسف التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، ط1، الدار البيضاء، دار النجاح الجديدة 1984م، ص 324.

2 - محمد البهي النيال، **الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي**، ط1 تونس : نشر وتوزيع مكتبة النجاح 1965م. ص : 206.

3 - ابن الصبّاغ، درة الأسرار، ص 6.

كامل أرجاء العالم الإسلامي، حتّى غدت كما يقول النّدوي :

شعار الصوفيّة، يعتزّون بها ويفتخرون، وتحمّست لها الزوايا والتكايا، والمدارس وحلقات العلم، وظلّت الرباطات والزوايا الصوفيّة - لقلّة الاشتغال بالكتاب والسنّة والجهل بعلم الحديث الشريف - مرتع العقائدوالأفكار التي لادليل ولاسند لها في مصادر الدين الأصليّة، ولم يكن يعرفها مسلمو القرون الأولى(1)

والواقع أن بذور هذه العقيدة قد وجدت في ذهن بعض متصوفة المغرب في زمن مبكر نخص منهم «ابن مسرّة»(2) (ت 319 هـ) ذا الصبغة الإشراقية الواضحة في تصوفه. هذا اللّون من التصوف الذي سرعان ما انتقل إلى «المريّة» التي كانت آنذاك مركزا مهما للدراسات الصوفيّة بفضل «أحمد بن العريف »(3) الذي خلّف عددا من المريدين نذكر منهم :« ابن قسّى »(4) (ت 546هـ)، صاحب كتاب «خلع النعلين» الذي شرحه فيما بعد ابن عربي، وابن برّجان (5) (ت 546 هـ) الذي كان تأثيره على ابن عربي قويا.

والحقيقة أن ابن عربي استفاد من ابن العريف لذلك نجده في «الفتوحات المكيّة» كثيرا مايحيل إليه، كما استفاد منه «عبد الحق بن سبعين» وظهر في كتابه «بد العادف».

وهكذا نمت هذه المدرسة تدريجيا إلى أن بلغت ذروتها عند ابن عربي الحاتمي (ت 638هـ) حيث ضمّن كتابيه «الفتوحات المكيّة» و «الفصوص» أخطر آرائه.

---

1 - أبو الحسن علي الندوي، أحمد السرهندي، حياته وأعماله ط1. الكويت : دار القلم 1983م، ص 217.

2 - هو أبو عبد الله ابن عبد الله ابن مسرة، ولد سنة 269هـ، من أهم تآليفه توحيد الموقنين وتوفي سنة 319هـ. أنظر في ترجمته: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ط1، القاهرة: دار الرشيد، 1992م ص 363، 364.

3 - هو أحمد الصنهاجي، المعروف بابن العريف، من أهم مؤلفاته، محاسن المجالس توفي مقتولا سنة 537هـ أنظر في ترجمته : التادلي، التشوف إلى رجال التصّوف، ص 118.

4 - هو أحمد بن قسّى له كتاب «خلع النعلين» توفي مقتولا بشلب سنة 546هـ أنظر في ترجمته : التادلي، التشوّف، ص 287.

5 - هو عبد السلام بن برّجان اللّخمي، كان عبدا صالحا، وله تفسير في القرآن، وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات أنظر في ترجمته :ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 236.

وجاء بعد ابن عربي متصوف آخر كانت له آراء لها خطرها في التصوف وهو «عبد الحق بن سبعين» الذي كان أكثر غلوا من «ابن عربي» في القول بالوحدة حيث دعا في كتابه «بد العارف» إلى «الوحدة المطلقة» واعتبرها مذهب المحقق، وقد استقى أصول تصوفه عن «ابن دهاق»(1) المتوفى سنة 611هـ أحد تلاميذ «الشوذي»(2) الممتازين.

والخلاصة أن المغرب الإسلامي في عهد الشاذلي عرف نوعين من أنواع التصوف هما :

ا - **التصوف العملي**، الذي يمثله «أبو مدين المغربي» وتلاميذه وبخاصة «عبد السلام بن مشيش» أستاذ الشاذلي.

ب - **التصوف النظري**، وأشهر ممثليه، «ابن عربي»، و«على الحرالي»، و«علي الششتري»، «وابن سبعين»، «وابن دهاق»، «والشوذي».

2 . 2 - الوضع الروحي في المشرق :

أما في المشرق فقد كانت بغداد عاصمة الخلافة الإسلاميّة - قبل سقوطها سنة 656هـ - حافلة بكثير من أئمة الصوفيّة كالشيخ «عبد القادر الجيلاني»(3) (471 هـ - 561هـ) العالم المشهور، الذي حصل له من رجوع الناس إليه، مالم يحصل لأحد من المشائخ في عصره، ولما توفي ترك أعلاما من المربين والمرشدين، ولكن قيّض الله - سبحانه وتعالى - لنشر طريقته وتبليغها على النطاق الواسع «شهاب الدين السهروردي» (4) (ت 632 هـ) صاحب كتاب «عوارف المعارف» والذي يستحق أن يدعى بمجدّد علم التصوف في ذلك العهد.

وكذلك من الصوفيّة الكبار في عراق هذا العهد نجد السيّد «أحمد الرفاعي »(5) (512هـ - 578هـ) مؤسس الطريقة الرفاعيّة، والذي خلف من بعده في رئاسة

---

1 - هو إبراهيم بن دهّاق ويعرف بابن المرأة من أهل مالقة، وسكن مرسية ،كان محدثا فقيها ومتكلما، أنظر في ترجمته: ابن الأبار، **التكلمة لكتاب الصلة**، تحقيق ألفرد بل ومحمد بن أبي شنب، الجزائر : المطبعة الشرقية 1920م، ص 200.

2 - هو أبو عبد الله الشوذي المعروف بالحلوى، نزيل تلمسان، أنظر في ترجمته : ابن مريم المليتي ،**البستان في ذكر الأولياء بتلمسان**، ط1، الجزائر: المطبعة الثعالبية 1908م، ص 68 - 70.

3 - من أهم مؤلفاته: الغنية، والفتح الرباني ، وفتوح الغيب، أنظر في ترجمته : ابن العماد ،

الطريقة «أبا الفتح الواسطي» (1) (ت 632هـ) الذي تعرف عليه الشاذلي سنة 618هـ عند زيارته لبغداد، وشهد له بعلو الكعب في فن التربية والتسليك الباطني.

يقول الشاذلي « ولما دخلت العراق، ولقيت جماعة من المشائخ فلم أر أحسن من الشيخ الواسطي» (2)

أما مصر فلقد كانت في الفترة التي دخلها الشاذلي تزخر بكثير من شيوخ الصوفيّة منهم «أحمد البدوي» (ت 675 هـ)(3)، والذي استطاع أن يؤسس طريقة عرفت «بالطريقة الأحمديّة»، وكذلك الشيخ «إبراهيم الدسوقي» (ت 676 هـ) (4) مؤسس «الطريقة البرهانية» والشيخ «أبو الحجاج الأقصري »(ت 642هـ) (5).

ولم تعدم مصر في هذا العصر من متصوفة قائلين بمذهبي الحلول والوحدة ولعل أشهرهم «عمر بن الفارض»(6) صاحب القصائد المشهورة، لاسيّما قصيدتيه «التائية» و «الخمرية» اللتين تنعقان بالإتحاد الصّريح (7) على حد تعبير «ابن حجر العسقلاني». (8)

ولقد كانت علاقة «ابن الفارض »بابن عربي وطيدة، حتّى أنه يروى أن ابن عربي أرسل إلى «ابن الفارض» يستأذنه في شرح التائية فأجابه : «كتابك المسمّى بالفتوحات المكيّة شرح لها » (9)

ويبدو أن أفكار« ابن الفارض»، ومن نحا نحوه من أصحاب التصوف النظري

---

1 - أنظر في ترجمته :ابن الملّقن، طبقات الأولياء، ص 489.

2- ابن الصبّاغ، درّة الأسرار. ص 4.

3- أنظر في ترجمته : ابن الملّقن، المرجع السابق، ص422 ، 423.

4- أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 350، 351.

5- أنظر في ترجمته : ابن الملّقن، طبقات الأولياء، ص : 480، 482.

6 - أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص464، 465؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج 5، ص 149- 153، اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص 75 - 79.

7 - ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان،ط2. بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1971م، ج 4، ص 317.

8- هو قاضي القضاة، شهاب أحمد بن علي، فقيه شافعي، ومحدث كبير وهو صاحب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري،» توفي سنة 852هـ أنظر في ترجمته : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص 270 - 273.

9- نقلا عن : أحمد أمين، ظهر الإسلام، بيروت: دار الكتاب العربي، [د. ت]،ج3 ، ص 76.

كانت منتشرة في مصر إبّان تلك الفترة، نعرف هذا من رواية ساقها ابن تيميّة حيث يقول:

> وحدثني صاحبنا الفقيه أبو الحسن علي بن قرباص، أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلاني، فوجده يصنّف كتابا فقال ماهذا؟ فقال هذا في الرد على ابن سبعين، وابن الفارض، وأبي الحسن الجربي، والعفيف التلمساني، وحدّثني عن جمال الدين بن واصل، وشمس الدين الأصبهاني أنّهما كانا ينكران كلام ابن عربي ويبطلانه ويردّان عليه(1)

ولاشك أن هذه الردود والمساجلات تعكس صدى تلك الأفكار التي كانت تتردد في مصر. والشيء الطريف في رواية ابن تيميّة أن يورد الشيخ «قطب الدين القسطلاني» (2) باعتباره خصما ممتازا لابن سبعين، ومن على شاكلته، وهونفسه الذي أكنّ احتراما عميقا لأبي الحسن الشاذلي عرفنا هذا مما يورده ابن عطاء اللّه السكندري، قائلا : «وذكره قطب الدين القسطلاني - يعني الشاذلي- في جملة من لقيه من المشائخ وأثنى عليه» (3)

أما تركيا وهي البلد التي أقام في أحد مدنها - قونية- ابن عربي، مدة من الزمن، قبل استقراره بدمشق فقد كانت مسرحا لآراء وعقائد هذا الشيخ، حتّى غدت كتبه مرجع لكبار عارفيها بفضل «صدر الدين القونوي»(4)، ناشر أفكار ابن عربي وشارحها وصاحب المؤلفات المعروفة «كالنصوص على الفصوص» و «النفحات

---

1 - ابن تيميّة، **مجموعة الرسائل والمسائل**،تحقيق محمد رشيد رضا، مكة المكرمة : دارالبار للنشر والتوزيع، [د.ت]، ج4، ص 75.

2 - هو الإمام الزاهدمحمد بن القسطلاني، ولي دار الحديث الكامليّة إلى أن مات 686هـ ترجم له الشعراني باعتباره صوفيا، أنظر في ترجمته : عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، القاهرة : دار الفكر العربي [د،ت]. ج1، ص 137.

3 - ابن عطاء اللّه السكندري، **لطائف المنن**، القاهرة : مكتبة القاهرة 1979م، ص 71، 72.

4 - هو محمد بن إسحاق القونوي، صاحب ابن عربي له تفسير الفاتحة ويسمّى «إعجاز البيان في كشف بعض أسرار أم القرآن» توفي سنة 673هـ أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 467، 468.

الإلهية» وكان معاصرا «لجلال الدين الرومي» (1) مؤلف «المثنوي» ويذكرالمترجمون أنّه قد توطدّت بين الرجلين علاقة صداقة بلغت أقصاها من القرب والقوّة، حتى كان كل واحدمنهما يعتقد في صاحبه الصلاح النهائي في ذلك العصر(2).

هذه أهم ملامح الوضع الروحي في العالم الإسلامي في عصر أبي الحسن الشاذلي، ولو ذهبنا نستقصي أكثر لخرج بنا ذلك عن نطاق البحث، وماسجلناه نعتقد أنّه كاف لمعرفة درجة الحركة الصوفيّة التي كانت منتشرة - وقت ذاك- ويمكننا القول أنّ هذا العهد الذي عاش فيه الشاذلي، يعتبر بحق أرقى عصر من عصور التصوّف، حيث شهد أعلاما من كبار العارفين، ومشاهير المربين على اختلاف مشاربهم ،وتفاوت مراتبهم. على أن هذا لم يمنع وقوع بعضهم في الفتنة ولا أن يجعل التصوف بمنجاة عن طعن الطاعنين، مما دفع الشاذلي إلى تأسيس مدرسة صوفيّة سنيّة الإتجاه لتعقد بذلك السنة الطّعن، وتضفي على التصوّف الطابع الذي يقرّه الفقهاء كي تحافظ على روح هذا الدّين وروحانيته المشرقة.

---

1 - صوفي وشاعر فارسي، توفي سنة 672هـ أنظر في ترجمته، د عناية الله إبلاغ الأفغاني، جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، ط1 القاهرة : الدار المصرية اللبنانية 1987م.

2 - صدر الدين القونوي، شرح الأربعين حديثا، تحقيق حسن كامل بيلماز، ط1، إسطنبول: منشورات كليّة الإلهيات [د، ت]، ص ب. وانظر أيضا :

Aflaki; les saints des Derviches tourneurs; (Manaqib ul - Arifin); trad du persan par clèment Huart; paris; sindbad; 1978; vol 1 ; p59 et suite:

الفصل الثاني

نشأته وحياته

جامعة الأمير سطام للعلوم الإسلامية

تمهيد :

ترجم كثير من المتقدمين والمتأخرين لأبي الحسن الشاذلي، لكن هاته التراجم على تعدّدها لاتعطينا شيئا مفصلا عن حياة أبي الحسن الشاذلي، ونشأته الأولى، وعن حياة أسرته، بل لانكاد نعرف عن أسرته، إلا أنها شريفة النّسب تنسب إلى آل البيت، كما لاتمدنا هاته التراجم بمادة وافية عن حياته التصوفيّة الخاصة، ومايتصل بذلك من علوم، وأحوال، ومعارف لذلك لم نجد بدّا من استنباط حياته مما أحاط به من مؤثرات أجنبيّة ليتأتى لنا أن نفهم أبا الحسن الشاذلي كأنّه شيء متصل بعصره غير منفصل عنه.

والتراجم التي بين أيدينا عن حياة أبي الحسن الشاذلي، تختلف من حيث أهميتها، كما أنها تختلف طولا وقصرا، إلا أنّها تتفق أحيانا في مواضع كثيرة حتّى في الألفاظ التي صيغت بها. وذلك يدل على أنّها ربّما استقت من المصادر الأصلية لحياة الشاذلي وهي : «لطائف المنن» لابن عطاء الله السكندري (1) و«درّة الأسرار وتحفة الأبرار» لابن الصّباغ الحميري (2)، و «المفاخر العليّة في المآثر الشاذليّة» لابن عياد الشافعي(3).

وإلى جانب هذه التراجم، هناك تراجم أخرى لأبي الحسن الشاذلي إلا أنّها أقل أهمية من تلك التي أشرنا إليها من قبل : منها ترجمة داود بن باخلا في «اللطيفة المرضيّة في شرح دعاء الشاذليّة» (4) والذهبي في «العبر في أخبار من غبر»(5)، و اليافعي اليمني في «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» (6)،

---

1 – هو تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري، الإمام المتكلم الجامع لأنواع العلوم من تفسير، وأصول ، وفقه، أخذ التصوف عن تلميذ الشاذلي أبي العبّاس المرسي. توفي سنة 709 هـ. أنظر : محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، ج1، ص 204.

2 – هو محمد بن أبي القاسم الحميري، ويعرف بابن الصبّاغ، كان فقيها متصوفا اشتهر بمؤلفاته العديدة في مناقب الأولياء، كان حيا سنة 751هـ . أنظر في ترجمته : محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت : دار الغرب الإسلامي، [د، ت]، ج3، ص 227.

3 – هو أحمد بن محمد بن عيّاد الشافعي، وفي كتابه المذكور يحيل القارىء إلى مطالعة الكواكب الدريّة للمناوي المتوفى1031هـ مما يدل بوضوح أنه من علماء القرن الحادي عشر أو بعده. أنظر : أحمد بن عياد، **المفاخر العلية في المآثرالشاذلية**، القاهرة :مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاؤه، 1961م. ص3.

4 – داود بن باخلا، **اللطيفة المرضيّة في شرح دعاء الشاذلية**، مخطوط بالمكتبة الوطنيّة الجزائرية، رقم 2307.

5 – الذهبي، **العبر في أخبار من غبر**، ط1، الكويت : مطبعة الحكومة 1966م، ج5، ص 232، 233.

6 – اليافعي اليمني، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج4، ص 142 – 147.

وابن الملّقن في «طبقات الأولياء» (1)، و ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» (2)، وابن قنفد القسنطيني في «الوفيات»(3). والمقريزي في «السلوك لمعرفة دول الملوك»، (4) وابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»(5)، والشعراني في «الطبقات الكبرى» (6)، والوزير السرّاج في «الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة» (7)، وأبو سالم العيّاشي في «رحلته»(8)، وابن الألوسي في «جلاء العينين» (9)، وأحمد الكمشخانوي في «جامع الأصول»(10)، والسيوطي في «تأييد الحقيقة العليّة في تشييد الطريقة الشاذلية» (11)، ومؤمن الشبلنجي في «نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار»(12)، -صلّى الله عليه وسلّم - وفي الأخير أحب أن أشير إلى أنّ أحد

---

1 -ابن الملّقن، طبقات الأولياء، ص 458، 459.

2 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة : دار الثقافة ودار الإرشاد القومي، [د، ت] ج7، ص 68، 69.

3 -ابن قنفد القسنطيني، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ط1، بيروت : منشورات المكتب التجاري، 1971م، ص 323.

4 - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق2، ص 414.

5 - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، بيروت : دار الآفاق الجديدة، [د، ت] ج5، ص 276، 277.

6 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، القاهرة : دار الفكر العربي، [د، ت]، ج2، ص 124.

7 - الوزير السرّاج، الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1985م، ج1، ص 829 - 846.

8 - أبو سالم العياشي، رحلة العياشي، ط1، الطبعة الحجريّة المغربية، ج2، ص 259.

9 - نعمان خير الدين الألوسي، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين. القاهرة : مطبعة المدني 1981م، ص 82، 84.

10 - أحمد الكمشخانوي، جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأوصافهم، ط1، القاهرة : دار الكتب العربيّة 1331 هـ، ص 82 - 84.

11 - جلال الدين السيوطي، الحقيقة العليّة في تشييد الطريقة الشاذليّة، ط1، القاهرة : المطبعة الإسلامية. 1934م.

12 - مؤمن الشبلنجي، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار،ط1، القاهرة : دار الطباعة الأزهريّة، 1928م، ص 243- 248.

تلامذة «محمد بن عمر بن علي المغربي» (1)صاحب «أحمد السرسي» (2) قد صنّف رسالة في التعريف بأبي الحسن الشاذلي وهذه الرسالة موجودة عندنا مخطوطة ولاأعلم مؤلفها، ويترجّح لدينا أنه من علماء القرن العاشر(3).

وقد قمنا بتتبع جميع ماورد في هذه المصادر من أخبار تتصل بحياة الشاذلي، لإعطاء صورة واضحة عن نشأته.

أولا - اسمه ولقبه ونسبه وأسرته :

1 - الاسم واللّقب :

ساق المترجمون لأبي الحسن الشاذلي اسمه ولقبه وكنيته، واتفقوا جميعا على أن اسمه «علي بن عبد اللهّ»، وأنه يكنّى «بأبي الحسن» ويلقّب «بتقي الدين»(4) وبعضهم ذكر له القابا أخرى «كتاج الدين»(5)، و «نور الدين» (6)،و «شيخ الطائفة الشاذليّة»(7).

على أن لقب « الشاذلي »أكثر ألقابه شيوعا وترددا على الألسن، وهو الذي اشتهر به.

2 - النّسب :

يجمع المترجمون للشاذلي على أنّه ينتسب إلى قبيلة «غمارة»(8) وهو بطن من بطون قبيلة«مصمودة» الشهيرة لكنّهم اختلفوا فيما بعد ذلك في نسبه.ويبدو أن

1- العالم الزاهد، توفي سنة 911هـ أنظر في ترجمته : نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، تحقيق جبرائيل سليمان جبّور، ط2، بيروت دار الآفاق الجديدة، 1979م، ج1، ص 79، 80.

2 - هو العلامة أبو العبّاس أحمد بن محمد السّرسي، من أجلّ من أخذ عن شمس الدين الحنفي، توفي سنة 861هـ، أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب ج7، ص 297، 298.

3 - رجحنا أنه من علماء القرن العاشر، لأنه صرّح في آخر رسالته بأنه من تلاميذ الشيخ محمد المغربي المتوفى سنة 911هـ.

4 - أنظر : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 71؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص186.

5 - أنظر :«مادة الشاذلي» في دائرة المعارف الإسلامية. ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين ط مصر 1933م، ص 56.وما بعدها.

6 - أنظر: حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ط3، طهران : المكتبة الإسلاميّة، ج1، ص 404.

7 - أنظر : ابن الملقّن، طبقات الأولياء، ص 458، عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفيّة، ص 229.

8 - غمارة، بضم العين وتخفيف الميم، قبائل بربريّة تنتمي إلى قبيلة مصمودة الشهيرة وفي القديم كان هذا الإقليم يشمل عدة قبائل منها القبائل التي تقع في غرب بادس وقبائل الأخماس وبني زروال، وتطوان أنظر : ابن خلدون، العبر، ج6، ص 200.

اسم جدّه الأول قد اختلط على بعض المؤرخين، فالمقريزي يذكر في «السلوك لمعرفة دول الملوك» أنّه «عبد الحق» (1) بينما يذكره ابن العماد في «شذرات الذهب» على أنّه «عبد الحميد»(2).

غير أنّ غالبية المترجمين ذكروا أنّ اسم جدّه الأول «عبد الجبّار بن تميم» (3)، وكما وقع الخلاف في اسم جدّه الأول، وقع الخلاف فيما إذا كان نسبه بربريًا خالصا أو شريفا حسنيًا.

فلقد أضيف إليه نسب نبوي ذكرته بعض كتب التراجم بطريقتين مختلفتين :

الأول : تقي الدين أبو الحسن علي، بن عبد الله، بن عبد الجبّار، بن تميم، بن هرمز، بن حاتم، بن قصي، بن يوسف، بن يوشع، بن ورد، بن بطال، بن أحمد، بن عيسى، بن محمد بن الحسن، بن علي،بن أبي طالب. وقد أورده كل من «ابن عطاء اللّه السكندري» في «لطائف المنن» (4)، و«داود بن باخلا» في «اللطيفة المرضيّة».(5)

الثاني : أورده كل من ابن عيّاد في «المفاخر العليّة في المآثر الشاذلية» (6) وابن الصّباغ في «درة الأسرار»(7) وهو :

أبو الحسن علي، بن عبد اللّه، بن عبد الجبّار، بن تميم، بن هرمز، بن حاتم، بن قصي، بن يوسف، بن يوشع، بن ورد، بن بطّال علي، بن أحمد، بن محمد، بن عيسى، بن إدريس، بن عمر، بن إدريس المبايع له ببلاد المغرب ابن عبد اللّه، بن الحسن المثنّى، ابن سيّد شباب أهل الجنّة وسبط خير البريّة أبي علي محمد الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم اللّه وجهه.

وإذا اتفق هؤلاء على أنّ نسب الشاذلي حسني، فإن بعض المؤرخين عرض هذا النّسب بما يسفر عن شكّه فيه، بل جحده له. فالذهبي يقول : «هذا نسب لايصح ولايثبت وكان الأولى به تركه» (8). ولكنه لم يقدم تفسيرا مقنعا لهذا التشكك في

---

1 - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق2، ص 414.

2 - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص 276.

3 -ابن عطاء اللّه، لطائف المنن، ص 71؛ ابن الصّباغ، درة الأسرار،ص 64، داود ابن باخلا، اللطيفة المرضيّة، بشرح دعاء الشاذليّة المكتبة الوطنية، رقم المخطوط 2307، ص 5؛ ابن عيّاد، المفاخر العليّة، ص 11.

4 -ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 71.

5 - داود بن باخلا، اللطيفة المرضيّة، بشرح دعاء الشاذلية، ص 5.

6 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة في المآثر الشاذليّة، ص 11.

7 - ابن الصّباغ، درّة الأسرار، ص 4.

8 - الذهبي، **الإعلام بوفيات الأعلام**، تحقيق مصطفى علي عوض وربيع أبو بكر عبد الباقي، ط1. بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية 1993م،ج2 ص 446.

نسب الشاذلي، ونعتقد أنه قد اطلع على نسب الشاذلي من الطريق الأول الذي أورده كل من «ابن عطاء اللّه السكندري» و«داود بن باخلا »حيث أرجعا نسبه إلى محمد بن الحسن ،بن علي ،بن أبي طالب الذي أشارت كتب التراجم أنه توفي دون أن يعقّب أولادا.(1).

فلعلةّ السبب الذي جعل« الذهبي »ينكر هذا النسّب، والباحث يجد بالفعل أنّ هذا الطريق ينطوي في ذاته على بذور بطلانه، فمن الناحية الزمنيّة يظهر لنا بعد إنعام النظّر أن المدّة الزمنية مابين وفاة «الحسن السبط »ووفاة «أبي الحسن الشاذلي» ستّة قرون وهو مايسمح بوجود أكثر من 17 جيلا على الأقل، لكننا نجد في الطريق الوارد 14 جيلا فقط.

كما أن المصادر التاريخيّة لاتذكر نسلا متفشيا في المغرب من أولاد «محمد بن الحسن» بل تذكر أنه لم يعقّب، وأن الذي أعقب من أولاد الحسن السّبط «زيد الأبلج»، و«الحسن المثنّى».(2)

أما الطريق الثاني الذي أورده كل من ابن عيّاد الشافعي وابن الصّباغ، فهو يحضى بتزكيّة المقياسين ،إذ أنه من النّاحية التاريخيّة يشتمل على 18 جيلا بعد الحسن بن علي، وهذا أمر يجعل هذه السلسلة متصفة بالإمكان النّظري، وإذا علمنا أن كتب الأنساب أشارت إلى وجود نسل متفش في بلاد المغرب من أولاد« الحسن بن المثنىّ »في المغرب عامة ،وفي قبيلة غمارة خاصة،(3)، فإنّ إمكان تحقق هذا النّسب يتعضد أكثر ، وبخاصة ونحن نعلم أنّه قد ادعاه وعرف به في حياته عند النّاس ، على نحو مايشير إليه ابن الصّباغ الذي أورد سعاية «ابن البراء »بأبي الحسن الشاذلي للسلطان «أبي زكريا الحفصي» ندرك من خلالها أن الشاذلي قد عرف بهذا النّسب، ونص السعاية كما ساقها ابن الصباغ هي « أن ههنا رجلا من أهل شاذلة سرّاق الحمير، يدعى الشرف، وقد اجتمع عليه خلق كثير، ويدعي أنه الفاطمي ويشوّش عليك بلادك»(4).

وبذلك يكون انتسابه لآل البيت له من مبررات وقوعه مايجعله أمرا ممكنا والنّاس كما يقول ابن خلدون : «مصدقون في أنسابهم» (5)

---

1 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط1، بيروت : مؤسسة الرسالة 1981م، ج3، ص 279.

2-مؤمن الشبلنجي ، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، ص 243

3-أنظر : ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيوت : دار الثقافة. [د، ت] ج1، ص 211، وانظر أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص 447.

4 - ابن الصّباغ، درّة الأسرار، ص 10.

5 - ابن خلدون، المقدمة، ط2، بيروت : دارالكتاب اللبناني 1979م، ص 42، 44.

3 - الأسرة :

إن المصادر التاريخيّة عن حياة الشاذلي لاتكاد تذكر لنا شيئا يتصل بأسرته، سوى أنها شريفة النّسب، ترقى بنسبها إلى الحسن، بن علي ،بن أبي طالب، وهو مايوحي بأنّها كانت على شيء من المكانة الدينيّة على عادة المغاربة في احترام هذه الأسر الكريمة الأصل.

ولم تمدنا المصادر التي تحت أيدينا بأيّة معلومات أيضا عن والده ووالدته، سوى ماعلمناه من أنّ اسم والده عبد اللّه، كما يستفاد ذلك من اسم ابنه. ومن هنا فلا يستطيع الباحث أن يقدّم تصورا مؤكدا عن أسرة الشاذلي.

ثانيا - مولده :

1 - المكان :

أجمعت المصادر التاريخية التي ترجمت للشاذلي أنه ولد ببلاد «المغرب الأقصى» (1) ولم يخالف هذا الإجماع إلا «دائرة المعارف» (2) حيث أرجعته إلى مدينة «شاذلة التونسية» جريا على عادة العرب في نسبة النّاس إلى مكان ولادتهم.

لكن وقع اختلاف في القرية التي ولد بها ، فبينما يذكر ابن الصّباغ (3)، وابن عيّاد الشافعي(4) أنه ولد بقرية «غمارة» يذكر «الكمشخانوي»(5) وتابعه من المحدثين «أحمد توفيق عيّاد» أنه ولد بقرية «عمان».

إلا أننا نأخذ بما أخذ به غالبية المترجمين ونرجحّ أنه ولدّ «بغمارة»(7) لأننا لانتصور أن يجهل ابن عطاء اللّه السكندري ، وابن الصّباغ الموضع الذي ولد فيه الشاذلي. وهما اللذان عاصرا تلاميذ أبي الحسن الشاذلي.

---

1 -ابن عطاء اللّه، لطائف المنن، ص 71؛ ابن الصّباغ، درّة الأسرار، ص 4؛ ابن عيّاد، المفاخر العليّة، ص 12.

2 - المعلم بطرس البستاني، **دائرة المعارف وهو قاموس عام لكل مطلب**، طهران : مؤسسة مطبوعات إسماعيليان، ج10، ص 674.

3 - ابن الصّباغ، درّة الأسرار. ص 4.

4 -ابن عيّاد. المفاخر العليّة، ص 12.

5 - أحمد الكمشخانوي، جامع الأصول ،ص 82.

6 - أحمد توفيق عيّاد، **التصوف تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره**. القاهرة : مكتبة الأنجلو مصريّة 1970م، ص 294.

7 - غمارة قرية قرب سبتة، وهي مابين بادس شرقا و طنجة غربا، ومن الشمال إلى الجنوب تمتد من سواحل البحر المتوسط إلى مابعد قبائل بني مساره بناحية وزان، نقلا عن : عبدالقادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها**، ط1، المحمديّة : مطبعة فضالة 1982م، ص 18.

2 - الزمان :

لقد كان تاريخ ميلاد الشاذلي محل اختلاف بين المترجمين، وإن اتفقوا جميعا على أنه ولد في النصف الثاني من القرن السادس، وماعدا ذلك فاختلاف كبير. فالشبلنجي في «نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار» (1) يذكر أنه ولد سنة 551هـ، وتابعه في ذلك المعلم بطرس البستاني من المحدثين في «دائرة المعارف»(2).

ويذكر جعفر الكتاني في «سلوة الأنفاس»(3) أن أبا الحسن ولد سنة 571هـ. أما كحالة (4)، والزركلي(5) ،فيذكران أن الشاذلي ولد سنة 591، وهو رأي يكاد يتفق مع رأي غالبية المترجمين الذين أرخوا لحياة الشاذلي، فابن الصبّاغ يذكر أن أبا الحسن توفي سنة 656هـ. عن ثلاث وستين سنة أو نحوها على حد تعبيره(6)، فيستفاد من هذا التاريخ أن ميلاده كان في حدود سنة 593 هـ، وتابعه في ذلك ابن عيّاد من القدامى(7)، والكمشخانوي(8)، و«أحمد توفيق عياد(9) من الباحثين المحدثين.

ونحن نرجّح أن يكون مولد أبي الحسن الشاذلي واقعا سنة 593هـ لأن ابن الصبّاغ ذكر تاريخ الوفاة، والعمر، وهما الأمران اللذان يدلان على شدّة ضبط المترجم. والأمر الثاني أنه لايعقل أن يجهل ابن الصبّاغ عمر أبي الحسن، وهو الذي نقل مادة كتابه من أصحاب الشاذلي المباشرين وبخاصة «أبي العزائم ماضي بن سلطان»(10) كما صرّح بذلك في مقدمة كتابه «درة الأسرار

---

1 - الشبلنجي، نور الأبصار، ص 243.

2 - بطرس البستاني، دائرة المعارف، ج10، ص 674.

3 - نقلا عن : الزركلي، **الأعلام**، ط6. بيروت : دارالعلم للملايين 1986م. ج4، ص 305.

4 - عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، بيروت : دار إحياء التراث العربي، (د. ت)، ج7، ص 305.

5 -الزركلي، المرجع السابق، ج4، ص 305.

6 - ابن الصبّاغ، درّة الأسرار. ص 136.

7 - ابن عياد ، المفاخر العلية في المآثر الشاذليّة، ص 13.

8 - الكمشخانوي، جامع الأصول ، ص 82.

9- أحمد توفيق عياد، التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه، ص 294.

10 - هو الشيخ أبو العزائم ماضي بن سلطان المسروقي، كان ملازما لخدمة الشاذلي في تونس وفي مصر، توفي سنة 718هـ، أنظر : ابن الصبّاغ، درّة الأسرار ص 172.

وتحفة الأبرار»(1). وشيء آخر أننا لو تفحصنا تاريخ الميلاد الذي ذكره الشبلنجي لوجدناه بعيدا عن الصّواب إذ أن الشبلنجي نفسه يذكر أن الشاذلي توفي سنة 656هـ، وبعملية حسابيّة نستنتج أن عمر أبي الحسن حوالي 105 سنة، ولو وصل عمره إلى هذا السّن المتقدم لاشتهر هذا عند جميع من ترجموا له بل نجدهم كلّهم اتفقوا على أنه عاش نحوا من ثلاث وستين سنة.

أما ماذكره صاحب «سلوة الأنفاس» من أن الشاذلي ولد سنة 571هـ، فإننا لانعلم من أيّ المصادر أخذ هذا التاريخ اللّهم إلا أن يكون تصحيفا عن سنة 591هـ، وإذا كان ذلك كذلك، فليس لنا أن نترك ماأخذ به غالبية المترجمين لرأي فردي.

أما من ذكر أنه ولد سنة 591 هـ فهذا محتمل، وعبارة ابن الصّباغ تتسع له، والخطب بين591هـ و 593هـ يسير. وإن كنا نؤثر الأخذ بالتاريخ الذي أخذ به غالبية المترجمين لأبي الحسن الشاذلي وهو سنة 593هـ.

ثالثا - أطوار حياة الشاذلي :

يقع مولد أبي الحسن الشاذلي إذن في نهاية القرن السادس الهجري، ويمكننا أن نميز في حياته ثلاثة أطوار وهي :

الطور الأول : ويبدأ من سنة 593هـ، وينتهي سنة 620هـ. وفي هذا الطور يتكوّن الشاذلي من الناحيتين العلميّة والتصوفيّة.

الطور الثاني : يبدأ من خروجه من غمارة في حوالي سنة 620هـ، ودخوله تونس، ثم استقراره بها إلى سنة 642هـ تاريخ ارتحاله منها. وفي هذا الطور تأهل أبو الحسن الشاذلي للتربية والتسليك الباطني إلى اللّه، وفيه عانى من خصومة ابن البراء(2) مما اضطّره للخروج من تونس إلى مصر.

الطور الثالث : ويبدأ من تاريخ مغادرته تونس سنة 642هـ. مع فريق من أتباعه يتقدمهم أبو العبّاس المرسي، وينتهي سنة 656هـ. وفيه تم الظهور الكامل لأبي الحسن الشاذلي في مصر،

وفيما يلي سنتحدث عن هذه الأطوار بالتفصيل :

---

1 -ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 3.

2 - هو قاضي الجماعة أبو القاسم بن علي بن عبد العزيز بن البراء التنوخي، ولد بالمهديّة في حدودسنة 580هـ، وتوفي بتونس سنة 677هـ، أنظر في ترجمته : محمدمخلوف شجرة النور الزكيّة، ج1، ص191؛ محمد النيفر، عنوان الأريب، ج1، ص 72.

1 - نشأته العلميّة وسلوكه الصوفي :

في الطور الأول، بدأ الشاذلي حياته بالتردد على بعض الكتاتيب القرآنية حيث تعلم فيها مبادىء القراءة والكتابة، وأتم فيها حفظ القرآن، وتجويده جريا على عادة المغاربة التي وصفها ابن خلدون بقوله :

> فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الإقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لايخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم... وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة(1)

ويبدو أن الفتى تاقت نفسه إلى التصوّف منذ صغره فانتقل إلى زرويلة (2) ثم إنه جاء إلى فاس والتقي «بأبي عبد الله بن حرزهم»، ولبس عنده الخرقة الصوفيّة على عادة المريدين في ذلك الوقت. ولاشك أن أبا الحسن الشاذلي ،أثناء وجوده في فاس يكون قد تعرف على بعض علمائها، وأخذ عنهم شيئا من مباديء العلوم الشرعيّة ،و إن لم تشر المصادر إلى ذلك صراحة(3).

والمصادر التي بين أيدينا لاتكاد تذكر شيئا عن شيوخه الذين تكون عنهم من الناحية العلميّة، واكتفت بذكر شيوخه الذين أخذ عنهم من الناحيّة الصوفيّة.

ربما لأن هؤلاء المترجمين كانت عنايتهم بالجوانب الروحيّة أشد من عنايتهم بالجانب العلمي في حياة أبي الحسن الشاذلي، إلا أننا لانعدم إشارات ترشد إلى أن أبا الحسن الشاذلي قد حصل على زاد واف من العلوم الشرعيّة من فقه، وتفسير، وحديث، ونحو، وصرف، كما أنه نظر في شيء من أصول الدين على طريقة الأشعرية.

من ذلك ماذكره ابن عطاء الله من أن أبا الحسن «لم يدخل في طريق الله حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة»(4). ويبدو أن تحصيله لهاته العلوم تم في تونس قبل أن يرحل منها إلى بغداد، للإستزادة من علمائها، وبغداد في ذلك الوقت

---

1 - ابن خلدون، المقدمة، ص 1038، 1039.

2 - زرويلة بلدة كانت عند شفشاون، قريبة من تطوان في الجانب الشمالي من المغرب الأقصى.

3 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 186.

4 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص71.

عاصمة الخلافة العباسيّة، ومحط أنظار الراغبين في العلم، إذ كانت تضم الصفوة من العلماء، والقمم العوالي من مشائخ الصوفيّة الذين راضوا أنفسهم على طريقة «عبد القادر الجيلاني»، الذي أحدث تغييرا عميقا في الأوساط الصوفيّة، لازال صداه إلى الآن، ولاريب أنّ شخصيّة عبد القادر كان لها ذكر لامع في تونس في تلك الفترة، بخاصة ونحن نعلم أن «أبا مدين »قد تتلمذ، ولبس الخرقة الصوفيّة على يديه، ولعلّه السبب الذي أذكى جذوة الشوق في نفس « أبي الحسن الشاذلي» يقول : «لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي، فمارأيت بالعراق مثله»(1). ويذكر المؤرخون (2) أن هذا اللقاء كان سنة 618هـ، بعد أن زار أبو الحسن الشاذلي كلا من مصر،الحجاز، وفلسطين، والشام. وكان مقصود أبي الحسن الشاذلي في رحلته الإهتداء إلى مرشد روحي.

أعجب أبو الحسن في بغداد بشخصيّة «أبي الفتح الواسطي» فأسّر له بما يدور في خلده، وبالسبب من مجيئه، فما كان من الواسطي إلى أن أشار عليه بأن يرجع إلى بلاده، فرجع أبو الحسن إلى المغرب حيث اتصل بابن مشيش وفي ذلك يقول :

> لما قدمت عليه وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل اغتسلت في عين في أسفل الجبل، وخرجت عن علمي وعملي، وطلعت إليه فقيرا، وإذا به هابط إليّ وعليه مرقعة وعلى رأسه قلنسوة من خوص، فقال لي مرحبا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبّار وذكر نسبي إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ثم قال ياعلي طلعت علينا فقيرا من علمك وعملك، فأخذت منّا غنى الدنيا والآخرة، قال فأخذني منه الدهش فأقمت عنده أياما إلى أن فتح الله علي بصيرتي(3).

والحقيقة أنه من العسير على الباحث أن يتوصل إلى معرفة شيء مفصّل لحياة الشاذلي في هذا الطور، لذلك أردنا أن نذكر بعض الأسماء البارزة لأساتذته التي ذكرتها المراجع .

---

1 - ابن الصبّاغ درة الأسرار، ص 4.

2 - علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ط1، القاهرة، مطبعة دار التأليف 1951م، ج1، ص 77.

3 - ابن الصبّاغ، المرجع السابق ص 4، 5.

أبو عبد الله بن حرازم : (1) : محمد بن العارف بالله «علي بن إسماعيل بن حرازم» (2) المعروف «بابن حرزهم»، يتصل نسبه بسيدنا عثمان - رضي الله عنه- توفي أبوه أبو الحسن علي وهو صغير، فلم ينتفع بعلم والده الذي كان أستاذا لأبي مدين، وإنما انتفع بأصحابه كأبي مدين، وأبي محمد صالح بنصار الدكالي.

كان أبو عبد الله عالما عابدا زاهدا. والظاهر أن أبا الحسن الشاذلي تتلمذ عليه إبّان وجوده في فاس. قبل رحيله إلى تونس ، ويحدّثنا محمد مخلوف أن أبا عبد الله بن حرازم هو أول شيوخ الشاذلي في طريق القوم، وهو الذي بذر بذرة التصوّف فيه وهو فتى صغير حيث ألبسه خرقة الصوفيّة، توفي+ رحمه الله -في سنة 633 هـ.(3).

أبو سعيد الباجي(4) : هو خلف بن يحي التميمي من أهل باجة، (5)، سلك طريق التصوّف على يد كل من الأستاذ (مروان البوني)، والأستاد (أبي مدين). لازم أبو سعيد النسك والعبادة في حياته، كما عرف بالصلاح والتقوى حتى صار علما مفردا في الديار التونسيّة، ولأهلها فيه اعتقاد عظيم ومرتبة سامية. وحسبنا أن نعرف علّو منزلته من شهادة الشاذلي له بالولاية وفي هذا يقول ابن الصبّاغ نقلا عن «أبي فارس عبد العزيز بن فتوح»، في كتابه «فضائل الشيخ أبي سعيد الباجي» في رواية له عن الشاذلي أنه كان يقول :

> لما دخلت تونس في إبتداء أمري، قصدت من فيها من المشائخ، وكان عندي شيء أحبّ أن أعرضه على من يبيّن لي مافيه، فلم يكن فيهم من شرح لي حالا حتّى دخلت على الشيخ الصالح أبي سعيد الباجي، فأخبرني بحالي قبل أن أبديه، وتكلّم على سرّي، فعلمت أنه وليّ الله حقا، ولازمته، وانتفعت به كثيرا(6).

1- أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 186.

2- نفس المرجع، ج1، ص 162، 163.

3 - نفس المرجع، ج1، ص 186.

4 - البهي النيّال، **الحقيقة التاريخيّة للتصوّف الإسلامي**. ط1، تونس : مكتبة النجاح للنشر والتوزيع 1965م، ص 224.

5 - نسبة إلى باجة القديمة، وهي الآن قرب منوبة في الطريق الجديدة بتونس.

6 - ابن الصبّاغ، درّة الأسرار ، ص 6.

ولاشك أن هذه الشهادة لها قيمتها عند من يعرف قدر أبي الحسن الشاذلي. توفي هذا الشيخ سنة628 هـ.

عبد السلام بن مشيش (1) : هو أبو محمد بن مشيش أو بشيش - بالباء الموحدة - الشريف الحسني الذي يلتقي نسبه بالشيخ الشاذلي في إدريس.(2).

ولد في بنى العروس في جبل العلم بالمغرب الأقصى، وتذكر بعض المراجع التي ترجمت له التقى بالشيخ أبي مدين في بجاية(3)، ثم أكمل تربيته الصوفيّة على يد الشيخ «عبد الرحمن العطار» المشهور «بالزيات المدني»، أحد تلاميذ الشيخ «تقي الدين الفقيّر». ولابن مشيش في المغرب مقام كبير حتى قيل أن مقامه بالمغرب كمقام الشافعي بمصر.(4) ويذكر صاحب «الاستقصاء» (5) أنه لما ادعى «محمد بن أبي الطواجن» النبّوة، وتبعه في ذلك طغام البربر ناصبه ابن مشيش العداء، وحمل عليه حملات عنيفة،أحفزته وأتباعه على الكيد له، فدبروا له مكيدة فقتلوه وهو نازل من خلوته في سحر من الأسحار سنة 622هـ، وقيل سنة 625هـ.

ولقد كانت طريقته -رحمه الله -اتباع الشريعة المحمديّة، واقتفاء السنّة لايحيد عنها في الأقوال، وفي الأفعال، مع الزهد، والقناعة، والورع، أما الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد بلغ فيهما مرتبة عالية، لم يصل إليها أحد من مشايخ عصره، ويعتبر ابن مشيش بحق قطب التصوف السني العملي في بلاد المغرب، كما يعتبر ابن عربي شيخ التصوف العرفاني.

ويبدو أن تأثير ابن مشيش على الشاذلي كان قويًا جدا، إذ أنه صاحب الفضل الأكبر في تكوين شخصيته الصوفيّة، وعلى يديه قدّر الله - سبحانه وتعالى - أن يتم أبو الحسن الشاذلي في صحبته مسيرة التكميل الباطني،كما زوده بالعديد من الوصايا التي جعلته يقبل على التمسك بالشريعة والفناء في محبّة الله سبحانه، ولعل أهمها الوصيّة الجامعة التالية :

---

1 - أحمد السلاوي الناصري، الاستصقاء في تاريخ المغرب الأقصى. ج1، ص 210، الزركلي، الأعلام، ج4، ص 9.وانظر أيضا L.RINN;MARABOUTS ET KHOUANS;ALGER;1884;PP218-219

2 - أحمد السلاوي ، المرجع السابق ، والصفحة.

3 - Paul ;Nwyia; Ibn Ata Allāh et la naissance de confrérie šāḏilite; éd par el machreq; Beyrouth: 1986: p17:

4 - ابن عياد، المفاخر العليّة، ص 13.

5 - أحمد السلاوي، المرجع السابق ، ج1، ص 210

ياعلي، اللّه اللّه ، والناس الناس، نزّه لسانك عن ذكرهم وقلبك عن التمايل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية اللّه عندك، ولاتذكرهم إلا بواجب حق اللّه عليك، وقد تم ورعك، وقل اللّهم أرحنى من ذكرهم ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرّهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصيّة من بينهم، إنّك على كل شيء قدير(1)

ويروي أبو الحسن الشاذلي عن شيخه ابن مشيش :

دخل رجل على أستاذي فقال له : وظف لي أورادا فغضب الشيخ منه وقال له: أرسول أنا ؟ أوجب الواجبات : الفرائض معلومة، والمعاصي مشهورة، فكن للفرائض حافظا، وللمعاصي رافضا ،واحفظ قلبك من إرادة الدنيا ، وحبّ النساء وحبّ الجاه، وإيثار الشهوات، واقنع عن ذلك كلّه بما قسم اللّه لك، إذا خرج مخرج الرضا، فكن لله فيه شاكرا، وإذا خرج لك مخرج السخط ،فكن عنه صابرا، وحب الله قطب تدورعليه الخيرات، وأصل جامع لأنواع الكرامات(2)

وابن مشيش هو صاحب الصّلاة المشهورة على النبي - صلّى اللّه عليه وسلّم - التي تولّى شرحها الجلّة من العلماء (3) وهي :

اللّهم صلّ على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم ، فلم يدركه منّا سابق ، ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت، بفيض أنواره متدفقة...(4).

---

1 - ابن الصّبّاغ، درّة الأسرار، ص5.

2 - نقلا عن : على سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 83.

3 - ومن أشهر شروحها :شرح العلاّمة محمد بن علي الخروبي مخطوط بخزانة الرباط، رقم 245.د ؛ وشرح العلامه أحمد بن عجيبة ، مخطوط ، بالمكتبة الوطنية: الجزائر ، تحت قم 2026

4 - أحمد حامد عبد الكريم، **الأسرار العليّة**، القاهرة : المكتبة المحموديّة التجارية، [د، ت]، ص 66.

هؤلاء هم شيوخ الشاذلي، الذين أخذ عنهم التصوّف، إلا أن بعض المؤرخين كالشعراني، (1) وابن الملّقن(2) أضافا شيخا آخر وهو «نجم الدين الأصفهاني» نزيل الحرم، ولاشك أن هذا وهم وقعا فيه إذ من المعروف أن «نجم الدين الأصفهاني» قد توفي سنة 721هـ. كما نص على ذلك اليافعي اليمني، (3) المعاصر له، بل أننا نجد في «لطائف المنن» (4) لابن عطاء الله السكندري إشارة صريحة من أن نجم الدين تلميذ« لأبي العباس المرسي» خليفة الشاذلي.

هذه صورة تكاد تكون قريبة لما كانت عليه حياة الشاذلي في طورها الأول، ندرك من خلالها كيف تلقى أبو الحسن الشاذلي علومه ومعارفه الأولى، وكيف تربى من الناحيّة الصوفيّة.

ولاشك أن الشاذلي في هذا الطور حصّل الكثير من علوم الشرع، وهو الطور الذي نضج فيه عقله، وبرزت مواهبه، وقويت ملكاته، ووضحت شخصيّته، وفيه اتصل بالكثير من العلماء، وذوي الفضل ممن عرفوا بالتقى والصلاح، وفيه أقبل الشاذلي على المجاهدات، والرياضات الشّاقة، والسياحات الكثيرة، في كل من زرويلة، وفاس، وتونس، وشاذلة، والحجاز، والشام، وبغداد، ليعود بعدها إلى المغرب الأقصى، ليجتمع مع عبد السلام بن مشيش، وبعد أن أمضى أبو الحسن مدة في الأخذ عنه، أمره بالرحيل إلى شاذلة، وليبدأ بسفره إليها، الطور الثاني من حياته الذي يبدأ من سنة 620هـ. وينتهي بدخوله مصر سنة 642هـ. وفيما يلي بيان ذلك

2 - ارتحاله من غمارة إلى شاذلة وتونس :

ارتحل الشاذلي من غمارة إلى شاذلة القريبة من تونس، بإشارة من أستاذه «عبد السلام بن مشيش»، فعرف من ذلك الحين بالشاذلي، وعلى الرغم من طول هذه المدة زمنيا، فإن المصادر التي بين أيدينا لاتمدنا بمعلومات وافية عنها. وكل مانعرفه أن أبا الحسن الشاذلي قضى شطرا منها في العبادة، والنّسك بجبل زغوان رفقة «أبي عبد الله الحبيبي»(5). وبقي على هذه الحال مدة إلى أن أُذن له بالتربية والتسليك الباطني للمسترشدين، عندئذ غادر جبل زغوان، ونزل إلى شاذلة لتعليم

---

1 - الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص4.

2 -ابن الملّقن، طبقات الأولياء، ص459.

3 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 261.

4 -ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 100، 101.

5 - هو الشيخ عبد الله محمد الحبيبي توفي سنة 693 هـ، ودفن قبلة الزلاج أنظر : محمد البهى النيال ، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 243.

الطالبين، وإرشاد السالكين ،وعندما ذاع صيته ،وتوسعت دائرته في الإفادة، توجه إلى تونس حيث إلتف حوله عدد من المريدين، فكثر أتباعه وعظم أمره، ونبه شأنه، وصحبه جماعة من الفضلاء منهم «أبو الحسن بن مخلوف الصقلي»،و «أبو عبد الله الصابوني»، و«أبو محمد عبد العزيز الزيتوني»، و«أبو عبد الله البجائي الخيّاط»، و«أبوعبد الله الجارحي»، وأبو العزائم ماضي بن سلطان»(1)، الأمر الذي أثار حفيظة بعض الفقهاء وبخاصة قاضي الجماعة بتونس، «أبا القاسم بن البراء» الذي أوعز إلى السلطان «أبي زكريا الحفصي» بأنه زنديق ومشوّش ويسعى لإحداث اضطراب سياسي فيها، فهو حسني فاطمي، ولعله يريد إقامة ملك لنفسه كما أقامه الفاطميون في تونس نفسها، ويحدثنا صاحب «درة الأسرار» عن خبر هذه السعاية فيقول :

> دخل الفقيه أبو القاسم بن البراء، وكان إذ ذاك قاضي الجماعة على السلطان أبي زكريا فقال إن ههنا رجلا من أهل شـــاذلة سرّاق الحمير، يدعي الشرف، وقد اجتمع عليه خلق كثير ويدّعي أنه الفاطمي، ويشوّش عليك بلادك(2)

وبالرغم من خطورة الإتهامات التي أطلقها ابن البراء، فإن أبا زكريا كان ملكا فاضلا، فلم يتعجل في الحكم، بل أمر بعقد مجلس يحضره العلماء، ليناقش فيه الشاذلي، وعقد المجلس، وحضره السلطان نفسه من وراء ستر فسألوه عن نسبه مرارا، والشيخ يجيبهم عليه، والسلطان يسمع، وتحدثوا معه في كل العلوم، فأفاض عليهم بعلوم كثيرة أسكتهم بها، وماستطاعوا أن يجيبوا عليها من العلوم الموهوبة، والشيخ يتكلم معهم في العلوم المكتسبة ويشاركهم فيها (3).

ولما سمع السلطان ،الشاذلي يتكلم، اقتنع ببراءته، واخلاصه في الدعوة إلى الله، ورأى منه نضجا في الإدراك، وسعة في العلم، فما كان منه إلا أن خاطب ابن البراء، ومن معه وقال لهم: «هذا رجل من أكابر الأولياء، ومالكم به طاقة» (4). لكن ابن البراء عاد مجددا ليقول للسلطان: «والله لئن خرج في هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس، ويخرجونك من بين أظهرهم، فإنهم مجتمعون على بابك». (5)

---

1 - ابن الصبّاغ، درّة الأسرار، ص 9.

2 - نفس المرجع، ص 10.

3 - نفس المرجع والصفحة.

4 - نفس المرجع والصفحة.

5 - نفس المرجع والصفحة.

غير أن أبا زكريا - ربما لحاجة في نفسه - أذن للفقهاء بالانصراف، وأمر الشاذلي بالبقاء عنده،واتفق أن وقع في قصر الملك في هذه الأثناء حدثان هامان :

أولهما : وفاة أحد جواري الملك.

ثانيهما : وقوع حريق داخل القصر.(1)

أحسّ أبو زكريا من خلالهما أن هذا لم يحدث اعتباطا، وإنما لتنبيهه لتدارك ماوقع فيه، ولما عادأخوه «عبد اللّه اللّحياني»، أمره بأن يعتذر إلى أبي الحسن الشاذلي ، ثم ليستصحبه إلى بيته معززا مكرّما.

وخرج أبو الحسن الشاذلي من هذه المحنة منتصرا، واستمر كعادته في الإرشاد، وتربية المريدين إلى الطريق الحق،لكن ابن البراء لم يكف عن إيذائه، مما كدّر صفوه، وشوّش عليه خاطره، فشعر بأن مقامه في تونس لم يعد يطيب له كما كان ، فقرر الرحيل إلى الشرق العربي، عساه يجد الهدوء، والاستقرار النّفسي اللذين فقدهما في تونس. ولمّا سمع السلطان بذلك تغيّر لخروجه وقال : «أي شيء يسمع به عن إقليمنا أنه أتاه ولي من أولياء اللّه، فضاق عليه حتّى خرج فارا من نفسه(2) وأرسل له السلطان من يردّه ،ويثنيه عن عزمه، إلا أن الشيخ أجاب رسول السلطان بلطف وقال له: «ماخرجت إلا بنيّة الحج- إن شاء اللّه تعالى - ولكن إذا قضى اللّه حاجتي أعود » (3).

ولما علم ابن البراء بخروج الشاذلي إلى مصر، سولت له نفسه، بأن يرسل رسولا من قبله إلى سلطان مصر «الكامل الأيوبي» يخبره فيها بأنّ الواصل إلى بلاده مشوّش، وبأنه سيفعل في بلاده مافعله بتونس، وبأنه علوي فاطمي يسعى لإقامة ملك للفاطميين، ولايخفى أنّ مصر في ذلك الوقت، كانت خاضعة للأيوبيين، أعداء الفاطميين الألداء، وهم الذين أسسوا دولتهم على أنقاض الدولة الفاطميّة الشيعيّة، وكانوا أخشى مايخشونه الحركات الباطنيّة التي تعمل على إعادة ملك الفاطميين، لذلك وجدت هذه الرسالة أذنا صاغية من سلطان مصر، الذي أمر رجال شرطته بالقبض عليه بمجرد وصوله إلى الإسكندرية.(4).

---

1 -ابن الصباغ ، درة الأسرار، ص 11.

2 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 30.

3 - ابن الصبّاغ، المرجع السابق، ص 12.

4 - نفس المرجع والصفحة.

وتم له ما أراد، لكن «الملك الكامل» بعد أن اجتمع بالشاذلي، وحادثه بعقد ابن البراء، أعجب بمنطقه، وأدرك أن التهمة مغرضة فأفرج عنه، وعن أصحابه، بل سارع إلى تكريمه وتقريبه منه يقول الشاذلي : «وأقمنا عنده [أي عند الملك الكامل] في القلعة أياما، واهتزت لنا الدّيار المصريّة إلى أن طلعنا للحج» (1) .

وبعد أداء فريضة الحج، رجع الشيخ إلى مدينة تونس وفاء بالوعد الذي أعطاه لسلطانها، وبقي مدّة طويلة فيها إلى أن قدم«أبو العبّاس المرسي »سنة 640هـ إليها، ذلك الشّاب الذي كان السّبب الرئيس في عودة «أبي الحسن الشاذلي» إلى تونس ويروى أنّه قال : «ماردني إلى تونس إلا هذا الشاب» (2) ولقد أضفى بعض المؤرخين على هذا اللّقاء صبغة أسطوريّة، إذ أنهم رووا أن أبا الحسن كان يترقب مجيء المرسي، وأنه قد كان ألقى إليه خبره منذ أمد طويل حتّى أنهم ذكروا أنهما لما التقيا قال الشاذلي للمرسي «لقد رفعت إليّ منذ عشر سنين». (3) ومهما تكن نسبة صدق هذه الرواية من الصحّة، فإنّ من الثابت أن هذا اللّقاء كان أهم حدث، في رحلة عودة أبي الحس الشاذلي إلى تونس بالنّظر إلى ذلك المآل الذي آلت اليه دعوة الشاذلي بعد وفاته، وماكان فيه لأبي العبّاس المرسي من دور أساسي في نشر تعاليم الشاذلي في مصر.

بعد هذا اللّقاء التاريخي، بدأ الشاذلي يتهيأ لمغادرة تونس نهائيا، والسّفر إلى مصر إتماما لنبوءة أستاذه، (4) وبمغادرة الشاذلي تونس ينتهي الطور الثاني من حياته، وليبدأ الطور الأخير، وفما يلي بيانه.

3 - أبو الحسن الشاذلي في الإسكندرية: ارتحل أبو الحسن مع وفد من خاصة أصحابه، وكان ذلك حوالي سنة 642هـ، وكان حاكم مصر في الوقت الذي دخلها الشاذلي، الصالح «نجم الدين أيوب» والمصادر التاريخيّة ذكرت لناسببين لخروج الشاذلي من تونس :

أولهما : تحقيق الجزء الأخير من نبوءة أستاذه« عبد السلام بن مشيش »الذي وعده بأنه سيرث القطابة بأرض مصر.

---

1 - ابن الصباغ ،درّة الأسرار ص12.

2 - نفس المرجع، ص 13.

3 - نقلا عن : جمال الدين الشيّال، أبو الحسن الشاذلي و خليفته أبو العبّاس المرسي ، مجلة العربي، عدد 68، الكويت جويلية 1964م، ص 96.

4 - ابن الصّباغ، المرجع السابق، ص 5.

ثانيهما : مايروى من أنّ الشاذلي رأى النبي - صلّي الله عليه وسلّم - في المنام، يأمره بالانتقال إلى الديّار المصريّة.(1)

غير أننا لانستبعد أن يكون أبو الحسن الشاذلي قد أعجب بأهل الإسكندريّة، لما كان يلقاه منهم من تأييد شعبي، أثناء غدواته السّابقة إلى الحج، وروحاته منه، مما حفزه في التفكير للإقامة بينهم، نستشفّ ذلك من حفاوة الاستقبال الذي خصّ به عند دخوله إليها ويروى أنه لما وصل للإسكندرية «خرج الناس يتلقون الركب».(2)

وأيّا ماكان الأمر فإن أبا الحسن الشاذلي غادر تونس قاصدا الإسكندريّة، وكانت الإسكندريّة في تلك الفترة حافلة بكثير من العلماء، والمشائخ نذكر منهم : «أبا عبد الله المعافري الشاطبي» (3) نزيل الإسكندريّة، أحد الأولياء المشهورين بالعلم والصلاح (ت 672هـ)، وشيخ القراء «مكين الدين الأسمر»(4) (ت 692هـ)، و«أبا عبد الله بن النعمان» (5) العالم المحدث المربي الفاضل (ت 683هـ)، و «أبا القاسم القباري»(6) الرجل الصالح الزاهد الورع (ت 662هـ)، وتلميذه المفسّر المشهور «ابن المنير»(7) قاضي الإسكندريّة وفاضلها المعروف (ت 683هـ).

ويبدو أنّ الشاذلي أثناء إقامته بالإسكندرية، صادف تقديرا وتبجيلا من طرف سلطانها، الذي أهداه قصرا أوقفه عليه، وعلى ذريته من بعده، كان بمثابة مركز علمي وروحي يتلقى فيه المريدون التوجيه والتربية(8).

ولقد كان للشاذلي في الإسكندريّة نشاط ملحوظ، إذ بدأ يشتغل بإرشاد الطالبين، وتكميل السّالكين، ومإن انتهى عام 642هـ، حتى انخرط في سلك مريديه الجلّة من علماء الإسكندريّة كالشيخ « مكين الدين الأسمر» و «أبي عبد الله الشاطبي» اللذين صارا من خاصّة أتباعه، وتذكر المصادر التاريخيّة أن مكين الدين الأسمر» كان يقول :«مكثت أربعين سنة، يشكل على الأمر في طريق القوم فلا أجد من يتكلّم عليه، ويزيل عنّى إشكاله حتّى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال

---

1 - ابن الصباغ ،درّة الأسرار،ص13.

2 - نفس المرجع، ص 14.

3 -أنظر في ترجمته : المقري التلمساني، نفح الطيب، ج2، ص140، 141.

4 - أنظر في ترجمته : اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 201.

5 - أنظر في ترجمته : ابن الملّقن. طبقات الأولياء، ص 488، 489.

6 - أنظر : نفس المرجع. ص 319.

7 - أنظر : نفس المرجع والصفحة.

8 - ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 14.

عني كل ما أشكل عليّ»(1) أما «أبو عبد الشاطبي» فقد كان يعد صحبته للشاذلي مفخرة كبيرة، ومنقبة جسيمة» (2).

وكان الشيخ في الإسكندرية يعقد مجالس تذكيره في مسجد العطّارين(3)، أقرب المساجد إلى بيته، ويحدّثنا صاحب«درّة الأسرار» أن الشاذلي كان يقيم في بيته يوميًا حلقات الذكر والمذاكرة، (4) فأقبل الناس على دعوته من كل فج عميق يتلّقون منه التربية والإرشاد. إلا أن أبا الحسن الشاذلي لم يشأ أن يقصر نشاطه الروحي على الإسكندرية وحدها، بل كان ينتقل إلى المدن المصريّة الكبرى، ومن تلك المدن التي تردّد عليها الشاذلي دمنهور، ودمياط، والمنصورة، والقاهرة التي كان كثيرا مايزورها، وتشير المصادر أنّه كان يلقي دروسه بها في مسجدالمقياس، والمدرسة الكامليّة، وكان يحضرها الجلّة من العلماء الذين لاتزال مؤلفاتهم مراجع أصيلة لنا إلى اليوم، سواء في التفسير،أوالفقه، أو الحديث، أواللّغة، وحسبنا من بينهم «العزبن بن عبد السلام»، الذي يقال أنه وصل إلى درجة الإجتهاد المطلق المنتسب، والمحدّث الجليل «عبد العظيم المنذري»، و«محيي الدين بن سراقة الشاطبي»،و«قطب الدين القسطلاني»و«العلم ياسين» أحد تلاميذ«ابن عربي» (5) وكان هؤلاء معترفين له بالفضل ،وعلّو الكعب في المعارف الإلهيّة، ويذكر أن العز كان يقول إذا حضر مجلس الشاذلي في الحقائق: «اسمعوا هذا الكلام القريب العهد من اللّه». (6).

ويبدو أنه في أثناء هذه المرحلة ظهرت أسس الطائفة التي ينسبها الشعراني إليه باسم «الشاذليّة»(7)، وفيها انتشرت دعوته انتشارا واسعا للغاية، وطبقت شهرته الآفاق، وخضع لدعوته العلماء والوجهاء، حتى صار الشيخ علما مفردا في الديار المصريّة، ورزق من حسن القبول، وقوة التأثير مبلغا عظيما في عصره حتى أنه يستحق أن يدعى بجدارة بمجدّد علم السلوك والإحسان، الذي يعرف بالتصوّف في القرن السابع الهجري، إذ لم تبق بقعة من بقاع مصر، إلا وفيها خليفة من خلفائه أو جماعة من أصحابه، يقتفون أثره، ويسلكون طريقه.

---

1 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 90.

2 - ابن عياد، المفاخر العليّة. ص 24.

3 - علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 102.

4 - ابن الصبّاغ، درّة الأسرار، ص 16.

5 - ابن عيّاد، المفاخر العليّة، ص 44؛ علي سالم عمّار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 103.

6 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 72.

7 - عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4.

والظاهر أن أبا الحسن الشاذلي ، أثناء إقامته بمصر قد صادف استقرارا نفسيا، ويسارا ماديا، لذلك وجدناه يكرّس جهوده كلّها للإفادة والإفاضة، والدعوة إلى اللّه على طريقته، ويتجلّى لنا هذا من خلال غدواته للحج كل عام تقريبا. كما يحدّثنا عن ذلك «ابن بطوطة» في «رحلته»(1) لذلك كانت إقامة الشاذلي بمصر، أفضل فترة في حياته، وتشير المصادر أنه تزوج في هذه الأثناء، إمرأة فاضلة من نساء الإسكندرية ،وأنجب منها أبناءه الخمسة .

أما معيشته فقد وصفها الشيخ نفسه في رسالة بعث بها إلى أحد مريديه في تونس يقول له فيها :

> الكتاب إليكم من الثغر [الإسكندريّة] حرسه اللّه، ونحن في سوابغ نعم اللّه نتقلب، وهو بفضله يتحبّب قد ألقى علينا وعلى أحبابنا كنفه، وجعلنا عنده.فما ألطفه ندعوه فيلبينا، وبالعطاء قبل السؤال ينادينا فللّه الحمد كثيرا، كما ينبغي لوجهه الكريم، وجلاله العظيم وأما الأهل، والأولاد، والأصهار، والأحباب ففي سوابغ نعم اللّه يتقلّبون وبإحسانه ظاهرا وباطنا مغمورون(2)

وهكذا تحول عسر الشيخ إلى يسر مصداقا لما خوطب به حينما دخل إلى الديار المصريّة، يقول -رحمه اللّه -: «قيل لي: ياعلي، ذهبت أيّام المحن، وأقبلت أيام المنن، عسرا بيسر اقتداء بجدك - صلّى اللّه عليه وسلّم - »(3) ولاينقص من قدر هذه النعم انكفاف بصر الشيخ الذي فقده سنة 646هـ، إذ لم يغيّر هذا الحادث من مجرى حياة الشيخ شيئا، ولعل في هذا الحادث كانت حكمة اللّه عز وجلّ، إذأن الفاقات أعياد عند هؤلاء الربانيين، لما يجدونه فيها من التحقق بمقام العبودية المحضة للّه عز وجلّ.

وبعد عام واحد من انكفاف بصر الشيخ وصلت جموع «لويس التاسع» ثغر دمياط واحتلوه دون مقاومة تذكر، (4) حتى وصلوا إلى المنصورة، فرأى الشيخ أن الواجب يحتم عليه أن لايتخلّف عن موضع الخطر، باعتباره

---

1 - محمد بن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط، القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى، 1958م، ج1، ص 12.

2 - نقلا عن : ابن الصباغ، درّة الأسرار، ص 27.

3 - نفس المرجع، ص 14.

4 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4 ، ص 116.

محل القدوة، والأسوة للنّاس، فذهب إلى المنصورة في مقدّمة الذاهبين يثبّت الجند، ويبعث فيهم روح الحماسة، والجهاد للدفاع عن الإسلام في أحد معاركه الفاصلة، ولم تنقض إلا أيام قليلة حتى جاء نصر الله للمؤمنين، وهزم الصليبيون، بل أسر ملكهم نفسه. ليعود بعدها الشيخ إلى الإسكندرية ويتابع فيها نشاطه الأول من جديد.

رابعا - أبناؤه الأمثال :

رزق أبو الحسن الشاذلي خمسة أبناء وهم : وأبو الحسن علي، شهاب الدين أحمد، وأبو عبد الله شرف الدين، وعريفه الخير وكانت تكنى بالوجيهة، وزينب.(1) سلك هؤلاء الأبناء الأفاضل مسلك أبيهم، لأنهم ربوا في بيت علم وصلاح، منذ صغرهم، وكان ابنه الأول علي كثير السياحة، ورعا تقيا، ظهر صلاحه في بلاد المغرب الأقصى، كما ساهم في نشر طريقة والده بها.

أما ابنه الثاني أحمد، فكان عالما فاضلا، ولاتكاد سيرة أبو عبد الله شرف الدين تخرج عن هذا الخط الذي سار عليه أحمد، وعلي، فكلهم من أبي الحسن مقتبس، ومن بحره مرتشف.

أما من الإناث فقد كان للشاذلي بنتان وهما :

زينب ولها أولاد تناسلوا وتعاقبوا، والثانية «عريفة الخير» وتكنى بالوجيهة، وكانت إمرأة صالحة تحكى عنها بعض الكرامات (2).

خامسا - دنوأجل الشيخ والإستعداد له :

ظل الشيخ في جهاده ودعوته يدرس ويعظ، ويتعهد مريديه بالتربية والتوجيه، إلى أن جاءت سنة 656هـ. فأخذ الشيخ كعادته في السفر إلى الأرض المقدسة، وبينما هو في طريقه أصيب بوعكة في قرية حميثرة(3) بصحراء عيذاب من صعيد مصر، شعر خلالها بدنو أجله، فجمع حوله مريديه، وجعل ينصحهم ويوصيهم يقول :

---

1 - ابن الصّباغ، درة الأسرار، ص 15.

2 - أنظر : ابن الصبّاغ ، نفس المرجع، ص 21؛ ابن عياد، المفاخر العليّة، ص 36.

3 - حميثرة بالتصغير وبتاء [ثالث حروف الهجاء منقوطة بنقطتين من فوقها] علم [بفتح ففتح] في صحراء عيذاب من صعيد مصرأنظر : الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت : دار إحياء التراث العربي[د. ت] ،ج2، ص 14.

صاحب المفاخر العليّة :

وأوصاهم بوصايا كثيرة، وأوصاهم بحزب البحر خاصة وأمرهم بأن يحفظوه أولادهم وقال لهم : إن فيه إسم اللّه الأعظم، ثم خلا بأبي العبّاس المرسي خاصة وأوصاه بأشياء، واختصه بما خصّه اللّه به من البركات وقال لهم: إذا أنا متّ فعلكيم بأبي العباس المرسي، فإنه الخليفة من بعدي، وسيكون له مقام عظيم بينكم.(1).

ولما كانت ليلة الإثنين بات تلك الليلة متوجها إلى اللّه ذاكرا، فسمعه أصحابه وهو يقول : «إلهي إلهي»(2) فلّما كان وقت السحر ظن أنّه نام، لكنه أسلم روحه لبارئها الكريم وكان ذلك يوم عشرين من ذي القعدة من سنة 656هـ(3).

ويذكر «ابن الصّباغ» أنه حين وافاه أجله كان له من العمر ثلاث وستون سنة أو نحوها، ويحدثنا المترجمون أن «أبا العباس المرسي» هوالذي توكّى غسله، ودفنه، وأمّ القوم للصلاة عليه(4).

ولقد أضفت عليه بعض الروايات نوعا من التكريم من ذلك مارواه ابن الصّباغ(5)، وابن عيّاد الشافعي(6)« من أن ماء عَيْذَاب كان أجاجا فعذب». رحم اللّه أبا الحسن في الخالدين.

---

1 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 50.

2 - المرجع نفسه والصفحة.

3 - مناقب أبي الحسن الشاذلي، مخطوط لمؤلف مجهول،لدى الباحث نسخة منه . ويذكر ابن الملّقن في طبقات الأولياء أن الشاذلي توفي في أول ذي القعدة، أنظر: طبقات الأولياء، ص 459، وقيل توفي في شهر شوال أنظر :ابن عياد، في المفاخر العليّة، ص 51.

4 - ابن الصّباغ، درة الأسرار، ص 136.

5 - نفس المرجع، ص 135،

6 - ابن عياد الشافعي، المفاخر العلية ص51.

الفصل الثالث

شخصيته و آثاره

جامعة الإمام الأكبر للعلوم الإسلامية

أولا - شخصيّة أبي الحسن الشاذلي :

إن المكانة المرموقة التي أحرزها أبو الحسن الشاذلي في عصره، والتأثير العميق الذي خلّفه على أهل زمانه، ومن بعده، تدعونا إلى محاولة التعرف على شخصيّته انطلاقا من تقييم وتحليل مواقفه والاستعانة بما أطلق عليه من أوصاف.

1 - التحصيل العلمي :

أول مايلفت النّظر في شخصيّة الشاذلي هو غزارة علمه، وسعة معارفه ،وقد لمس جلّ المترجمين لأبي الحسن الشاذلي هذا الجانب العلمي، واعترفوا له فيه بعلّو الكعب، بل عدّوه خصيصة اختص بها دون غيره من شيوخ طرق الصوفية ،على نحو مايتبيّن من قول الكمشخانوي النقشبندي: «إعلم أن لكل الأولياء خصوصيّة، وهمّة في الحياة والممات... كقوة التصرف والإمداد لعبد القادر الجيلاني، وقوة العلم، والواردات لعلي أبي الحسن الشّاذلي»(1) .

ومن ذلك ماقاله ابن عيّاد في المفاخر العليّة من أنّه :

> كان عالما عارفا بالعلوم الظاهرة جامعا لدقائق فنونها، ومفتضا لأبكار المعاني، وعيونها من حديث وتفسير، وفقه، وأصول، ونحو، وتصريف، ولغة، ومعقول، وحكمة، وآداب، وأما علوم المعارف فقطب رحاها، وشمس ضحاها..(2) .

وقد سبق أن بيّنا أن الشاذلي نشأ محبا للعلم ، شغوفا بالبحث منذ صغره حتىّ حصلت له اليد الطولى فيه، ويذكر ابن عطاء اللّه السكندري :« أنّ الشاذلي لم يدخل الطريق إلى اللّه حتى كان يعدّ للمناظرة في العلوم الظاهرة».(3)

وتشهد جملة الأقوال، والأحزاب، والأدعية التي وصلتنا منسوبة إليه على صدق هذه الأوصاف، كما أنّها تظهر امتلاكه لناصية كثير من العلوم.

ولقد أكسبته سعة معارفه ،- مع استعداداته الفطريّة -استقلالا في الرأي، وحريّة في الفكر مكّنته من أن يجدّد الإسلام في جوانبه الروحيّة، وأن يزيل ماعلق بالتصوف من غبار الفلسفة ورماد البطّالين.

1-أحمد الكمشخانوي ، جامع الأصول ، ص5

2- أحمد ابن عياد الشافعي ، المفاخر العليّة ،ص22.

3-ابن عطاء الله السكندري لطائف المنن ص71

2 - الاخلاص

إن الباحث المتأمل في شخصيّة أبي الحسن الشاذلي يجد أمثلة عديدة لمظاهر اخلاصه نقتصرمنها علىٰ مايلي :

1 - جهاده في الدعوة :

جاهد أبو الحسن الشاذلي في الدعوة إلى اللّه أكثر من ثلث قرن، في بيئة كثرت فيها الوشايات والسعايات(1)، ولم يثن ذلك من عزمه، أو يوهن من إرادته، واستمر يدعو الخلق إلى اللّه، ويربّي النفوس، ويحارب البدع، وينصر الحق في هذا الدين، فانتشرت دعوته في الآفاق، ولم يرحل عن هذه الدنيا حتى نزل له القبول فيها، فأحبّه الناس واقبلوا على دعوته من كل حدب وصوب، مما ترك أثرا عميقا في المحافظة على روح الإسلام، وشعلة الإيمان، وماذلك إلا لإخلاصه، الذي لايرتقي إليه الشك، أو تصل إليه الظنّة، وكل من يقرأ أحزابه ،ووصاياه، وأدعيته ،وحكمه إلا ويحسّ بتأثيرها على نفسه، ولاغرو في ذلك ، فكل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذي منه برز(2)

2- جهاده في معركة المنصورة :

أما الأمر الذي بدا فيه اخلاصه، فهو جهاده في سبيل اللّه في معركة المنصورة فلم يتردّد الشيخ في أن يكون في طليعة المجاهدين للفرنجة هؤلاء الذين قدموا كالسيل العرم للقضاء على الإسلام في معركة حاسمة فاصلة.

فأبت عليه همتّه إلا أن يحضر إلى المنصورة ليحرض الجند، والسلطان على القتال حينما تملّك الرعب قلوب الأهلين، بعدما استولى الفرنجة على ثغر دمياط.

ولقد كان لهذا الوقفة أثرها المحمود في إذكاء الروح الدينية لدى مريديه وعامة الناس، وفي هذه الموقعة التي كانت سنة 648 هـ، وقف الشيخ محرّضا على القتال مبشّرا بالنصر، حتى فاضت هاته الثّقة على كل من حوله من المجاهدين،إلى إن انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للكافرين، ونصر مؤزر للمؤمنين وتشير المصادر أنه أسر أكثر من عشرين ألف جندي وقتل حوالي سبعة آلاف(3).

وهكذا كان لموقف أبي الحسن الشاذلي أثره العميق، وعاقبته الطيّبة في نفوس الجند ، ومن ثم ندرك أن أبا الحسن الشاذلي شخص فعّال في دنيا الناس، لاماضغ أقوال شأن الأكثرين من علماء الدين في هذا الزمان.

---

1 - من ذاك سعاية ابن البراء به إلى السلطان أبي زكريا والملك الكامل الأيوبي كما تقدم سابقا.

2 - بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذلية، بيروت : دار المشرق، 1986. ص 159.

3 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 117.

3 - زهده في الدّنيا :

أما الأمر الثالث الذي ظهر فيه إخلاصه، هو زهده في الدّنيا، وفيما عند الناس، فلم يطلب منصبا، ولم ينازع أحدا في رئاسة لذلك أحبّه النّاس.

ويروى أن رجلا قال لأبي الحسن : بم فقت الناس، ولم أرلك كثير عمل؟ فقال له الشيخ : بواحدة افترضها الله على رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- وهي الإعراض عنكم، وعن دنياكم قال تعالى : « فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* »(1)

ومصداق ذلك قوله - صلّى الله عليه وسلّم - : « أزهد في الدنيا يحبّك الله زهد فيما أيدي النّاس يحبّوك» (2)

ويظهر لنا موقف الشاذلي من الدنيا بوضوح في هذا الدعاء، يقول :

اللّهم إن الدّنيا حقيرة، حقير مافيها، وإن الآخرة كريمة كريم مافيها، وأنت الذي حقّرت الحقير، وكرّمت الكريم، فكيف يكون كريما من طلب غيرك؟ أم كيف يكون زاهدا من اختار لدنياه معك؟ فحقّقني بحقائق الزهد حتى استغنى عن طلب غيرك، وبمعرفتك حتّى لاأحتاج إلى طلبك (3)

---

*- النّجم، آية : 29.

1 - محمد المدني، الأنوار القدسيّة في تنزيه طرق القوم العليّة،ط 3 ، استانبول : مطبعة الصنائع،1883م، ص 123.

2 - أخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، وقال النووي عقب هذا الحديث رواه ابن ماجة بأسانيد حسنة أنظر : سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت : دار الفكر، [د. ت]، ج2، ص 1373، 1374.

3 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن ،ص246 .

و في دعاء آخر يقول : «**اللّهم اجعلها في أيدينا، ولاتجعلها في قلوبنا ، اللّهم وسّع علي رزقي في دنياي، ولاتحجبني به عن أخراي**»(1)

وكان يقول أيضا:« **من علامة خروج الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجدان الراحة منها عند الفقد**» (2) ولهذا نجده كثير السخاء والصدقة، كثير البذل والإيثار، وماذاك إلا لصدق اخلاصه مع ربّه، ومابذله للدنيا، وإيثاره للآخرة إلا برهانا على صدق الإخلاص. وإن إخلاصه ليصل إلى الذروة حينما يقول : «**لاتركن إلى علم ولامدد، وكن باللّه ،واحذر أن تنشر علمك ليصدقك الناس، وانشر علمك ليصدّقك اللّه تعالى**» (3).

وإنها لكلمات توضح لنا مدى ماتنوّر به قلب أبي الحسن الشاذلي من إخلاص عميق للّه تعالى، ولدينه الحنيف.

4 - تذوقه للعبادة

أمّا المظهر الرابع الذي نستطيع أن نقدر فيه اخلاصه للّه،وإنابته له، فهو كثرة انهماكه في العبادات، وتفانيّه فيها، مع ذوق حقيقي ،وخاص لمقام العبوديّة، وأحزابه ،وأدعيته ،واستغاثاته شهادة جليّة على أن قلبه عامر بالاخلاص، واليقين، وحياته. وماأثر عنه من أقوال،تشهد بأنّه كان من عباد اللّه المخلصين الصادقين، فقد كان رحمه اللّه يقول : «**إذا ترك العارف الذكر نفسا أو نفسين عوقب بالبين**» (4)

وماهذه الثروة التي بين أيدينا من أدعية، وأحزاب، إلا مظاهر عن صدق توجهه إلى اللّه، وإنابته له، كما أنّها أدلة قويّة تبين حرارة عاطفته، ولوعة وجدانه، وصدق إيمانه، ومن يقرأ أحزابه يشعر بهذه المعانّي التي ذكرناها، وهاهو يناجي ربّه بقلبه الواجف فيقول :

اللّهم إنا نسألك لسانا رطبا بذكرك، وقلبا منعما بشكرك، وبدنا لينا بطاعتك.....اللّهم إنا نسألك التوبة الكاملة، والمغفرة الشاملة. والمحبّة الكاملة الجامعة، والخلة الصافية، والمعرفة الواسعة،والأنوار الساطعة.(5)

---

1 -نقلا عن: ابن عبّاد الرندي، غيث المواهب العليّة، تحقيق عبد الحليم محمود، ط1، القاهرة : دار الكتب الحديثة،1970م ج، 1، ص 156.

2 - نقلا عن: محمد المدني ، الانوار القدسية ص126 .

3 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 7.

4 - نفس المرجع والصفحة.

5- نقلا عن : أحمد حامد عبد الكريم، الأسرار العلّية، ص 10؛ 11.

3 - قوة الفراسة :

آتى الله أبا الحسن الشاذلي حظا من قوة الفراسة، ونفاذ البصيرة، مكّنته من أن ينظر في بواطن الأمور فيدركها، وإلى دخائل النفوس فيكتنهها، فكان الألمعي الذي يظن الظّن كأنه قد رأى وقد سمع. والفراسة الصادقة ضرب من الإدراك الروحي يؤتيه الله لعباده المتقين، كرامة يكرمهم بها دون سائر المؤمنين، بخاصة طائفة منهم تولت النيابة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في التربية وتزكية النفوس وتهذيبها.

وتحكى لأبي الحسن حكايات عجيبة لهذه البصيرة التي رزقها ذكر ابن عطاء الله السكندري ،طائفة منها في كتابه «لطائف المنن» نورد منها نقله عن أبي العباس المرسي قوله :

> صليت خلف الشيخ صلاة الصبح، فقرأ بحم عسق، فلما انتهى إلى قوله يهب لمن يشاء إناثا فخطر لي أنها الحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور، فخطر لي أنها العلوم، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، علوما وحسنات ، ويجعل من يشاء عقيما، لاعلم ولاحسنة فلّما سلّم الشيخ من الصلاة استدعاني، وقال لقد وجدت فهمك في الصلاة يهب لمن يشاء إناثا ،علوما وحسنات، ويجعل، من يشاء عقيما ،لاعلم ولاحسنة، فتعجبت من اطلاع الشيخ على ذلك فقال : أتعجب من اطلاعي على فهمك في الصلاة، قد فهم فلان كذا، وفهم فلان كذا، حتّى عد أفهام الجماعة الذين خلفه...!!! » (1)

والفراسة الصادقة شعبة من الكرامات، وقد جاء في الحديث الشريف قوله - صلّى الله عليه وسلّم : «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» (2)

وفراسات الصحابة ،ووقائعهم أشهر من أن تذكر، والواقع أنّ أهل السنّة اتفقوا على أن كرامات الأولياء حق، وقد أشبع القول فيها الأستاذ أبو القاسم القشيري وأفرد لها بابا في «رسالته»(3) فلينظر هناك.

---

1 - ابن عطاء الله السّكندري، لطائف المنن، ص 161، 162.

2 - أخرجه الترمذي في : 44 أبواب تفسير القرآن، 15 تفسير سورة الحجر الحديث رقم 5133. وقال الترمذي حديث غريب أنظر : سنن الترمذي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، بيروت : دار الفكر العربي 1983م، ج4، ص 360، 361.

3 - القشيري، الرسالة البيّانية، بيروت : دار الكتاب العربي، ص 105.

والحقيقة التي لا مرّاء فيها أنّ الله قد يكرم كثيرا من عباده الصادقين بهذه النعمة ، فتظهر على أيديهم، وألسنتهم وقائع لتأييدهم في أنفسهم، أو لتعريف الناس بصحة طريقتهم.

ولقد شهد تلاميذ الشاذلي منه هذه الوقائع، ذكر النبهاني منهاطرفا في كتابه «جامع كرامات الأولياء» (1)، ومع ذلك فإن أبا الحسن وأعلام مدرسته لم يكونوا يحفلون بها ، ويذكر أن الشاذلي كان يقول :

«ماثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان، ومتابعة السنّة، فمن أعطيهما، وجعل يتشوف إلى غيرها، فهو عبد مفتر كذاب أوذو خطأ في العلم، والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فاشتاق إلى سياسة الدواب» (2)

بل إننا نجد ابن عطاء الله لايجعل الكرامات عنوانا على الولاية، ولاحتّى على الاستقامة فهو يقول في أحد حكمه : «ربما تكون الكرامة لمن لم تكمل له الإستقامة». (3)

4 - الهيبة :

كان أبو الحسن الشاذلي مهيب الشخصيّة، والهيبة الشخصيّة صفة ضروريّة لمن يتصدون لتربية الجماهير، وإنّ أدلّ شيء على هيبته هو جلوس أكابر علماء عصره في مجالس وعظه، كالعز بن عبد السلام، ومكين الدين الأسمر، وأبي عبد الله الشاطبي، والعلم ياسين معترفين بفضله خاضعين لقوله.

ولقد أكسبت هاته الخصلة أبا الحسن الشاذلي، وقارا في عيون أتباعه، ومشاهديه، فكان لايراه أحد إلا وأحسّ بوقعه في نفسه، لذلك كان تأثيره على أتباعه قويا ،فكانوا إذا جلسوا بين يديه جلسوا مشدوهين، كأنّ على رؤوسهم الطير من فرط الإعجاب به والحبّ له. أما كلامه فهو ينفذ إلى قرارات نفوسهم، وأعماق أفئدتهم، كما تنفذ الكهرباء في الأسلاك، فيحدث فيها أثرا دون سلطان قاهر، وماذاك إلا لقوة شخصه، وصدق اخلاصه. يقول تلميذه أبو العزائم وهو يصف

---

1 - راجع : يوسف النبهاني، **جامع كرامات الأولياء**، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، ط2، القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر 1974م، ج2، ص 341، 343.

2 - نقلا عن: عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى. ج2، ص 6.

3 - بولس نويا ،ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 157.

تأثيره على مريديه:« كانت تهواه النّفوس، وتعشقه العيون لسرّ أودعه اللّه في ذاته، يجلب القلوب بتواضعه، ويسترق الأحرار بمكارمه» (1)

والواقع أن هذه الهيبة التي أوتيها الشّاذلي كانت أحد عوامل نجاحه في دعوته، إذ أنّ أخص خصيصة ينبغي أن تتوفّر فيمن يتولون تربية الجماهير، وتزكية نفوسها أن يكون فيهم هذا السّر الذي أوتيه أبو الحسن الشاذلي حتى يسيّروا به النّاس طائعين مشدوهين خلفهم، فيركبون لأجل ذلك معهم الصّعب والذلول.

5 - الاعتدال :

ومن أبرز مظاهر شخصيّة الشاذلي اعتدالها وتوازنها إذ كان - رحمه اللّه- لايتحرّج من أكل الطيّبات، ولبس الحسن من الثياب، وركب الفاره من الدواب على غير عادة معظم الصوفية. وتذكر لنا المصادر أن فقيرا دخل عليه مرة وعليه لباس من شعر، فلما فرغ الشاذلي من كلامه دنا منه، وأمسك بملبسه الجميل وقال له :

ياسيّدي ماعبد اللّه بمثل هذا اللّباس الذي عليك، فأمسك الشيخ ملبسه، فوجد فيه خشونة فقال ولاعبد اللّه يمثل هذا اللّباس الذي عليك، لباسي يقول : أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول أنا فقير إليكم فأعطوني» (2)

وماذلك إلا لأنّ الشاذلي مدرك بأنّ التوجه إلى اللّه ليست له معالم في الملابس والمطاعم، وإنما معالمها في اتباع السنّة ومجانبة البدعة، وحتىّ يؤكد الشاذلي هذا المعنى في نفوس أتباعه، نهى أبّا العبّاس المرسي الذي شاوره في أكل الخشن، ولبس الخشن فقال له : **«يا أبا العباس، أعرف اللّه وكن كيف شئت» (3)**

ذلك لأن التصوف الحق لايتعارض مع التنّعم بطيبات الحياة الدنيا، وبخاصة إذا رافقه الشكر، وهو مايوضحه ابن عطاء اللّه السكندري في قوله : «وأما لبس اللّباس اللّين، وأكل الطعام الشهي،وشرب الماء البارد، فليس القصد إليه بالذي يوجب العتب من اللّه، إذا كان معه الشكر(4).

ولاشك أن هذا الموقف يكشف عن فهم عميق لروح الشريعة، ومقاصدها

---

1 - نقلا عن : محمد بوذينة، **أبو الحسن الشاذلي**، ط1، تونس ك دار التركي للنشر 1989م، ص 43.

2 - نقلا عن : ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 201.

3 - نفس المرجع، ص 200.

4 - نفس المرجع، ص 201.

العامة، والتصوف بصفة خاصة، إذ ليس التصوف كما يقول الشاذلي «**بالرهبانيّة ، ولابأكل الشّعير، والنّخالة، وإنّما هو بالصّبر على الأوامر، واليقين في الهداية .[وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ]*** »(1)

6 - صفات أخرى :

وإلى جانب هذه الصفات الأساسيّة التي تكوّن شخصيّة الشاذلي ،فإننا نجد صفات أخرى أوردها المترجمون له، يزيد استجلاؤها في توضيح الصورة الكاملة لشخصيّته، وصفاته الخلقيّة والنفسيّة، فلقد كان مع جلالة قدره، وعلو منزلته، يسعى في قضاء حوائج النّاس، ويبذل جهده للتخفيف من المصائب والكوارث التي تنزل بهم، فكان لأجل ذلك كثيرا مايتردد على الأمراء، والقضاة شافعا ومدافعا حتىّ يوصل للناس ما لايستطيعون توصيله لأنفسهم.

ولقد روى« ابن عطاء اللّه السكندري »أنّ فقيها من طلاب العلم، قصد الشيخ مرّة يستشفع به لدى القاضي« تاج بن بنت الأعز »كي يزيد في راتبه «فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضي تاج الدين مجيئه إليه، وقال له : فيم جئت فقال من أجل فلان الطالب لتزيده في مرتبه عشرة دراهم»(2)، فحاول القاضي أن يعتذر، وأراد أن يقنع الشيخ بأنّ هذا الطالب له مرتبات أخرى في جهات متعددة، لكن الشيخ لم يقتنع بهذا الجواب وقال للقاضي تاج الدين : « **ياتاج الدين لاتستكثر على مؤمن عشرة دراهم، تزيده إياها فإنّ اللّه تعالى لم يقنع بالجنّة للمؤمن من جزاء حتّى زاده النّظر إلى وجهه الكريم فيها** »(3)، وبسبب كثرة ترداد الشيخ في الشفاعات «جهل ولاة الأمور قدره»(4) على حد تعبير« تقي الدين القشيري، » وإنّه لخلق «لايقوى عليه إلا عبد متخلّق بخلق اللّه قد بذل نفسه، وأذلّها في مرضاة اللّه، وعلم وسيع رحمة اللّه، فعامل بالرحمة عباد اللّه» (5).

ومن صفاته الخلقيّة أنه كان رجلا «**آدم اللون، نحيف الجسم، طويل القامة، خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين، كأنه حجازي، فصيح اللّسان، بليغ المعاني، حلو الكلام، بشوش الوجه لاتمل محادثته**» (6)

---

* - السجدة، آية : 24.
1 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 88.
2 - ابن عطاء اللّه، لطائف المنن، ص 88.
3 - نفس المرجع، ص 89.
4 - نفس المرجع، ص 227.
5 - نفس المرجع والصفحة.
6 - ابن الصباغ، درّة الأسرار، ص 136.

وهكذا كانت شخصية أبي الحسن الشاذلي الفذّة وراء عظمته وخلوده، وسر نجاحه في دعوته، مع ما انضاف إليها من رصيد التجربة، فأكسب كل ذلك أبا الحسن الشاذلي عمقا في النظرة، وبعدا في الهمّة ومضاء في العزيمة، بوأته المكانة التي يستحقها في تاريخ أمتنا الإسلاميّة

ثانيا - آثار الشاذلي :

على الرغم من أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي كان واسع العلم والمعرفة، تدل على ذلك أقواله وأحزابه، وحضور كبار علماء عصره مجالس وعظه، إلا أنه لم يخلف كتبا وكل ماوصلنا من آثاره العلميّة هو مجموعة من الأقوال، والحكم، والوصايا، والأدعية، اعتقادا من الشيخ بأن تربية الرجال أولى من تأليف الكتب، وبخاصة علم التصوف الذي هو أقرب إلى التجارب الشخصيّة، والمعارف الذوقيّة منه إلى العلوم المكتسبة، لذلك لجأ الكثير من المتصوفة إلى الرمز والإشارة للتعبير عن مقاصدهم، وحالاتهم الوجدانيّة التي لايحاول معبّر أن يعبرّ عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لايمكنه الإحتراز عنه» (1) عل حد تعبير الغزالي، الذي كان كثيرا مايتمثل بقول الشاعر :

وكان ماكان، مما لست أذكره ** فظن خيرا ولاتسأل عن الخبر.

ويذكر ابن عطاء اللّه السكندري أن أحد أتباع الشيخ سأله مرّة فقال له : «لم لاتضع الكتب للدلالة على علوم القوم؟ فأجابه الشيخ : كتبي أصحابي»(2) والمأثور من إنتاجه الفكري عبارة عن حكم، وأدعية، وأحزاب، ووصايا، ورسائل لمريديه. وينبغي أن نشير في هذا المقام أنّ بعضا من أحزابه قد ترجم إلى عدّة لغات أجنبيّة : كالأنجليزيّة، والفرنسيّة، والفارسيّة، والهندستانيّة، ولغة التاميل وغير ذلك من اللّغات الشرقية، والغربية وقد طبعت هذه الأحزاب العشرات من المرّات في كل من تونس، والمغرب، ومصر، والهند، وتركيا.(3)

ولاتزال هاته الأحزاب الى الآن مصدر إلهام،ونورًا للمسترشدين،كما لايزال في العالم الإسلامي جماعات تعقد حلقات أسبوعية تخصصها لقراءة هذه الأحزاب.

وقد أقبل الجلّة من العلماء على شرح بعض منها منهم: مجدد القرن الثاني

---

1 - أبو حامد الغزالي،المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود، ط2، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1985، ص 127. 128.

2 - ابن عطاء اللّه، لطائف المنن، ص 5.

3 - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص 208 - 209.

عشر الهجري وحكيم الإسلام «أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي» صاحب «حجة اللّه البالغة»، والشيخ «مرتضى الزبيدي»، صاحب القاموس العظيم «تاج العروس»، والشيخ «داود بن باخلا» خليفة ابن عطاء اللّه السكندري الأجل، والعلامة الكبير «أحمد زرّوق»، و«علي بن سلطان محمد الهروي القاري»، والشيخ «محمد خليل القاوقجي» شيخ «رشيد رضا»، و «حسن العدوي المالكي»، و «أبو زيد بن عبد الرحمن الفاسي» وغيرهم.

1 - ثبت آثاره :

1 .1 - حزب البحر(1) :

وأول هذا الحزب «بسم اللّه الرحمن الرحيم. ياعلي، ياعظيم، ياحليم، ياعليم أنت ربّي، وعلمك حسبي، فنعم الرب ربّي ونعم الحسب حسبي، تنصر من تشآء و نت العزيز الرحيم، نسألك العصمة في الحركات، والسكنات، والكلمات، والإرادات، والخطرات من الشكوك، والظنون، والأوهام الساترة للقلوب من مطالعة الغيوب...»(2) إلخ. وهو حزب جليل الشأن وتشير المصادر أن الشيخ عند وفاته أوصى مريديه به، وأمرهم بأن يحفظوه أولادهم (3) ويذكر ابن الصباغ(4) نقلا عن أبي العزائم ماضي أن الشيخ أخبرهم بأن فيه اسم اللّه الأعظم.

لذلك أقبل على شرحه كثير من العلماء منهم الإمام الدهلوي في كتاب سماه « هوامع على حزب البحر»(5) بالفارسية، والشيخ «خليل القاوقجي» في «خلاصة الزهر بشرح حزب البحر»(6) وطبع سنة 1305 هـ. كما شرحه الشيخ« أحمد زروق»(7) ويقرأ هذا الحزب في التقاليد الشاذليّة بعد صلاة العصر (8).

---

1 - ابو الحسن الشاذلي، حزب البحر، مخطوط بالمكتبة الوطنية:الجزائر تحت رقم 2039.

2 - ابن الصباغ، درة الأسرار،ص 51.

3 - نفس المرجع، ص 135.

4 -نفس المرجع، ص 51.

5- أبو الحسن الندوي، الإمام الدهلوي. ط1، الكويت : دار القلم 1985م ص 311.

6 - سركيس، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة ، طبع في لبنان، 1919م ،ج2،ص1490.

7 - أحمد زروق ،شرح حزب البحر، مخطوط بالمكتبة الوطنية ، الجزائر : تحت رقم، 2307

8 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 195.

1-2 - الحزب الكبير (1):

وأول هذا الحزب «أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، بسم اللّه الرحمن الرحيم، وصلّى اللّه على سيدنا محمد ،[إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ*..] » (2)

ولقد نال هذا الحزب شهرة عظيمة لاتقل عن شهرة حزب البحر، كما نال تقديرا بالغا من طرف الجلّة من كبار العلماء لذلك أقبلوا عليه بالشرح والتفسير ومن شروحهم على الحزب الكبير نذكر :

-« تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير » للعلامة مرتضى الزبيدي صاحب الموسوعات العلميّة كـ« تاج العروس من شرح جواهر القاموس» و «إتحاف السّادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين».

- «البدر المنير في شرح الحزب الكبير» للعلامة « أبي الحسن القاوقجي».
- شرح الحزب الكبير « لعبد النور العمراني».
- شرح الحزب الكبير «للبناني».
- شرح الحزب الكبير للعلامة « أبي زيد عبد الرحمن الفاسي».
- تنوير الصدر بشرح حزب البر « عمر الشبراوي».
- مفاتيح الغيب والنصر بشرح البّر والبحر للعلامة «أحمد زروق»(3).

ويروى أنّ أبا الحسن الشاذلي قال منوها بهذا الحزب :«من قرأ حزبنا فله مالنا وعليه ماعلينا » (4) ،ويقرأ هذا الحزب في التقاليد الشاذليّة بعد صلاة الصبح.(5)

---

1 - ويعرف أيضا بحز ب البر الّذي يبدأه الناس عادة بالآية الكريمة «وإذا جاءك الذين لايؤمنون بآيتاتنا فقل سلام عليكم...» ويفرقون بينه وبين حزب الآيات حيث يجعلونهما حزبين مستقلين عن بعضهما إلا أن ابن الصباغ جعلهما حزبا واحدا ودعاه بالحزب الكبير. وتوفيقا لهذه الآراء ذهب ابن عيّاد مستندا في ذلك إلى روايات عن الشاذلي أنه كان يقرأ حزب الآيات كمقدمة للحزب الكبير إذا اتسع له الوقت وإلا قرأه مجردا : أنظر : ابن عيّاد، المفاخر العليّة، ص 211.

* - التوبة ، آية:111.

2 - ابن الصبّاغ ، درّة الأسرار، ص 41 - 50.

3 - علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 22.

4 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 191.

5 - نفس المرجع، ص 205.

3.1 - حزب أبي الحسن الشاذلي (1) :

وأول هذا الحزب « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ...](2) ، [اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ،لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ](3) اللّهم إنا نسألك صحبة الخوف وغلبة الشوق وثبات العلم ودوام الفكر. ».

4.1 - حزب النور (4) :

وأول هذا الحزب« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، صلّي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ،[قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ .] (5) ».

5.1 - حزب النصر (6) :

وأول هذا الحزب « بسم الله الرحمن الرحيم، اللّهم بسطوة جبروت قهرك وسرعة إغاثة نصرك ،وبغيرتك لانتهاك حرماتك ،وبحمايتك لمن احتمى بآياتك نسألك يا الله ياقريب ياسميع يامجيب... ».

6.1 - حزب الفتح (7) :

وأول هذا الحزب « بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اللّهم إنا نسألك إيمانا لاضد له، ونسألك توحيدا لايقابله شرك، وطاعة لايقابلها معصية بعد التنزيه من النقائص والأدناس. »

7.1 - حزب اللطيف (8) :

وأول هذا الحزب « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*..... ».

---

1 -أورده ابن عطاء الله ولم يسم له اسما، أنظر كتابه: لطائف المنن، ص 260- 266.

2 - الفاتحة، الآيات : 1، 2، 3، 4.

3 - البقرة، الآية : 255 .

4 - ويسمى أيضا حزب الحمد، أنظر: ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 53.

5 - الاخلاص ، الآيتان :1، 2.

6 - أحمد حامد عبد الكريم الشريف، الأسرار العلية ص 17- 18.

7 - ويسمى أيضا بحزب الأنوار، أنظر: ابن عيّاد، المفاخر العلية. ص 214، 216.

8 - ابن الصبّاغ، درة الأسرار، ص 219 - 221.

*- الفاتحة، الآيتان :1،2 .

اللّهم اجعل أفضل الصلوات ،وأنمى البركات في كل الأوقات، على سيّدنا محمد أكمل أهل الأرض والسموات، وسلم عليه ياربنا أزكى التحيات في جميع الحضرات.

8.1 - حزب الإخفاء (1) :

وأول هذا الحزب « بسم اللّه الرحمن الرحيم، احتجبت بنور اللّه الدائم الكامل، وتحصنت بحصن اللّه القوي الشامل، ورميت من بغى علي بسهم اللّه ،وسيفه القاتل... »

9.1 حزب الطمس (2) :

وأول هذا الحزب «بسم اللّه الرحمن الرحيم، لاإله إلا اللّه السميع القريب المجيب، تجيب دعوة الداعي إذا دعاك، وتجيب المضطر وتكشف السوء... »

10.1 - حزب الكفاية (3) :

وأول هذا الحزب «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،هُوَاللَّهُالَّذِي لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ» (4) ... اللّهم لاإله إلا أنت عليك توكلت ،وأنت رب العرش العظيم ... »

11. 1 - حزب الشكوى (5) :

وأول هذا الحزب «الحمد للّه رب العالمين، حمدا كثيرا مباركا كما يحب ربنا ويرضى، السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته... »

12. 1 - حزب الفلاح (6) :

وأول هذا الحزب « بسم اللّه الرحمن الرحيم « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا(7) ... إلى آخر السورة؛ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ(8).. »

---

1 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 221 - 222.

2 - نفس المرجع، ص 222، 224.

3 -نفس المرجع، ص 228، 229.

4 - الحشر آية: 23.

5 - ابن عيّاد الشافعي، المرجع السابق، ص 230، 235.

6 - نفس المرجع، ص 235.

7 - الإسراء، آية : 111.

8 - الأعراف ، آية : 43.

1. 13 - حزب الدائرة (1) :

وأول هذا الحزب «بسم اللّه الرحمن الرحيم، ولاحول ولاقوة إلا باللّه العلي العظيم ،بك منك إليك استغفرك وأتوب إليك فاغفرلي وتب عليّ....».

1. 14 - حزب التوسل(2) :

وأول هذا الحزب «بسم اللّه الرحمن الرحيم.. اللّهم أنى أتوسل بك إليك، اللّهم إني أقسم بك عليك، اللهم كما كنت دليلي عليك فكن شفيعي إليك، اللّهم إن حسناتي من عطائك، وسيئاتي من قضائك...»

15.1 - حزب الحفيظة (3) :

وأول هذا الحزب «بسم اللّه الرحمن الرحيم، بسم اللّه المهيمن العزيز أجل كل شيء وهو ناصري...» .

16.1 - الحزب المخفي (4) :

وأول هذا الحزب «بسم اللّه الرحمن الرحيم، اللهم اجعلنا تحت جناح لطفك واجعل لنا الأرض مائدة وكل ماعليها رفيقا ومحبا ومسخرا...».

17.1 - دعاء له (5) :

وهو دعاء طويل أورده ابن عطاء اللّه السكندري، أوله :«ياالله يافتاح ياعليم ياكريم، إفتح قلبي بنورك، وارحمني بطاعتك، واحجبني عن معصيتك، وأمنن عليّ بمعرفتك، وأغنني بقدرتك عن قدرتي وبعلمك عن علمي...

اللّهم إن الدنيا حقيرة، حقير مافيها وأن الآخرة كريمة كريم مافيها ،وأنت الذي حقرت الحقير، وكرمت الكريم، فأنىّ يكون كريما من طلب غيرك ،أم كيف يكون زاهدا من اختار لدنياه غيرك، فحققني بحقائق الزهد حتى استغنى بك عن طلب غيرك، وبمعرفتك حتى لااحتاج إلى طلبك..».

---

1 - ابن عبّاد، المفاخر العليّة، ص 236، 237.

2 - نفس المرجع، 237- 238.

3 - أحمد حامد عبد الكريم الشريف، الأسرار العليّة. ص 34، 35.

4 - نفس المرجع، ص 47.

5 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 267 - 268.

1. 18 - وصية أولها :

«أرجو الله أن يمدكم في سفركم بالتيسير في أرزاقكم، وبالصحة في أبدانكم، وبالعزّ بين أمثالكم، وبالمغفرة لذنوبكم...» (1)

1.19 - وصّية طويلة جدا :

أوردها الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى» وأولها : «كن متمسكا بهذه الصفات الحميدة تفز بسعادة الدّارين، لاتتخذ من الكافرين وليّا، ولامن المؤمنين عدوا، وارتحل بزاد من التقوى في الدنيا، وعد نفسك من الموتى واشهد لله بالوحدانية ،ولرسوله بالرسالة ،وحسبك عمل صالح وإن قلّ...» (2)

1. 20- مجموعة حكم :

وأوردها عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الطبقات الكبرى» (3) حيث جمعها من مؤلفات ابن عطاء الله السكندري،وبخاصة كتابه«لطائف المنن»، ومن المعروف أن ابن عطاء الله هو الذي حفظ لنا تراث الشاذلي وخليفته الأجل المرسي من الضياع.

2 - مصنفات منحولة :

وفي الأخير نحب أن نشير إلى أن الشاذلي نسبت إليه طائفة من الكتب شأن غيره من كبار المؤلفين كالغزالي، والسّيوطي، وآخرين غيرهم، ونحن نعتقد أن هاته الكتب التي أضيفت له منحولة إذ قد ثبت من أقوال ثقات المؤرخين أن الشاذلي لم يؤلف كتبا ،ويذكرابن عطاء الله السكندري أن سائلا سأل أبا الحسن الشاذلي وقال له : لِمَ لا تضع كتبا للدلالة على علوم القوم؟ فأجابه الشيخ : كتبي أصحابي.(4)

والأمر الثاني الذي لايجعلنا نصدق بنسبة هذه الكتب إليه أننا لم نجد أحدا من المقّربين له ذكرها ،إذلو كانت للشيخ مؤلفات لذكرهاابن عطاء الله السكندري تلميذ خليفته المرسي، أو ابن الصباغ الذي بذل جهودا جبّارة لجمع المتناثر من كلام الشيخ الشاذلي حيث اتصل بأصحابه، وأصحاب أصحابه، وفيما يلي بيان هذه الكتب المنحولة:

1•2 « السّر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل» (5).

---

1 - ابن عيّاد ، المفاخر العليّة، ص 130.

2 - كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، بيروت : دار إحياء كتب التراث العربي، [د، ت] . ج1، ص 34.

3 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى. ج2، ص 4.

4 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 5.

5 - خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، ص 305.

وهي رسالة صغيرة فيها تفسير لآية «حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ» (1)، وطبعت هذه الرسالة في القاهرة (طبعة حجرية) عام 1297 هـ.

2.2 -« رسالة الأمين لينجذب لربّ العالمين» ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في كتابيه « هديّة العارفين» (2) وإيضاح المكنون»(3).

3.2 - كتاب «الإختصاص من الفوائد القرآنية والخواص»ذكره إسماعيل باشا في كتابه «هديّة العارفين»(4).

4.2 -« رسالة التسلّي والتصبّر على ماقضاه الإله من أحكام أهل التجبّر والتكبّر» ذكرها إسماعيل باشا في كتابه « هدية العارفين» (5)

5.2 - «عمدة السالك على مذهب الإمام مالك» في فقه العبادات ،ذكره عمر فروخ في كتابه «تاريخ الأدب العربي» (6) والواقع أن هذا الكتاب لمؤلف في القرن العاشر.

6.2 -« المقدمة العزيّة للجماعة الأزهرية» وهو مختصر للكتاب السّابق، ذكره عمر فروخ في كتابه «تاريخ الأدب العربي» (7).

7.2 - كتاب «الإخوة» ذكره عمر فروخ في كتابه «تاريخ الأدب العربي»(8).

8.2 - ديوان شعر :

ذكره عمر فروخ في كتابه «تاريخ الأدب العربي»(9)، كما أضاف إليه تخميس لرائية أبي مدين الشهيرة إلا أن المراجع تثبت أنّ هذا التخميس للشيخ «محيي الدين بن عربي»(10)

---

1 -آل عمران، آية 173.

2 - إسماعيل باشا، **هدية العارفين**، ط1، إستانبول : 1951م، ج1، ص 709، 710.

3 - إسماعيل باشا، **إيضاح المكنون**، ط3، طهران : المكتب الجعفري 1947م، ج2، ص 559.

4- إسماعيل باشا، المرجع السابق، ج1، ص 709، 710.

5 - نفس المرجع والصفحة.

6 - د، عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص 206.

7 - نفس المرجع والصفحة.

8 - نفس المرجع والصفحة.

9 - نفس المرجع والصفحة.

10 - أنظر : د عبد الحليم محمود، **شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث**، بيروت، منشورات المكتبة العصريّة، [د، ت]، ص 100.

3 - خصائص هذه الآثار :

إن مالدينا من آثار أبي الحسن الشاذلي، لايبرز لنا شخصيّته العلميّة على حقيقتها، وذلك يرجع أساسا أن أغلب هذه الآثار إنما هي أدعية ،وأحزاب ألفها أبو الحسن للدعاء بها، أو أقوال قالها بحسب أحوال المريدين، ومايجدّ في حياتهم التصوفية.

فأبو الحسن الشاذلي لم يضع كتبا للدلالة على طريق القوم على المنهج الشائع المعروف في التأليف ، كما نجده عند« محيي الدين بن عربي» صاحب المؤلفات الضخمة في بيان حقيقة التصوف بحيث تمكننا تلك المؤلفات من التعرف على مبلغ علمه، وعرفانه بسهولة ويسر، وإنما الذي ثبت من أقوال ثقات المؤرخين أن أبا الحسن الشاذلي كان يتحاشى جهده تدوين هذه المعارف، والأذواق التي لاتخضع للعقل وأحكامه.

وماأثر من كلامه وأقواله فهو متناثر - في « لطائف المنن» لابن عطاء الله السكندري، و«درة الأسرار» لابن الصباغ - وعلى غير ترتيب، مما اضطرنا إلى اخراج أفكاره في وحدات موضوعيّة، وذلك بتتبع أجزاء الفكرة من هذا المتناثر، ثم التعمق في تحليل بنيتها ، والمقارنة بينها وبين أفكار غيره من السّابقين عليه ممن يظن أنه وقف على آرائهم كالحكيم الترمذي، والقشيري، والغزالي حتى نزيد تلك الأفكار وضوحا وجلاء.

أما أسلوب الشاذلي في أحزابه، فهو واضح وخال من الغموض الذي تحفل به كتب كثير من المتصّوفة، كابن عربي، وابن سبعين ، وما أثر من أقواله يدل على أنه أديب من الطراز العالي، ذو أسلوب رائع، وإن كلامه ليبلغ الذروة في استغاثاته وبخاصة « حزب البّر» إذ هو«قطعة أدبيّة تحفل بالخيال الراقي، والفكر الخصيب، كما يمتاز بروحانية سامية تصل قلب قارئه بالنور الإلهي، وتسمو به إلى ملكوت السموات »(1).

ومن يقرأ أدعيته وأوراده يشعر بأنه أمام رجل بليغ لايكتفي بزخرفة اللفظ، وإنما يفتن افتنانا شائقا في زخرف المعاني. على طريقة الفحول الذين يلقونك في الاودية العقليّة، فيجعلون منها مفاتن تفوق الزخارف اللفظيّة، وذلك كلّه يجري بأسلوب سمح لاتكلّف فيه ولا انفعال(2) على حدّ تعبير الدكتور زكي مبارك

---

1 - محمد الجيوشي، **بين التصوف والأدب**، ط1، القاهرة، المكتبة الأنجلومصرية ،[د، ت]، ص 103.

2 - زكي مبارك، **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق**، بيروت : منشورات المكتبة العصريّة، [د، ت]، ج1، ص 127.

وإذا كان الوضوح هو خاصية شخصية الشاذلي في أفكاره، إلا أن الباحث يجد في بعض المواطن عبارات له موهمة، - وإن كانت قليلة - تجعل الباحث ينزع إلى تأويلها على الرغم من أن هذا المسلك تحفه محاذير ومخاطر.

هذه العبارات الغامضة كانت سببا وراء خلاف ابن تيمية مع الشاذلي قديما، وهو خلاف أثار جدلا عنيفا في البيئة الإسلامية انتهى إلى خصومة بين حمد بن تيمية، وأحمد بن حجر الهيثمي المكي دفعت عالم العراق الشهير السيد نعمان خير بن الألوسي إلى أن يؤلف كتابا أسماه «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»(1)

وهكذا نرى مما تقدم اختلاف آراء العلماء في تقدير مكانة أبي الحسن الشاذلي في تاريخ حياتنا الروحيّة، ففريق يرى بأنه كان إماما عارفا جامعا للفضائل، بل يثبت له «القطبانية» العظمى بالمعنى المتعارف به عند الصوفية، وفريق آخر يرى بأنه شخص لايعظم الأحكام الشرعية، وأقواله مفضية إلى تعطيل الأمر والنهي الأمر الذي يدعو الباحث إلى شدة التمحيص في سيرته وأقواله، وتتبع آراء العلماء فيه حتى يصل إلى تقدير حقيقي لمكانة أبي الحسن الشاذلي.

ثالثا : مكانة الشاذلي عند خصومه وأنصاره :

1 - الشاذلي عند مخالفيه :

كان للشاذلي في حياته وبعد مماته خصوم، منهم قاضي الجماعة بتونس «أبو القاسم بن البرّاء» الذي وشى به إلى السلطان «أبي زكريا الحفصي»، ويبدو أن خصومة ابن البراء كانت شديدة، إذ أن الشاذلي لما غادر تونس متوجها إلى مصر أرسل ابن البراء عقدا إلى حاكم مصر يتهم فيه الشيخ بأنه مشوش وكيمياوي.

ومن خصوم الشاذلي ابن تيمية - رحمّه اللّه- الذي انتقده في بعض أحزابه زاعما بأن أقواله تفضي إلى تعطيل الأمر والنهي، (2)، ولسنا هنا بصدد تفصيل الكلام على المسائل التي انتقدها ابن تيمية على الشيخ فلهذا مواضع أخرى من هذا البحث.

إلا أننا نحب أن نشير إلى أنّ ابن تيمية لم يحمل على الشيخ حملته على ابن عربي، وابن سبعين، والقونوي، وعفيف الدين التلمساني، والجربي الذين رماهم بالخروج عن الإسلام في غير ماموضع من مؤلفاته، كما لم يتهمه صراحة بأنه يقول بسقوط التكليف ولكنّه قال : بأن لوازم أقواله تفضي إلى ذلك(3)، وغير خاف لدى الفقهاء بأن لازم المذهب ليس مذهبا لصاحبه.

1-نعمان خير الدين الألوسي، **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**، القاهرة: مطبعة المدني، 1981م.

2 - أحمد بن تيمية، **الفتاوي**، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الرباط، مكتبة المعارف ، [د، ت]. ج8، ص 232.

3 - نفس المرجع والصفحة.

وثمّة خصم آخر من خصوم الشاذلي،وهو المؤرخ الكبير« شمس الدين الذهبي» الذي يقول عنه «وله عبارات في التصوف مشكلة توهم، ويتكلف له في الإعتذار عنها» (1) ومنهم أيضا المؤرخ ابن الوردي(2) الذي قال عنه :« له عبارات في التصوف مشكلة رد عليها ابن تيمية»(3)

ومما سبق يتبيّن لنا أنّ لأبي الحسن خصوم، اختلفوا معه فيما ذهب إليه من آراء، ولكنّهم في رأينا قد جانبهم الصواب فيما أصدروه عليه من أحكام إذ تجنوا على الرجل، واتهموه بما ليس منه في شيء، إذ لم يعرف عن الشيخ إنه كان ممن يستهين بالأحكام الشرعية، ولامن الذين يقولون بسقوط التكاليف، وسيرة الشيخ الشخصيّة - كما بيناها سابقا - تهدم هذا الزعم، إذ كانت حياته الخاصة والعامة مثلا أعلى في الاستقامة، كما كان شخصه موضع تقدير كبار علماء أهل زمانه «كالعز بن عبد السلام،» و«عبد العظيم المنذري،» و«مكين الدين الأسمر»، و«أبي القاسم القباري »و«بدر الدين بن جماعة »وهؤلاء ولا شك الجلّة من رجال الدين، الذين آلت إليهم الفتيا في أحكام الشرع في ذلك الوقت ، مما لاسبيل معه إلى الشك في صدق إيمانهم، أو التردد في قبول أحكامهم، ولو قدر ابن تيمية هذا كله لكان أصح إدراكا ، وأقوم رأيا ، ولما انتهى إلى ما انتهى إليه .

ومما يثبت تعظيمه للشريعة ووقوفه عند أحكامها نكتفي بإيراد هذه النصوص لنعرف إلى أيّ مدى يتماشى مذهب الشيخ مع أحكام الكتاب والسنة فهو يقول :

إذا ثقل الذكر على لسانك، وكثر اللغو من مقالك، وأنبسطت الجوارح في شهواتك، وانسد باب الفكرة في مصالحك، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك، أو لكمون إرادة النفاق في قلبك، وليس لك إلا طريق التوبة، والإصلاح، والإعتصام بالله ،والإخلاص في دين الله ألم تسمع قوله تعالى، [إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ

---

1 - شمس الدين الذهبي،العبر في أخبار من غبر،ج5 ،ص232،233.

2 -هو زين الدين عمر بن مظفر بن محمد الوردي ، قال عنه ابن الألوسي : هو من أعظم المحبين لابن تيمية له تصانيف توفي مطعونا سنة 749 هـ، أنظر في ترجمته : ابن الألوسي، جلاء العينين ،ص 51.

3 - نقلا عن :علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي. ج1، ص 28.

وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ، وَاخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} (1)

ولم يقل من المؤمنين فتأمل هذا القول إن كنت فقيها والسلام (2)

وكان رضي الله عنه يقول :

إذا عارض كشفك الكتاب والسنّة فتمسّك بالكتاب والسنّة ودع الكشف ،وقل لنفسك أن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف، ولا الإلهام(3)

وهذه كلها مسائل سنأتي إلى ذكرها عند حديثنا عن تصوف أبي الحسن الشاذلي ونكتفي بهذه الإشارات هنا.

2 - الشاذلي عند أنصاره :

على أن الشاذلي، وإن كان قد مني بهؤلاء الطاعنين ، فإننا نجد أنصارا له كثيرين معجبين به، مكبرين لشأنه، مصورين له على أنه الوارث للقطبية بالمعنى المتعارف به عند المتصوفة.

فمن الذين أعجبوا به تلميذه وخليفته «أبو العباس المرسي» الذي نوه بفضيلته في أحد رسائله لبعض أصحابه بتونس، ويكفي أن نثبت بعض ماحوته تلك الرسالة لتبيين مكانة الشاذلي في نفس المرسي فهو يقول :

«... فإني صحبت رأسا من رؤوس الصديقين، وأخذت منه سرا لايكون إلا لواحد بعد واحد، والشرح يطول وبه أفتخر وإليه أنسب - رضيّ الله عنه- وهو أبو الحسن الشاذلي وكان لايصحبه أحد إلا فتح له في يومين، أو ثلاثة فإن لم يجد شيئا بعد ثلاثة أيام فهو كذاب..» (4)

ويذكر ابن عطاء الله السّكندي أنه كان شديد التعظيم لشيخه أبي الحسن الشاذلي حتى كان لايثبت لنفسه معه شيء، وكان إذا ذكر بحضرته ينشد شعرا :

لي سادة من عزهم *** أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلى *** في ذكرهم عزو وجاه (5)

ويورد ابن عطاء الله قصة طريفة له مع شيخه المرسي تظهرنا على مقدار مكانة

---

1 - سورة النساء، آية : 146.

2 - نقلا عن :عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 5.

3 - نفس المرجع. ج2، ص4.

4 - ابن الصبّاغ، درّة الأسرار، ص 154.

5 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 145.

أبي الحسن الشاذلي في نفسه يقول ابن عطاء الله :

إستأذنت عليه - يقصد المرسي - فقيل لي اصبر قليلا فتشوشت من ذلك، وقلت قد يكون بلغ الشيخ عني ماأوجب تغيّره، فبعد ساعة أذن لي فدخلت فقال الشيخ: - رضيَ الله عنه- أعذرني كانت ابنة أبي الحسن عندي فكرهت أن أقطع كلامها والله ماأعد نفسي خادما من خدامهم(1)

ومن معاصري الشاذلي الذين اعترفوا بعلو كعبه وعظم منزلته العالم الزاهد «أبو عبد الله الشاطبي» الذي كان يترضى عن الشيخ كل يوم (2)،كما شهد له «صفي الدين منصور»، و«قطب الدين بن القسطلاني»، و«أبو عبد الله بن النعمان» الصوفي الكبير و«عبد الغفار بن نوح» بسمو المرتبة وأثنوا عليه الثناء الجميل وقد عرفنا هذا مما يقوله ابن عطاء الله السكندري.(3) وكان الشيخ تقي الدين محمد بن القشيري يقول : «مارأيت أعرف بالله من الشيخ الشاذلي» (4) ويذكر أن العز بن عبد السلام كان إذا حضر مجلس الشيخ وسمع افصاحه على الأسرار العجيبة، والعلوم الجليلة يقوم من مكانه ويفارق موضعه ويقول : « اسمعوا هذا الكلام الغريب، القريب العهد من الله» (5).

ومن أنصار الشيخ المعجبين به ابن عطاء الله السكندري إذ يقول عنه :

هو الشيخ الإمام حجة الصوفية ، وعلم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد في زمنه بالمعارف السنيّة، والمفاخر العلية، والعالم بالله ، والدال على الله زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الغوث (6)

---

1 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، 144.

2 - ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 154.

3- ابن عطاء الله السكندري، المرجع السابق، ص 71، 72.

4- نفس المرجع، ص 72.

5-نفس المرجع، والصفحة.

6-نفس المرجع، ص 71.

وقال عنه داود بن باخلا خليفة ابن عطاء الله الأجل :

هو السيّد الأجلّ الكبير، القطب العارف، الوارث المحقق، الرباني ، صاحب الإشارات العالية، والعبارات الشافية، والحقائق القدسيّة، والأنوار المحمديّة، والهمم العرشيّة، والمنازلات الحقيقيّة، الحامل في زمانه لواء العارفين والمقيم فيه دولة المحققين، كهف قلوب السالكين وقبلة همم المريدين، وزمزم أسرار الواصلين...(1)

وقال عنه شيخ القراء بالأسكندرية مكين الدين الأسمر :

مكثت أربعين سنة يستشكل عليّ الأمر في فهم طريق القوم،فلا أجد من يتكلم ويزيل عني إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، فأزال عني كل ماأشكل علي (2)

ولما قدم بعض الدالين إلى الله بالأسكندرية قال مكين الدين الأسمر:«هذا الرجل يدعو إلى باب الله وأبو الحسن يدخلهم على الله» (3) ومما قاله الفقيه بدر الدين بن جماعة في الشاذلي :«إن بركة الشيخ حلت بالديار المصرية منذ أقام فيها»(4).

ومن الذين مدحوا الشاذلي كذلك العلامة تاج الدين السبكي، إذ يقول فيه : « إن الطريقة الشاذلية هي طريقة الجنيد » (5) .ويظهر المؤرخ الصلاح الصفدي تقديره للشاذلي قائلا :

«هو رجل (أي الشاذلي) كبير القدر، كثير الكلام، عالي المقام.له نثر ونظم فيه متشابهات، وعبارات يتكلف له الإعتذار عنها، وللشيخ ابن تيمية مصنف في الرد على ماقاله في حزبه» (6)

---

1 - داود بن باخلا، **اللطيفة المرضية في شرح دعاء الشاذلية**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2307.

2 - ابن عطاء الله السكندري،المرجع السابق، ص 90.

3 - نفس المرجع، ص 75، 76.

4 - نقلا عن :علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 28.

5 -نفس المرجع والصفحة.

6 - نفس المرجع.والصفحة.

ومن المعجبين بالإمام الشاذلي شرف الدين البوصيري صاحب البردة والهمزية الذي مدحه في قصيدة طويلة نذكر منها قوله :

أمـا الإمـام الشـاذلي طريقـه ♣♣ في الفضل واضحة لعين المهتدي
فـانقل ولو قـدمـا عـلى آثاره ♣♣ فـإذا فـعـلت فـذاك أخـذ بـالـيـد
أفـدي عـليًا بـالـوجـود وكـلّنا ♣♣ بوجـوده من كـل سـوء نقـتـدي
قـطب الزمـان وغـوثه وإمـامـه ♣♣ عين الوجود لسان سرّ الموجدي (1)

ومن أنصار الشاذلي المؤرخ الفقيه «ابن الملقّن» صاحب المصنفات الكثيرة إذ يقول: «كان كبيرالمقدار، عالي المقام، له نظم ونثر ومتشابهات وعبارات فيها رموز... وقد انتصب بعض الحنابلة إلى حربه فرد عليه وماهو من حزبه»(2)

ومن أنصار الشاذلي المعجبين به الذين أشادوا بسعة علمه الفقيه المؤرخ علامة اليمن، عبد الله اليافعي المتوفى سنة 768 هـ، إذ يقول عنه :

هو الشيخ الكبير العارف بالله الخبير ، الفقيه الإمام، علم العلماء بالله الأعلام ، معدن الأسرار، وبحر العلوم الجمّة ،المودع دررالمعارف، وجواهر الحكمة الممنوع ، رفيع المقامات والأحوال السنيّة ، المشهور بعظيم الكرامات والمناقب العليّة ، المعترف له بكثرة العلوم، المشهود له بالقطبية ، جامع الفضائل والمفاخروالمحاسن.... الناطق حاله بالعبر، ولسان مقاله بالحكم، صاحب الفتح الجليل، والمنهج الجزيل، والمنصب العالي، أستاذالعارفين، ودليل السالكين (3).

ولجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ. كتيّب صغير سماه «تأييد الحقيقة العليّة في تشييد الطريقة الشاذلية» دافع فيه عن الشيخ الشاذلي ،وعن طريقته مبرزا فضائلها ،ومحاسنها وهو يقول عنه :

وكان الشيخ أبو الحسن يحضر عنده الأئمة مثل سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد هذا مع ماصح عن ابن دقيق العيد من تشديد النكير على الإتحادية، وتضليل عقولهم، فلو رأى في كلام الشاذلي ذرة من ذلك لكان أول مبادر إلى إنكارها (4)

1- نقلا عن : ابن عياد الشافعي، المفاخر العلية، ص 9، 10.
2- ابن الملقن ، طبقات الأولياء ص 459.
3 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 14
4 - جلال الدين السيوطي، تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذلية، ص 68.

وكان الشيخ عبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة 923 هـ ممن يعظمون أبا الحسن الشاذلي إذ يصفه بأنه :

> هو الشيخ الضرير الزاهد، نزيل الإسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، وكان كبير المقدار ،عالي المنار، له عبارات فيها رموز فوق ابن تيمية سهمه إليه فرده عليه (1)

وممن أعجبوا بالشاذلي أيضا الشيخ «عبد الرؤوف المناوي» المتوفى سنة 1031 هـ .إذ يقول عنه:

> علي أبو الحسن زعيم الطائفة الشاذلية... جد واجتهد حتى ظهر صلاحه وخيره، وطار في فضاء الفضائل طيره، وحمد في طريق القوم سراه وسيره، نظم فرقق ولطف، وتكلم على الناس، فقرّظ الأسماع وشنّف، وطاف وجال ولقي الرجال.....وكان إذا ركب تمشي أكابر الفقراء، وأهل الدنيا حوله وتنشر الأعلام على رأسه، وتضرب الكوسات بين يديه، وينادي النقيب أمامه بأمره له. من أراد القطب الغوث فعليه بالشاذلي (2)

ومما له دلالة عميقة في بيان علو كعب الشيخ في ميدان التربية، والتهذيب شهادة شيوخ طرق أخرى بالتقدم في فن التربية كالشيخ «أحمد الكمشخانوي النقشبندي» الذي أكنّ له احتراما عميقا ، إذ كان يرى أن له خصوصية معينة من بين شيوخ الطرق الصوفية الكبار وهي قوة العلم والواردات على نحو مايظهر في قوله:

> اعلم أنّ لكل الأولياء خصوصية وهمّة في الحياة والممات، كنقش الحقيقة والإلقاء في بحر الوحدة والفناء والإستغراق لشاة نقشبندي محمد بهاء الدين، وقوة التصرف والإمداد لعبد القادر الجيلاني، وقوة العلم والواردات لعلي أبي الحسن الشاذلي (3)

---

1 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4.

2- نقلا عن : ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ج5، ص 279.

3 - أحمد الكمشخانوي، جامع الأصول. ص 5.

ولقد حضي الإمام الشاذلي بمكانة مرموقة متألقة حتى في أقوال علماء الدين المعاصرين، وكبار الباحثين نذكر من هؤلاء الشيخ خير الدين نعمان الشهير «بابن الألوسي» فهو يقول عنه :

والشيخ الشاذلي - رحمه الله- لما صدر منه بعض التعبيرات المخالفة بحسب الظاهر للقواعد الشرعية، وإن أولت عند أربابها بالتأويلات المرضية... فلعل الشيخ ابن تيمية تصدى طمعا بالنصيحة في إثناء تصنيفاته لبيان مايرد عنده على الشيخ الشاذلي في بعض عباراته، وأنت تعلم أن هذه شنشنة العلماء والأكابر (1)

ويقول الأستاذ «مصطفى عبد الرازق» صاحب كتاب «تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية» :

وللشاذلي وتلميذه - يقصد المرسي - بين الصوفية مكان عظيم، وللطريقة الشاذلية منذ مئات السنين أتباع كثيرون في البلاد الإسلامية، وفي وادي النيل، وللإسكندرية من أتباع هذه الطريقة نصيب موفور، ولهذه الطريقة أثر غير خفي في استقامة المريدين، واستمساكهم بعروة الدين الحنيف وحماستهم لكل مظاهره (2)

ويقول الشيخ «محمد الغزالي» عنه :

« أبو الحسن الشاذلي كان رجلا له فقه، وله مع الله أدب وله مع الناس حسن، وهو صاحب التوجيهات اللطاف» (3)

على أن التقدير الحقيقي لمكانة «أبي الحسن الشاذلي» لايعرف من بالغ الثناء الموجود في كتب التراجم، بقدر مايعرف من النتائج المثمرة التي حققها في تربية وتهذيب مريديه، إذ كتبَ الله أن انتشرت طريقته في الآفاق، واستمرت حيّة منذ القرن السابع إلى عصرنا الحاضر ، الأمر الذي خلد ذكر أبي الحسن كمرب ممتاز. وهذا ولاشك من دلائل عظمة شخصيته، إن لم يكن أكثرها إبانة عليها.

---

1 - نعمان خير الدين بن الألوسي، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، ص 81، 82.

2 - نقلا عن، علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي. ج1، ص 29.

3 - محمد الغزالي. خطبه في شؤون الدين والحياة، مراجعة محمد عاشور، الجزائر : مكتبة رحاب [د، ت]، ج2، ص 137- 138.

الفصل الرابع

تجديده في التصوف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد :

في البداية وقبل الحديث عن التصوّف الشاذلي المجدّد، يحسن بنا أن نشير إلى المقصود بالتجديد في بعديه اللّغوي والإصطلاحي.

وبالعودة إلى المعاجم اللّغوية(1)، وبتتبعّ تصاريف الكلمة ودلالاتها المختلفة، نجد أن الفعل جدّ يتمحور حول معنى أساسي هو القطع. يقال : ثوب جديد وملحفة جديدة حين جدّها الحائك أي قطعها حديثا.

كما يقال : جدّد العهد، وجدّد الوضوء وقد يبدو للوهلة الأولى أنهما بعيدا عن معنى الفعل جدّ، الذي يأتي بمعنى القطع، ولكن عند انعام النّظر نجد أنّهما على مثل المعنى الأول، فكأن الزمان قطع العهد، فاحتاج إلى تجديد في الأول، وكأنّ الحدث قطع الوضوء، فاحتاج إلى تجديد في الثاني.ومنه تسمية العرب اللّيل والنهار بالجديدين. ويقال في اللّغة تجدّد إذا صار جديدا(2) فكأنّ التجديد هو وصل ما انقطع من المعهود، وإعادته إلى حالة الفاعلية، بعد أن أدركه البلى على مرور الزمن، فاحتاج إلى من يعيده إلى حالته الأولى التي كان عليها، وهو المعنى الذي نراه يتساوق مع المفهوم الإصطلاحي للكلمة، إذ يرى «محمد الطاهر بن عاشور» أن التجديد هو عبارة :

> عن الجهود العلميّة والعمليّة التي تبذل لإصلاح الناس في الدّنيا: إما من جهة التفكير الديني الرّاجع إلى إدراك حقائق الدّين، وإما من جهة العمل الدّيني الرّاجع إلى اصلاح الأعمال، وإما من جهة تأييد سلطانه(3)

وهذا التعريف يحدّد أبعاد التجديد الديني في ثلاثة محاور أساسية :

- بعد الفهم له.
- بعد العمل به.
- بعد المحافظة عليه.

والسؤال المهم الذي يواجهنا بعد معرفة مفهوم التجديد هو: ما هو العمل التجديدي الذي قام به الشّاذلي؟ وهو سؤال تبدو أهميته في كون الإجابة عنه تساهم إلى حدّ كبير في إبراز مميزات التجديد الشاذلي في ميدان الفكر الصوفي، وهذا ماسنحاول الإجابة عنه في هذا الفصل.

---

1 – ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مادة جدد ،ط1، بولاق: المطبعة الميرية بمصر 1300هـ. ج4، ص81 وما بعدها

2 – نفس المرجع، ج4 ص82.

3 – محمد الطاهر بن عاشور، تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنّة، تونس: الشركة التونسية للنشر والتوزيع 1985م .ص113.

ونظرا لتعدد هذه المميّزات وكثرتها فسأكتفي بإيراد بعضها مما اعتقد أنه يعتبر محوريًا بالنسبة إلى غيره.

إن المتأمل في الآثار المنقولة إلينا من أقوال الشاذلي، يشعر بأنه إزاء شخصيّة واقعيّة، تعنى بالعمل أكثر مما تعنى بالرأي والجدل، كما يستنتج بأنّ حركة الشاذلي التغييريّة في ميدان الفكر الصّوفي، تهدف في مجملها إلى اصلاح الأوضاع الاجتماعية المتردّية عن طريق تجديد هذا الفكر، وانعاش الروح الدينية ، وذلك بقصد الخروج بالمجتمع من المتاهات التي خلّفتها الاضطرابات السياسيّة الداخلية والخارجية، إلى وضع اجتماعي سليم.

ومن مظاهر تجديد الشاذلي في الفكر الصوفي مايلي :

أولا : إنزال التصوف إلى مستوى الجماهير :

رأينا في الصورة التي رسمناها للأوضاع المجتمعيّة في عهد الشاذلي ،مدى حاجة الجماهير إلى داعية ينزل بالتصوف إلى واقع النّاس المعيش، ويقرّ به إلى سلوكهم اليومي، فكان الشاذلي الداعية الذي قدّر له أ ن يضطلع بهذا الدّور، فيرأب بذلك الصدع، ويزيل الفتنة، ويبعث في جسد المجتمع الإسلامي الهامد، روحا جديدة من النّشاط والحيويّة، فعمل جهده على تقوية صلة الكثيرين بالله، وتذكيرهم بالآخرة، وتوجيه هممهم إلى السعي في تهذيب أنفسهم للوصول إلى مقام الإحسان، وإفراد العبوديّة الخالصة لله سبحانه وتعالى، وهذا - ولاشك - جوهر دعوة الأنبياء والغاية من بعثتهم قال تعالى : «هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ»(1)

وعلى هذا الأساس فلن ينجح الإسلام كدين، إلا إذا وجد له دعاة من هذا الصّنف، لتؤم الجماهير التي هي في أمسّ الحاجة إلى التخلّق بالأخلاق الإسلامية، فكان الشاذلي من هؤلاء المصلحين الذين تسلّموا زمام القيادة والتوجيه في العالم الإسلامي.

وأقبل النّاس عليه من كل فج عميق ومرمى سحيق، يتلقون منه الهداية والإرشاد، فنفع الله به خلقا لايحصون، استفادوا منه فوائد في العلم والتزكية، والربانيّة الصادقة، أعدّ منهم أفرادا كانوا أمثلة حيّة في الانصراف عن الدنيا، والتقلل منها، والزهد في أهلها من أصحاب المال والرئاسة، كما كانوا بحياتهم الساذجة البسيطة، وتواضعهم مع خلق الله، وإنابتهم له، وعلّو هممهم في طلب الآخرة، دراري مضيئة ألتفت حولهم الجماهير المسلمة، تتلقى منهم التربية

---

1 - الجمعة، آية: 2.

والتوجيه، وماذاك إلا بفضل التأييد الرباني لمؤسس هذه الدعوة الذي كان نموذجا فريدا في الإخلاص، والصفاء، والبطولة، والتضحية، والرغبة عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، واتباع السنّة ومجانبة البدعة.

ولم يعرف أن مصلحا استطاع أن يجمع حوله هذه الجموع الغفيرة من الأتباع والمسترشدين، ويؤثر فيهم هذا التأثير العميق بعد «عبد القادر الجيلاني»، إلا هذا الرجل الذي أكرمه الله بهذا التوفيق الإلهي حتى لم تبق بقعة من بقاع مصر، أو تونس، إلا وتسمع فيها بوجود خليفة من خلفائه يعلم النّاس هضم النّفس ومحاسبتها، والإستقامة على الدين والصدق في العبودية.

ولولا هؤلاء الربانيين من أمثال الجيلاني والشاذلي، والبدوي والدسوقي، لخبت شعلة الإيمان وابتلعت المادية العاتية هذه الأمة منذ أمد بعيد.

والناظر في أحوالنا الراهنة يرى كيف يكاد يتحول الدين إلى فكرة تسكن عقول بعض المثقفين، أما العامة فهم منغمسون في الدنيا وأوضارها كأن لاشأن لهم بالدين، ولاحظ لهم من التوجيه السماوي، ولاأحد من علمائنا الأجلاء، يفكر فيهم وفي أحوالهم كما فكر هؤلاء الأسلاف فشغلوا جوارحهم بأوراد وأذكار تهذب أرواحهم وتصفى نفوسهم.

فهل سنحسن الاستفادة من تجاربهم فننجح في تقريب الإسلام إلى مستواهم الفكري، ومعايشتهم اليّومية، أم سنظل مشغولين بالتزيّد في التبديع، والتسرّع في إلقاء الأحكام المسبقة، فنحرك بذلك ضغائن وأحقادا ماأحوج المجتمع الإسلامي إلى التخلّص منها ومن آفاتها!

وتحضرني في هذا المقام قصة طريفة جمعت بين عالمين شاذليين من هذا البلد، أما أحدهما فهو «أحمد بن يوسف المليانى»، (1) والثاني «محمد بن علي الخروبي» (2) ويذكر المؤرخون أنهما لما اجتمعا معا قال الخروبي للملياني :

«لقد أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة والنساء»

فرد عليه المليانى بقوله :«قد دعونا الخلق إلى الله فأبوا فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر»

فقال الخروبي :«فوجدته أوسع مني دائرة» (3).

---

1 - هو الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن يوسف المليانى، انتهت إليه تربية المريدين في الغرب الجزائري، أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ أحمد زروق، توفي سنة 927هـ. أنظر في ترجمته : أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**،ط1، تونس : المكتبة العتيقة 1982م، ج2، ص489 - 490.

2 - هو محمد بن علي الخروبي، ولي الخطابة في أحد مساجد الجزائر، اشتهر بشرحه على الحكم العطائية، والصلاة المشيشية راجع : محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 284.

3 - نقلا عن : أبي القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**،ط1، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م، ج1، ص 479.

ثانيا : تجديد الإيمان والثقة بالرسالة المحمديّة:

لعل مأثرة الشاذلي التجديدية هي تجديده في جانب إيمان الأمة، وعنايته وتركيزه على صياغة إنسان جديد. ذلك لأن الإنسان هو اللّبنة الأساسيّة في أيّ إصلاح فعّال قال تعالى : « **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ** » (1)

ولن ينجح أي اصلاح ديني مجتمعي ،ويؤتى بثماره المرجوة منه إلا إذا صدر من أعماق الذات، وعلى هذا الأساس وحده تجد القيم، والمعايير الأخلاقية الضمان الكافي لوجودها وفاعليتها.

فإذا أردنا أن تكون توجهاتنا متفقة مع أصولنا، فلابد أن نجدّد في إيماننا، وأن نشعل مجمرة هذا الجانب.

ولقد أرشدنا النبي - صلى الله عليه وسلّم - إلى الكيفية التي يتم بها إحياء الإيمان وإذكاؤه فقال : «جددوا إيمانكم قيل : يارسول الله، وكيف نجدّد إيماننا قال : أكثروا من قول لاإله إلا الله»(2).فكأنه - صلىّ الله عليه وسلّم - حدّد لنا منهاج العمل، ومرشد السّير الذي ينبغي أن نتبعه حتى لانضل الطريق والغاية وهي قوله تعالى : «**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**»(3)

والصوفيّة جميعا، والشاذلي - لم يشذ عنهم في ذلك - أول مايبدأون به عملهم التربوي مع المتقرّب تلقينه كلمة التقوى «لاإله إلا الله» ثم يوصونه بالإكثار من ذكرها، حتىّ تنفتح له طريق الهداية وتنقشع عنه سحب الغواية.

والسّر في ذلك أنّ هذه الكلمة هي مفتاح شخصية المسلم وهي النواة الأصيلة والأصليّة المكونةّ لها.

ودورها في تغيير نفس المؤمن وتهذيبها - إذا وجد المرشد - لايقل عن عمل الكهرباء في الأسلاك بل أكثر.

إذ أنها تحرر روحه وتخلّصه من كل الشوائب المضلّله، والآلهة الزائفة التي من شأنها أن تنأى بالعبد عن إدراك تبعيته الأصلية، وعبوديته الحقة لمولاه.

وهي إكسير أحمر تصيّر الذاكر بها إلي حالة لايشاهد فيها إلا فاعلا واحدا في هذا الوجود أصلا (4)، ولايرى شيئا فيه إلا ويرى الله قبله وهذه الحال هي المعبّر عنها «بالفناء في التوحيد» عند الصّوفية.

---

1 - الرعد : آية : 11.

2 - أخرجه : أحمد بن حنبل، في المسند، ط بيروت : دار الفكر العربي، [دو ت]، ج2، ص : 359.

3 - الذاريات آية : 56.

4 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط3، بيروت : دار القلم، [د.ت]، ج4، ص 230.

فترتفع عن العبد حجب الغفلة بالكليّة، وإليه الإشارة بقوله -صلّى اللّه عليه وسلّم- :«**لاإله إلا اللّه ليس لها دون اللّه حجاب حتى تخلص إليه** » (1)وفي معنى هذا الحديث يقول الدهلوي :

«ولا إله إلا اللّه لها بطون كثيرة، فالبطن الأول طرد الشرك الجلّي، والثاني طرد الشرك الخفي، والثالث طرد الحجب المانعة عن الوصول إلى معرفة اللّه» (2)

ولقد كان دور الشاذلي مع أتباعه - وهو يزكيهم بهذه الكلمة ويكملهم بها - أن يلحقهم بالملأ الأعلى حتى يكون الحق سمعهم وبصرهم، فيعرفون من ثم اللّه على الحقيقة وهذه معان أشار إليها الحديث القدسي المشهور الذي رواه أبو هريرة عن الرسول - صلّى اللّه عليه وسلّم - فيما يرويه عن ربه عز وجلّ :

«من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وماتقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» (3)

وهاهو تلميذه المرسي وخليفته الأجل، يكشف جانب تحققه بهذه الحقيقة ووصوله إلى الذروة منها، وماذاك إلا ببركة صحبته للشاذلي وفي هذا المعنى يقول :«إن للّه تعالى عبادا محق أفعالهم بأفعاله، وأوصافهم بأوصافه....وحملهم من أسراره مايعجز عامة الأولياء عن سماعه وهم الذين غرقوا في بحر الذات، وتيار الصفات»(4)

وهذه هي الغاية من سلوك الطريق الصوفي، وهو التحقق بمعنى الشهادة، والوصول إلى هذه الذروة، وليس في هذه المعاني مايخالف موارد الشريعة، ولامايناقي إدراك عقول المتشرعين العارفين بالكتاب والسنّة(5.)

---

1 - الترمذي، الجامع الصحيح، 49 - كتاب الدعوات، 87، باب حديث 3518. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه وليس إسناده بالقو ي ج5، ص 536.

2 - أحمد الدهلوي، حجة اللّه البالغة، ج2، ص 72.

3 -البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب التواضع، ط بيروت: دار الفكر [د، ت] ،ج7، ص: 190.

4 - ابن عطاء اللّه السكندرى، لطائف المنن، ص 32.

5-الإمام الشوكاني ،**قطر الولي في حديث الولي** ،تحقيق ا براهيم هلال ،ط1 ،القاهرة ،مطبعة المدني،1969م،ص416.

بل إن القرآن العظيم ينطق بذلك في قوله تعالى :«اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»(1)وهذا النبي- صلى الله ليه وسلم - لما سئل عن ربّه قال :«نور أنّى أراه» (2) وقد ثبت في الصحيح من دعائه -صلى الله عليه وسلم - إذا خرج إلى الصلاة قوله:

« اللّهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نورا، وفوقي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، واجعل لي نورا». (3)

وفي معنى هذا الحديث يقول الإمام «محمد بن علي الشوكاني» (4):

«وأي مانع من أن يمد الله سبحانه وتعالى عبده من نوره ،فيصير صافيا من كدورات الحيوانية الإنسانيّة لاحقا بالعالم العلوي سامعا بنور الله، مبصرا بنور الله ،باطشا بنور الله، ماشيا بنور الله، وما في هذا من منع ،أو من أمر لايجوز على الربّ سبحانه ،وقد سأله رسوله - صلى الله عليه وسلم-. وطلبه من ربه»(5)

ثم يقول الإمام الشوكاني :«ومن أمدّه الله سبحانه بنوره في جميع بدنه صار لاحقا بالعالم العلوي، ومن أمدّه بعضو منه صار ذلك العضو نورانيّا». (6)

---

1 - النور، آية : 35.

2 - أخرجه مسلم: 1 - كتاب الإيمان، 78 - باب قوله عليه السلام: نور أنّى أراه، حديث 291 أنظر : مسلم، الجامع الصحيح، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط بيروت : دار إحياء التراث العربي، [د، ت] ج1، ص 161.

3 - البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الدعوات؛ ج7، ص 148.

4 - هو محمد بن علي الشوكاني، ولد سنة 1173هـ، له عدة مؤلفات أهمها : تفسيره فتح القدير، ونيل الأوطار، وإرشاد الفحول وغيرها من الكتب النافعة، توفي سنة 1231 هـ أنظر في ترجمته : إبراهيم إبراهيم هلال، مقدمته عن كتاب قطر الولي. ص 3 - 56؛ الزركلي، الأعلام، ج6، ص 237.

5 - نفس المرجع، ص 415، 416.

6 - نفس المرجع، ص 416.

لذلك وجدنا ابن عطاء اللّه السكندري - قبل الشوكاني - يحمل هذا الحديث على مايذكره الصوفيّة في مقام «الفناء»، و«البقاء» وفي هذا المعنى يقول :

فإذا أفناك عنك، أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناؤه، صدق بقاؤه، ومن كان عما سوى اللّه فناؤه كان باللّه تعالى بقاؤه ..... والفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء والبقاء يحضرهم مع اللّه في كل شيء، فلا ينقطعون عنه في شيء، الفناء يميتهم، والبقاء يحييهم(1)

ومن وصل إلى هذه الحقيقة،وتحقق بها أدرك لامحاله قول الجنيد(2) -رحمه اللّه - لما سئل عن حد التّصوف، فقال :« أن يميتك الحق عنك ويحييك به»(3).

وهكذا فإن الشهادة - عند هؤلاء الربانيين - تتحول من مجرّد لفظ ينطق به الإنسان، ويمرّ من بين شفتيه، ولايكاد يلقي له بالا إلى كلمة ديناميّة تحرر الشاهد من جميع الأوهاق الكثيرة، والأوهام المضلّلة لأنه يعي بأن لافاعل لشيء، أو فاعل في شيء إلا اللّه وحده، المتفرد بحقيقة الوجود، وحقيقة الفاعليّة، ومن ثم تضفى هذه الكلمة على الإنسان معنى ساميا من معاني الكرامه الإنسانية الرفيعة، وهذا هو جانبها الأول.

أما الجانب الثاني لكلمة الشهادة فهي تجعل المؤمن يعيش في حضور دائم مع اللّه، لأنه يشهده في كل شيء قال تعالى :«وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ»(4) وقال أيضا : «وَمَاتَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَاتَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَاتَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَايَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»(5).

وقال أيضا :«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَافِي السَّمَاوَاتِ، وَمَافِي الْأَرْضِ مَايَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلَاخَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ،وَلَاأَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ، وَلَاأَكْثَرَ

1-ابن عطا اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 33.

2 - هو أبو القاسم بن محمد بن الجنيد ، إمام الطائفة الصوفية، توفي سنة297هـ، أنظرفي ترجمته: السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، ط3. القاهرة، مكتبة الخانجي 1986م، ص155- 163 وانظر: junayd;Enseignement spiritiel; trad ; par deladrière; sindbad; 1983 ; p 15et suite

3 - القشيري، الرسالة البيانية، ص 126.

4- الحديد، آية : 4.

5 - يونس، آية : 61.

إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُواْ(1).

وقوله أيضا :

«وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (2) وقوله «وَكَانَ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا»(3)

وعلى هذا الأساس ينشأ لدى المؤمن تصور جديد للعلاقات الإنسانيّة تكون لحمته وسداه، الحب والرحمة، ومن هنا أوجب الإسلام الزكاة وحث على الصدقة حتى يرتفع بالإنسان المؤمن إلى مستوى الرحمة، وانعم النظرفي نورانيه الحديث الصحيح: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء(4).

لذلك أنصبّ اهتمام الشاذلي على تعميق هذا المبدأ وترسيخه في المجتمع الإسلامي الذي أوشك أن تزول منه كل هذه المعاني، نتيجة ذلك الإضطراب القاتم الذي خيّم عليه في تلك الحقبة.

ثالثا : تجديده في ميدان العمل الإجتماعي :

اعتمادا على ماسبق، يمكننا أن نلاحظ أن الصبغة العمليّة في التجديد الشاذلي بارزة بوضوح، فقد كان - رحمه الله- شديد الصّلة بحياة الناس، كما يثبت ذلك مترجموه، ، مما جعله ينزل بالتصوف من الخوانق والزوايا إلى حياة الجد والكفاح، فلم يمنعه التصوف أن يسدي المعروف إلى جميع الناس، فقد ذكر مؤرخوه «إنه كان جوادا بما يملك وكريما يكره البخل(5)». كما كان يسعى جهده للتخفيف من الآلام والمصائب التي تنزل على كثير من الخلق، مما كان يضطره في أحيان كثيرة إلى الإتصال بالملوك والأمراء، من أجل كشف الضر عنهم، وتوصيل مالا يستطيعون توصيله إلى أنفسهم، مع الزهد التام عما في أيديهم، وهذا - ولاشك - من أمارات تخلّقه بخلق الرحمة الإلهيّة.(6)

---

1 - المجادلة، آية : 7.

2 - ق،آية : 16.

3 - النساء، آية : 126.

4 - أخرجه الترمذي في : 25 كتاب البر والصّله، 16 - باب ماجاء في رحمة الناس، حديث 1989. وقال عنه بأنه حديث حسن صحيح. أنظر : سنن الترمذي، ج3، ص 217.

5 - علي سالم عمار. أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 125.

6 - ابن عطا الله، لطائف المنن، ص 227 .

وإن هذا الخلق ليبلغ القمة عنده، وذلك حينما مرض له أحد أتباعه، وأصابه رمد في عينه - في الإسكندريّة - فاستدعى له الشاذلي طبيبا لمعالجته لكن الطبيب اعتذر عن ذلك وقال للشيخ :

« لاأستطيع أن أعالج فإنه جاء مرسوم من القاهرة أنه لايداوى أحد الأطباء ،إلا بإذن من مشارف الطب بالقاهرة ».ولماخرج الطبيب اليهودي من عنده طلب الشيخ من خدامه، أن يهيئوا له أسباب السفر، فسافر لوقته، ولم يمنعه من ذلك علو مكانته باعتباره شيخا مربيا ،ا ولاكبر سنّه ، وأحضر لذلك الطبيب الإذن، ولم يبت في القاهرة ليلة واحدة، وهذا ولاشك موقف فتوّة وموقف رحمة، وحنان ،فما كان من اليهودي إلا أن أكثر التعجب من هذا الخلق الكريم!(1) ، وبسبب دماثة أخلاقه هذه جهل ولاة الأمور قدر الشيخ أبي الحسن كما يستفاد ذلك من قول ابن دقيق العيد.(2)

ويبدو أن خلق الرحمة كان سجيّة جبل عليها الشيخ منذ صغره، فها هو يحدثنا أنه لما دخل تونس، وهو صبي صغير، ووجد بها مجاعة، ووجد الناس يموتون في الأسواق، فما كان منه إلا أن اشترى لهم الخبز، وناولهم إيّاهم.(3)

ولكن هل يمكن أن ينفع النّاس بطال؟ الإجابة بالطبع لا، لذلك لابد أن يحث الشاذلي مريديه على العمل، وطرق الأسباب، ويغيّر بذلك النظرة القديمة للتكسب، حيث رأى الشاذلي أن جوهرالتصوف لايعارض الأخذ بالأسباب، ولقد أعطى الشيخ المثل الأعلى بنفسه، حيث كان كما يشير إلى ذلك مترجموه يعمل في الزراعة، والتجارة، حتى كان يقول : « لكل ولي حجاب- أي ستر - وحجابي الأسباب»(4).فلا غضاضة بعد ذلك أن نجد الشاذلي «يكره المريد المتعطل، ويكره أن يسأل تابعه الناس»(5).

وبفضل هذا الأسلوب الذي اتخذه الشاذلي، والذي يعتمد على العمل أساسا، أوقف بذلك انزلاق كثير من المتصوفة إلى حياة الرهبنة، التي نهى عنها النبي -صلّى اللّه عليه وسلم - في قوله : «لكل نبي رهبانيّة ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل اللّه عز وجل» (6)

---

1 - ابن عطا الله السكندري، لطائف المنن، ص 228.

2 - نفس المرجع، ص 227.

3 - ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 5

4 - نقلا عن: ابن عطا اللّه، لطائف المنن، ص 227.

5 - علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 125.

6 - أحمد بن حنبل، المسند، ج3، ص 266.

وبالفعل رأينا الشاذلي، يساهم مع أتباعه المساهمة الفعليّة في معركة المنصورة الفاصلة، لصدّ خطر الصليبيينّ المحدق على مصر سنة 648 هـ.على الرغم من كبر سنّه، وانكفاف بصره، فضرب بذلك مثلا أعلى لمريديه، وللشاذليين عامة الذين سيأتون من بعده.

فلا غرابة أن نجد المصادر التاريخيّة تحدّثنا أنه لما قدم «لويس التاسع» إلى تونس - وهو نفسه قائد حملة المنصورة - على رأس جيش عرم، لعب تلاميذ الشاذلي المباشرين دورا إيجابيا في تعبئة الجماهير الشعبيّة على مختلف طبقاتها للتصدي لهذه الحملة، ولعل دور المجاهد الكبير «أبي الحسن على الحطاب »(1)، أول من تعرف على الشيخ حين قدومه تونس وتتلمذ له، أشهر من أن ينبّه عليه.

كما أن جهاد السنوسيّة (2) - وهي إحدى فروع الشاذليّة - في مقاومة الإستعمار الإيطالي موقف سجله لنا التاريخ (3) وما الشهيد عمر المختار إلا خريج هذه المدرسة العظيمة(4)

وهو الدور نفسه الذي قامت به «الطريقة الدرقاوية الشاذلية» (5) في كل من الجزائر، والمغرب ، وموريطانيا ، في مناهضة الإستعمار الفرنسي، والإسباني، ولعل في انتساب« الأمير عبد القادر الجزائري» (6) رائد المقاومة الجزائرية إلى هذه الطريقة خير شاهد على صدق مانقول .

وماذلك إلا لأن التصوف في «المدرسة الشاذلية» ليس هو بالطريق للرّهبنة والانغمار في حياة الطرق والزوايا. بل هو شهادة لله عز وجل، وعمل يهز واقع الحياة، وهو ماعبّر عنه الشاذلي بقوله:

---

1 - هو الشيخ أبو الحسن علي الحطاب، كان له الدور الكبير في التصدي للإنتفاضات وإخماد الفتن. وقام بدور نضالي بارز في تكوين المرابطين المجاهدين للتصدي لغارة لويس التاسع سنة 669 هـ. توفي في تونس سنة 671 هـ وزاويته قرب العاصمة التونسيّة في طريق الشمال. أنظرفي ترجمته : :محمد بوذينه، أبو الحسن الشاذلي، ص 80.

2 - نسبة إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي المتوفي سنة 1276 هـ

3 - أنظر في ذلك : دمحمد فؤاد شكري، **السنوسية دين ودولة**، ط1، بيروت : دار الفكر العربي 1948م، ص20، 21.

4 - المرجع نفسه، ص : 270، 271.

5 - نسبة إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي المتوفى سنة 1239م ستأتي ترجمته في الفصل السابع. ص 237.

6 - أنظر مدح الأمير عبد القادر،لشيخه محمد الفاسي الدرقاوي بقصيدته التي إستهلها بقوله :

أمسعود جاء السّعد والخير واليسر * * وولت ليالي النحس ليس لها ذكر.

الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ط2، دمشق، دار اليقظة العربية 1967م، ج3، ص 1393.

ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولابأكل الشعير والنخالة وإنما هو بالصبر على الأوامـــــر واليقين في الهداية قال تعالى:[وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ*] (1).

وبفضل تأكيد الشاذلي، وحرصه المستمر في ترسيخ هذا الجانب العملي في ذهن، ونفوس أتباعه لا نعجب إذا رأينا خليفته المرسى يقول حاثا مريديه على التسبب : «عليكم بالسبب وليجعل أحدكم مكوكه سبحته، أوتحريك أصابعه في الخياطة، أوالظفر سبحته» (2).

وعلى هذا الأساس من الفهم العميق لروح الإسلام، ومقاصد الشريعة صار الشاذلي ينظر إلى التصوف.

فليس بدعا ذلك أن يتجه الشاذلي إلى المواءمة بين التصوف والشريعة، واخضاع الطريقة لها بعد ماكادالتصوف أن يصبح مدرسة مستقلة بنفسها، لاتتصل بالشريعة إلا اتصالا شكليّا، أوشك أن ينتهي إلى التمايز خصوصا لما اعتبر البعض أن الكشف لايخطيء أبدا، وأن الوصول يكون متى أدرك السالك نزعة «وحدة الوجود» وعند بلوغه لها تسقط عنه التكاليف الشرعيّة .

فكان الشاذلي من أكبر الدعاة المرشدين إلى ضرورة الرجوع، بل والانطلاق من الشريعة وتحكيمها في جميع الأحوال، والأقوال، والأعمال، وقد استطاع بقوة تأثيره أن يمنع الفكر الصوفي من الانزلاق في هذا الإتجاه الخطير، وأن يرجع به إلى المنبع الأصيل الأثيل.

ولاقيمة للتصوف كله - أقول - إذا لم يكن آلة للعبودية الصادقة، ووسيلة صالحه للإنصباغ بالشريعة، وزيادة الثّقة بها.

وهذا جوهر تجديد الشاذلي كما سنبينه الآن.

رابعا - الشاذلي ومسألة الجمع بين الشريعة والحقيقة :

في مثل هذا الجو الذي تسوّد فيه النزعة الإشراقيّة، وأخذ الحقائق التصوفية من الأوراق، مما أدى بالبعض إلى القول بإسقاط التكاليف الشرعيّة ، والمروق من الدين. جاء تجديد الشاذلي معبرا عن واقع المجتمع الذي ظهرت فيه ، ومستجيبا لمتطلبات

---

* -السّجدة ، آية : 24.

1- ابن عياد، المفاخر العليّه في المآثر الشاذلية، ص 88.

2 - نقلا عن : علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 125.

الحياة، كما يسير مع الكتاب والسنّة، فكان من الضروري والشاذلي يريد نشر التصوف السنّي العملي بين جميع مستويات المجتمع أن يعمل على حفظ التوازن بين القضاء والديانة، وإن شئت قلت بين الحقيقة والشريعة، والذي تجلّى بوضوح في المستويات التالية :

1 - تقييد منطقة الكشف :

دون أن يخوض الشاذلي في مناقشة عقيمة - كشأن الفلاسفة- لخص رأيه في حكمة بليغه أحاطت بهذا الموضوع من جميع أطرافه يقول فيها :

> **إذا عارض كشفك الكتاب والسنّة، فتمسّك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنّة ولم يضمنها في جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهد ة ،مع أنهم أجمعوا على أنه لاينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنّة»(1)**

فالصوفي إذن حسب النظرة الشاذليّة ،ليس ممن تثبت له العصمة، بل يجوز عليه الخطأ والنسيان ،وفي هذا إرجاع للصوفية لمقولة الإمام مالك - رحمه الله -: « كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذه الروضة الشريفة، وكان يشير بيده إلى قبر النبي - صلّى الله عليه وسلم -»، وهذا فرق جوهري - ولاشك - بين طريق المتصوفة، وطريق الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم.-

ولقد كان للشاذلي بهذا الأسلوب الأثر الكبير على نجاحه في دعوته، وبهذا استطاع أن يرد الطريقة إلى الشريعة.

فمصدر المعارف الصحيحة حسب رأي الشاذلي، لايكون إلا عند المعصومين من الأنبياء ، وفي الوحي الذي يأتون به الناس.

أما مايحصل للأولياء من كشوفات، وإلهامات، فلا تعتبر إلا إذا وزنت بميزان لكتاب والسنة، فإذا عارضته ردّت، وإذا قررت أشياء سكت عنها الكتاب والسنّة، فلا يخاطب بها النّاس إذا كانت مما لاتحتمله عقولهم، فضلا على أن يطالبوا باعتقادها.أما المعتبر في الكشف، فهو مايأتي موافقا للكتاب والسنّة، موضحا لما نبهم منهما، معرفا بذات الله سبحانه ، وصفاته العليا، وأسمائه الحسنى كما قررها لأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -.

---

1 - نقلا عن :عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4.

2 - ابتعاد الشاذلي عن التصوف الفلسفي ودعوته«للتوحيد الشهودي».

المتأمل في الحياة الصوفيّة في عصر أبي الحسن الشاذلي، يمكن أن يعتبره العصر الذي بلغ فيه «التصوف الفلسفي» قمّة عطائه من الناحية الفكريّة، فقد وجد فيه ابن الفارض (ت 632 هـ)، وابن عربي (ت 638)، وعبد الحق بن سبعين (ت 669 هـ)، وتلميذه الششتري (ت 668 هـ) ، وصدر الدين القونوي (ت 673 هـ) وجلال الدين الرومي (ت 672 هـ) وغيرهم، وكان من الممكن أن ينغمس الشاذلي في هذا التيار،وبخاصة وأنه تتلمذ كما تذكر بعض الروايات على يد «عبد العزيز المهدوي»صديق« ابن عربي» والذي أهداه أحد كتبه وهو «روح القدس فى محاسبة النفس» (1).

غير أنّ ذلك لم يتم، ومع شهرة ابن عربي في تلك الفترة، فإننا لانجد أحدا من المؤرخين ذكر لقاء بين الرجلين، وكل الذي عرفناه أنه لما قدم تلميذه «صدر الدين القونوي» إلى مصر واجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشاذلي مطرق إلى الأرض إلى أن استوفى كلامه رفع الشيخ رأسه وقال : «أخبرني عن قطب الزمان اليوم، ومن هو صديقه، وماعلومه قال، فسكت الشيخ صدر الدين ولم يرد جوابا» (2)

وفي كلامه هذا إشارة إلى علو كعبه، وعظم منزلته في التصوف لذلك فليس بدعا بعد ذلك أن نجد أحد تلاميذ «ابن عربي» وهو« العلم ياسين» يحضر مجالس وعظه، ويتلقى منه، وقد عرفنا هذا من رواية ساقها ابن عطاء اللهّ السكندري في كتابه «لطائف المنن» (3) وهو الموقف ذاته يتخذه الشاذلي مع المتصوف الأندلسي الشهير «عبد الحق بن سبعين» الذي استوطن مصر في حوالي سنة 640 هـ . ولم يخرج منها إلا في حدود سنة 652 هـ (4)، وهي الفترة التي أقام فيها الشاذلي بمصر، وعلى الرغم من ذلك فإن المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى أيّ اتصال وقع بين الشاذلي، وابن سبعين، بل الذي ذكرته هذه المصادر أن «أبا الحسن علي الششتري» وهو تلميذ ابن سبعين الكبير،- بل الكثير من المتصوفة كانوا يقدمونه على شيخه - لما قدم مصر وتعرف على الشاذلي، وخليفته المرسي نجده بعد ذلك يعدّهم من جملة مشائخه، وتأمل مايقوله في أحد أزجاله :

---

1 - راجع، محيي الدين بن عربي، روح القدس في محاسبة النّفس، تحقيق عزه مصريه، دمشق؛ مطبعة العلم، سنة 1970، ص 19.

2 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 19.

3 - نفس المرجع، ص 74.

4 - راجع في ذلك : أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص 48 وأنظر أيضا:ص 51.

«شيوخي هم شاذلية» (1)

ما السبب في ذلك ياترى ؟ لا تعليل في رأينا إلا رغبة الشاذلي في الإبتعاد عن هذا النّوع من «التصوف الفلسفي» لأنّه يدرك تماما أن هذا التصوف في أحسن أحواله تصوف الخاصة، ولاتفهمه إلا فئة قليلة من الناس، وهو ماشعر به الشيخ زروق فقال معبرا عن هذه الحقيقة.

«وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه ابن سبعين في تآليفه، وللطبائعي تصوف جاء به البوني في أسراره» (2).

والشاذلي يريد - قبل كل شيء - اصلاح مجتمعه عن طريق نشر الأخلاق، والفضائل الصوفيّة، لأنه كان واعيا بحاجة المجتمع إلى ذلك، فلابدّ أن يفكرّ الشيخ في طريقة ناجعة يضمن بها النجاح لدعوته وهو الشيء المهم الذي يدل على بعد نظر الشيخ، وذكائه إذ لا يخفى عليه الصّراع الذي يتجدّد من حين إلى حين بين الفقهاء والمتصوفة، فمن ثمّ حذّر الشاذلي مريديه من إفشاء العلم المكنون،إذ ليس كل مايعلم ينبغي بالضرورة أن يقال، على خلاف ابن عربي الذي قال كل مايقال، ومالايقال، وهو ماوضحه في رسالة بعث بها إلى أحد مريديه، وهو «أحمد بن مخلوف» نثبت جزءا منها .

« والجمع في صاحبك موجود لايليق به النطق، وأطوه في سرك بشاهد التوحيد لربّك... وقد قلت لمن قبلك، وكأنك المخاطب دونه إن أردت التي لالوم فيها فليكن الفرق في لسانك موجودا ، والجمع في باطنك مشهودا »(3)

فكأنه يحذو حذو الصحابى الجليل أبي هريرة(4) حينما قال :

«حفظت من رسول اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - وعاءين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع منّى هذا البلعوم»(5)

---

1 - أبو الحسن علي الششتري، الديوان، تحقيق، د. علي سامي النشار ،ط1 ، الإسكندرية : المعارف 1960 م ص11

2- أحمد زرّوق، قواعد التصوف وأصوله، تصحيح محمد زهري النجار، القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية 1968، ص 35.

3- ابن الصبّاغ، درة الأسرار، ص 33

4 - هو الصحابي الجليل عبد اللّه بن عامر الدوسي، صاحب رسول اللّه - صلّ اللّه عليه وسلّم - وأكثر أصحابه رواية للحديث توفي سنة 57هـ أنظر في ترجمته : ابن العماد شذرات الذهب، ج1، ص 63.

5- البخاري، الجامع الصحيح ، كتاب العلم. باب حفظ العلم، ط1. القاهرة: المطبعة العثمانية المصرية ، 1932م ، ج1، ص24.

وهكذا ابتعد الشاذلي عن «التصوف الفلسفي»، ولم يتصل بشيوخه، ولم يتورّط في ألفاظ الشطح كما تورّط غيره، ليسلم بموقفه هذا من الانتقاد، انقاذا لمجتمعه لأنه يعلم يقينا أن في القضاء على التصوف قضاء على روح الإسلام، وشعلة الإيمان.

لكن الشاذلي لم يكتف بالابتعاد عن «التصوف الفلسفي» فحسب، لأن موقفه هذا قد يوصف بالسلبيّة، وإنما وجدناه يقدم البديل عن أخطر النظريات التي عرف بها هذا النوع من التصوف أعني نظرية «وحدة الوجود»، وهو الشيء الإيجابي، في اعتقادنا في تجديده. ليحسم بذلك الجدل، والصراع القائم في تلك الفترة حول هذه النظريّة بعد أن ظهرت مكتملة، ومدعمة بالحجج العقليّة على يد «محيي الدين بن عربي».

فبدأ الشاذلي بعرض نظرية «وحدة الشهود» بدلا عن «وحدة الوجود»، وتحدوه في ذلك رغبة قوية في تنظيم الحياة المجتمعيّة، بنور التزكية والتربية، ولكن قبل عرضنا لهذه النظرية التي يقوم عليها التصوف السنّي العملي يحسن بنا أن نتطرق إلى فحوى نظريّة «وحدة الوجود».

2 . 1 وحدة الوجود :

مؤسس هذه النظريّة هو «محيي الدين بن عربي» (ت 638هـ). وإن وجدت بذورها الأولى عند «أبي يزيد البسطامي»، و«الحلاج »و «ابن مسرة»، غير أن «ابن عربي»، كما يقول «أحمد السرهندي»(1) « هو الذي وضع لها أبوابا، وفصولا كما هو الشأن في علم النحو والصرف» (2)

ولعل أهم كتبه التي بسط فيها هذه النظّرية موسوعته الضخمة «الفتوحات المكيّة»، وكتابه «فصوص الحكم» ويلخص لنا «ابن عربي» فكرته الرئيسية في هذا المذهب بقوله :

> إن الحقيقة الوجوديّة، واحدة في جوهرها وذاتها، متكثرة بصفاتها وأسمائها، لاتعدد فيها إلا بالاعتبارات، والنّسب، والإضافات(3).

1- هو أحمد بن عبد الأحد السرهندي، المعروف بمجدد الألف الثاني، ولد سنة 971 هـ أهم كتبه، مكتوبات الإمام الرباني وقد ترجم بعضه إلى اللّغة العربيّة، توفي سنة 1034 هـ، أنظر في ترجمته : أبو الحسن الندوي، الإمام السرهندي حياته وأعماله.ص113،114.

2- نقلا عن : أبي الحسن الندوي، الإمام السرهندي، ص 239.

3- ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق الدكتور أبو العلاء عفيفي، بيروت : دار الكتاب العربي ، ص 24.

وهذه الحقيقة التي يتحدث عنها قديمة لاتتغير بالرغم من اعتقاده بتغيّر المظاهر، أي الصور الوجودية، وهو في ذلك يشبهها بالبحر الزاخر الذي لاساحل له، وليس الموجود المدرك المحسوس عنده إلا أمواج ذلك البحر، يقول« ابن عربي»:

فإذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هي «الحق»،
وإذا نظرت إليها من حيث صفاتها وأسمائها
أي من حيث ظهورها في أعيان الممكنات قلت هي« الخلق»،
أو العالم فهي الحق والخلق، والواحد والكثير، والقديم
والحادث، والأول والآخر، والظاهر والباطن» (1)

وهو عين ماعبر عنه «عبد الكريم الجيلي» (2) في «العينيّه» حيث قال :

وما الخلق في التمثال إلا كثلجة ♣♣ وأنت بها الماء الذي هو نابع
فما الثلج في تحقيقنا غيرمائه ♣♣ وغيران في حكم دعته الشرائع
ولكن يذوب الثلج يرفع حكمه ♣♣ ويوضع حكم الماء والأمرواقع(3)

غير أن الغريب حقا أن «ابن عربي» مع إيغاله في هذه النزعة نجده في غير موضع من كتبه، يحث على التمسك بالشريعة، ولعلّ في هذه القصّة التي يوردها في كتابه «الفتوحات المكيّة» مايكشف عن تعظيمه للشريعة يقول :

«رأيت في واقعة، وأنا ببغداد سنة 608 هـ. قد فتحت أبواب السماء، ونزلت خزائن المكر الإلهي مثل المطر العام، وسمعت ملكا يقول ماذا نزل إليه من المكر؟ فاستيقظت مرعوبا ونظرت في السلامة من ذلك، فلم أجدها إلا في العلم بميزان الشرع، فمن أراد اللهّ به خيرا، وعصمه من غوائل المكر، فلا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله»(4)

---

1 -ابن عربي ،فصوص ،ص 25.

2 - هو عبد الكريم الجيلي ولد سنة (767هـ). وتوفي سنة (811هـ). من أهّم كتبه : الإنسان الكامل، أنظر في ترجمته :A;GOLD ZIHER ENCY DE LISLAME; ART; ABD - KARIM AL- DGILI; ED PARIS 1913.P.118.

3- عبد الكريم الجيلي، **الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر**، القاهرة : دار الطباعه سنة 1293 هـ، ج1، ص 62، 63.

4 - نقلا عن : أسين بلاثيوس، **ابن عربي حياته ومذهبه**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، بيروت،: دار القلم ، 1979م، ص 69.

ولعله بسبب آرائه هذه المنبثة، عن تعظيمه للشرع اختلف في أمره العلماء اختلافا كبيرا(1) بل إننا نجد خصمه« ابن تيمية» يقول مفرقا بينه وبين القائلين بهذا المذهب «كابن سبعين» وتلميذه «الششتري»، و«عفيف الدين التلمساني»، و«صدر الدين الرومي».

> لكن ابن عربي أقربهم إلى الإسلام، وأحسن كلاما في مواضع كثيرة، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر، فيقرر الأمر والنهي، والشرائع على ماهي عليه، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشائخ من الأخلاق، والعبادات، ولهذا كثير من العباد يأخذون منه سلوكه، فينتفعون بذلك وإن كانوا لايفقهون حقائقه(2)

أما عن «صدر الدين القونوي» وتلميذه «عفيف الدين التلمساني» فيقول ابن تيمية :

> «وأماصاحبه الصدر الرومي، فإنه كان متفلسفا،فهو أبعد عن الشريعة والإسلام، ولهذا كان الفاجر التلمساني «الملقب بالعفيف» يقول كان شيخي القديم - يقصد ابن عربي - متروحنا متفلسفا، والآخر فيلسوفا متروحنا -يعني الصدر الرومي-» (3)

---

1 - لقد استطاع علامة العراق الشهير نعمان خير الدين الألوسي أن يصنف آراء العلماء في ابن عربي فقسمهم - إلى ثلاثة أصناف.

الصنف الأول : من نص على التكفير بناء على كلامه المخالف للشريعة، كابن حجر العسقلاني، والسعد التفتازاني، وأبي حيّان الأندلسي وملا علي القاري.

القسم الثاني : من يجعله من أكابر الأولياء كعبد الوهاب الشعراني، وعبد الرؤوف المناوي، والمجد الفيروز آبادي، وعبد الغني النابلسي.

والقسم الثالث : من اعتقد ولايته وحرّم النظر في كتبه كالشيخ عبد الرحمن السيوطي وعلامة العراق الشهير شهاب الدين الألوسي المفسّر، أنظر تفصيل هذه الأقوال عند نعمان خير الدين الألوسي، جلاء العينين، ص 86- 90.

2 - نقلا عن:نعمان خير الدين الألوسي، نفس المرجع، ص 111. 112.

3 - نفس المرجع، ص 112.

ثم يقول ابن تيمية : أما «ابن سبعين» فإنه في «البدّ والإحاطة»، يقول أيضا «بوحده الوجود»، وأنه ماثم غيره(1).وابن عربي بالنسبة لهؤلاء، يعتبر معتدلا في آرائه ذلك لأنه يفرق بين المطلق والمعيّن، وبين الوجود والثبوت.(2)

حتى إننا نجد ابن تيمية يتحرج في الحكم بتكفير الرجل، وفي هذا المعنى يقول:

الله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات [رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ، وَلاَتَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ*] (3).

2 . 2 وحدة الشهود : وأهم من صرّح بها، ودعا إليها الشيخ «يحي المنيري»(4) (ت 782 هـ) و«أحمد السرهندي» (ت 1034هـ)، حيث عرفت بهما، غير أنّه والحقيقة تقال : إنّ هذه النزعة هي الأساس الذي يقوم عليه التصوف السنّي، ولانبعد عن الصواب إن قلنا بأنه لاتصوف بدون «وحدة شهود»، وفيما يلي بيان هذه النظرية، يقول الشيخ «المنيري» مبينا الفرق بين «وحدة الوجود»، «ووحدة الشهود» في كلمتين خفيفتين.«عدم الأشياء وفناؤها شيء، وعدم رؤيتها شيء آخر»(5)

ويذكر الإمام «السرهندي» في رسالة كتبها إلى الشيخ« فريد البخاري» نزعة كلا المدرستين بقوله :

---

1 - نقلا عن:نعمان خير الدين الألوسي، جلاء العينين ، ص 113.

2- نفس المرجع، ص 112.

*- الحشر، آية : 10.

3- الألوسي، المرجع السابق، ص 110.

4- هو الشيخ يحي المنيري، له عدة مؤلفات باللغة الفارسية منها : «سه صدى»، ومن أجل تلامذه الشيخ زين الدين بدر العربي. توفي سنة 782هـ. نقلا عن : أبي الحسن علي الحسني الندوي، ربانية لا رهبانيّة، ط4، بيروت : مؤسسة الرسالة 1986م، ص 143 - 148.

5- من كلام المنيري نقلا عن : أبي الحسن علي الحسني الندوي، الإمام السرهندي، ص 250.

إن التوحيد الذي يحصل للصوفية في أثناء سلوكهم ينقسم إلى قسمين : التوحيد الشهودي، والتوحيد الوجودي، والتوحيد الشهودي عن رؤية واحد، أي لايكون شهود السالك إلا فردا واحدا، والتوحيد الوجودي عبارة عن اعتقاد وجود وفناء كل ماسواه وعدمه (1)

وهذه الحالة يعبر عنها الصوفيّة «بالفناء»، أو «الجمع»، وقد وردت عن متقدّميهم إشارات تعبر عن هذه الأحوال، وممن صرح بهذا من المتقدّمين - القشيري - الذي يعد بحق أهم من وضّح عقائد الصوفية، وعبر عن أحوالهم ، وفي هذا المعنى يقول :

«وإذا قيل فني عن نفسه، وعن الخلق فنفسه موجوده، والخلق موجودون، ولكنّه لاعلم له بهم ولابه، ولااحساس ولاخبر، فتكون نفسه موجوده، والخلق موجودين، ولكنّه غافل عن نفسه، وعن الخلق أجمعين غير محس بنفسه، وبالخلق» (2)

وينبغي أن نشير في هذا المقام أن الإمامين الجليلين ابن تيمية، وابن القيّم - رحمهما الله- لاينكران هذه الحالة يقول ابن تيمية :

وأمّا النوع الثاني، وهو فناء القلب عن شهود وتمييز سوى الله سبحانه، وهذا يحصل لكثير من السّالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم عن أن تشهد غير ماتعبد، وترى غير ماتقصد، ولايخطر بقلوبهم غير الله، بل لايشعرون سواه... وهذا كثيرا مايقع لمن دهمه أمر من الأمور. إما حبّ، وإما خوف، وإمّا رجاء، يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء، بحيث يكون عند استغراقه بذلك لايشعر بغيره(3)

---

1 - أبو الحسن الندوي، الإمام السرهندي حياته وأعماله، ص 256.

2- القشيري، الرسالة : ص 37.

3 -ابن تيمية، الرد الأقوم على مافي كتاب فصوص الحكم نقلا عن : د إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري، سيرته، آثاره، مذهبه في التصوف، ط1، بيروت : منشورات المكتبة العصرية، 1972م، ص 316.

وأما «ابن القيّم» - رحمه الله - فيقول عن «وحدة الشهود» أو«مقام الجمع» :

«وهم يشيرون- أي الصوفيّة - إلى كمال المعرفة، وارتفاع حجب الغفلة، والشك، والاعراض، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السّوى بالكليّة، فلا يشهد القلب سوى معروفه»(1)

ثم يذكر - رحمه الله - استدلال الصوفية على وجود هذه الحال بطلوع الشمس فيقول:

«وينظرون [يقصد الصوفيّة] هذا بطلوع الشمس، فإنّها إذا طلعت انطمس نور الكواكب، ولم تعدم الكواكب. وإنّما غطّى عليها نور الشمس، فلم يظهر لها وجود. وهي في الواقع موجودة في أماكنها، وهكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب قوي سلطانها، وزالت الموانع، والحجب عن القلب» (2)

ثم يقول «ابن القيّم» بعد هذا الكلام الشائق،« ولاينكر هذا إلا من ليس من أهله » (3)

وجماع القول إن «وحدة الشهود» هي الغيبة عن رؤية هذا التكثّر بمشاهدة أحدية الفاعليّة، أما« وحدة الوجود » فهي عدم هذا التكثر ونفيه في الوجود العيني، وماهذه الصور الوجوديّة حسب أصحاب هذه المدرسة إلا تعيينات للذات الواحدة. «هُوَ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ»(4)، وإن شئت قلت بعبارة أخرى إنّ «وحدة الشهود» حالة شعورية وجدانية، أما« وحدة الوجود » ، فهي نظر عقلي في طبيعة هذا الوجود .

1- ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي ، بيروت : دار الكتاب العربي ، [د.ت]ج3، ص 111.

2 - نفس المرجع والصفحة.

3 - نفس المرجع والصفحة.

4 - الحديد، آية : 3.

وأبو الحسن الشاذلي- بالنظر إلى أقواله - من الداعين لـ«وحدة الشهود » وفي هذا المعنى يقول:«إنّا لانرى أحدا من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان لابد ،فكالهباء إن فتشته لم تجده شيئا »(1).

وأقوال خلفائه من بعده،«كالمرسي»، و«ابن عطاء اللّه السكندري »كلّها تشير إلى «وحدة الشهود » و«أبو العباس المرسي »يقول : « العارف في فنائه لابد أن تبقى معه لطيفة علميّة عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان في بيت مظلم ،فهو عالم بوجوده ، وإن كان غير شاهد له» (2).

ورأي المرسي في «عفيف الدين التلمساني »(3) - أحد القائلين «بالوحدة المطلقة» أنه كافر مارق من الدين ،وقد عرفنا هذا من رواية ساقها ابن تيمية هذا نصها :

> حدثني كمال الدين المراغي أنه اجتمع بالشيخ أبي العبّاس المرسي الشاذلي، تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي، فقال عن التلمساني (وغيره) : هؤلاء كفّار يعتقدون أن الصنعة هي الصانع قال : وكنت قد عرضت على أن أدخل الخلوة على يده، فقلت أنا لا آخذ عنه هذا، وإنّما أتعلم منه أدب الخلوة، فقال لي : مثلك من يريد أن يتقرب إلى السلطان، على يد صاحب الأتون والزبال، فإذا كان الزبال هو الذي يقربه إلى السلطان كيف يكون حاله عند السلطان(4)

بالإضافة إلى ذلك فإن الشاذلي مرتبط« بالغزالي» الصوفي السنّي ،وكان يقول فيه : «إني لأشهد له بالصديقيّة العظمى »(5)، وكان يقول عن كتابه الإحياء

1- ابن عطا اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 43.

2-نفس المرجع، ص 220.

3 - هو الشاعر عفيف الدين التلمساني من أجل تلاميذ صدر الدين القونوي خليفة ابن عربي، ويعدّ من أعظم القائلين بالوحدة المطلقة قال عنه، ابن تيمية : وهو أخبث القوم ،وأعمقهم في الكفر لأنه لايفرق بين المطلق والمعيّن أنظر: خير الدين الألوسي : جلاءالعينين، ص 112.

4- ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، ج4، ص 76.

5 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 106.

«الإحياء يورثك العلم» (1) وتمسّك الشاذلي بالكتاب والسنّة واضح، ولاأدل على ذلك من حضور أساطين علماء عصره مجالس تذكيره،« كالعز بن عبد السلام»، و«عبد العظيم المنذري»،« وقطب الدين القسطلاني»، و«محيي الدين بن سراقه،» و«مجد الدين علي بن وهب القشيري »وغيرهم.(2).

فلو صدرت عنه ألفاظ الشطح، كما وردت عن غيره لكان هؤلاء أول مبادر لانكارها عليه، كالشيخ «ابن دقيق العيد» الذي صح إنكاره على الإتحادية، وتضليل عقولهم(3)، والشيخ «قطب الدين القسطلاني» الذي تولى الرد على عقيدة «ابن سبعين» ومن نحا نحوه - وهو الذي أكنّ في نفسه تقديرا عميقا للشيخ الشاذلي، وشهد له بالولاية(4) - وقد عرفناهذا من رواية ساقها «ابن تيمية» في إحدى رسائله هذا نصها :

> وحدثني صاحبنا الفقيه أبو الحسن علي بن قرياص أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلاني يصنف كتابا فقال : ماهذا ؟ فقال في الرد على ابن سبعين، وابن الفارض وأبي الحسن الجربي، والعفيف التلمساني (5)

فلو صدرت عن الشاذلي مثل تلك الآراء التي قال بها أصحاب «وحدة الوجود» لما رأينا هؤلاء العلماء الأجلاء يجلّونه كل هذا الإجلال، ومن أنكر عليه بعدهم لم يَعْدُ ألفاظا معدودة وردت في أحزابه جمعها «ابن الألوسي» لكن لاعلاقة لها بمذهب «وحدة الوجود».

وبهذا الأسلوب استطاع الشاذلي أن يجذب إليه نخبة من العلماء «كالعز بن عبد السلام» ، و«ابن دقيق العيد»... وهو مايعكس لنا صورة صادقة للمكانة الممتازة التي يتبوأها في المجتمع المصري. مما جعله في وضعيّة مناسبة لتأدية رسالته المتمثلة في نشر مبادىء التصوف السنّي ، ولكي يضمن الشيخ الانتشار الواسع لمبادئه بين مختلف الطبقات الشعبيّة، كان من الضروري عليه أن يغلّب في دعوته حالة« الصحو والبقاء» على حالة «السكر والفناء» ولاشك أن الشاذلي

1- نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن ، ص106

2- نفس المرجع، ص 71، 72.

3- عبد الرحمن السيوطي، تأييد الحقيقة العليّة في تشييد الطريقة الشاذليّة، ص 68.

4- ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 71.

5- ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، ج4، ص 75.

استلهم معنى ذلك من وصيّة أستاذه «عبد السلام بن مشيش» التي قال فيها: «وأدمن الشرب بكأسها -يقصد المحبّة - مع السّكر والصّحو» (1)

وهذا ماسنحاول أن نوضحه أكثر في العنصر الموالي.

3 - إشادة الشاذلي بحالة «الصحو والبقاء» على حالة «السكروالفناء» :

قلنا سابقا أن الشاذلي دعا إلى «وحدة الشهود» وإن شئت قلت إلى مقام «الجمع» أو «الفناء» وهي ألفاظ متغايرة ولكنّها تعبّر عن حقيقة واحدة.

لكن أليس الذي يعيش في «وحدة الشهود» لايشهد إلا واحدا كما لايحسّ بوجود كائنات حوله، ومن ثم فهو قائل لامحالة بإسقاط التكاليف، والأوامر الشّرعية؟ وهو مايعبر عنه الصوفيّة «بالسّكر».

الشاذلي لايترك هذه المعضلة دون حل وإنما نجده يوضح حل هذه المشكلة فيقول:

> **وربما غاب عن المحسوس والمعقول ... فذاك هو السّكر... وقد يردون إلى الذكر، والطاعات ،ولايحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات، فذاك وقت صحوهم، واتساع نظرهم ومزيد علمهم (2)**

فالشاذلي كما هو واضح في هذه العبارة أشار أولا إلى حالة «السّكر »،ثم أكد على أهميّة «البقاء» و «الصحو» وأشاد به لأنه أتم وأوفى عنده ،ثم ختم عبارته بقوله :«فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم» (3)

ولاشك أن ضوء الشمس أقوى من نور القمر، وما النهار إلا رمز لمقام «البقاء» أو «الصحو» أو «فرق الجمع» حيث تتميز فيه وجود الأشياء على خلاف «اللّيل » الذي يرمز إلى «الفناء» أو «الجمع» حيث تتلاشى فيه الكثرة.

و « البقاء» مقام الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -، وهو مظهر لكمال الولي، ولاشك أن في هذا الضمان الكافي لتحمل المسؤوليات، والتبعات الأخلاقية.

---

1 - ابن عطاء الله ، لطائف المنن، ص 54.

2 - نفس المرجع، ص 53.

3 - نفس المرجع والصفحة.

فيكون المتقرب في ظاهره سالكا، وفي باطنه مجذوبا، في ظاهره مع الحكمة، وفي باطنه مع القدرة، وفي هذا منتهى الجمع بين الشريعة والحقيقة، وهو مانلمسه في وصيّة الشيخ« العربي الدرقاوي» أحد كبار المجددين في المدرسة الشاذليّة في الشمال الأفريقي إذ يقول لخليفته «محمد الحرّاق» :«إن الشيخ الكامل هو الذي يكون في غاية السّكر وفي غاية الصحو، وفي غاية الجذب وفي غاية السلوك، وفي غاية الفناء وفي غاية البقاء»(1)

وهي وصيّة استلهم روحها من وصيّة الشاذلي لأحد مريديه كان كثيرا مايأتيه بآيات التوحيد فقال له :«فليكن الفرق في لسانك موجودا والجمع في باطنك مشهودا»(2)، وهل يبقى بعد ماأكد الشاذلي على أهمية «البقاء» مكان لاتهامه بأن لوازم أقواله في أحزابه، تفضي إلى تعطيل الأمر والنهي، على نحو ماأورد «ابن تيميه» ذلك في غير ماموضع من فتاويه(3)، وهو ماسنحاول أن نوضحه الآن.

والمتأمل المتعمق في عبارة الشيخ يجده -رحمه الله- يريد أن يقول حسب فهمنا له أن الأفعال الوجوديّة بأسرها خيرا كانت أو شرا، طاعة كانت أو معصية إذا نظرت إليها من حيث الحقيقة، فهي فعل الله وهو المتفرد باختراعها وعلى العبد أن يشهد هذه الحقيقة في باطنه.أما بلسانه فينبغي أن ينسبها إلى من ظهرت عليه بالنسبّة الشرعيّة.

ولا أعتقد أن في رأي الشاذلي هذا جنوحا عن عقيدة مذهب «أهل السنّة» كما يعبر عن ذلك «الأشاعرة»(4) لمن تعمق مذهبهم.

---

1 - محمد داود، تاريخ تطوان، ط2، تطوان : مكتبة كريما دسيس، القسم الثاني من المجلد السادس، ج17، ص 289.

2 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 199، 200.

3 - ابن تيمية. مجموعة الفتاوي، ج8، ص 232.

4 - الأشاعرة هم أصحاب أبي الحسن الأشعري، إمام المذهب السنّي المشهور المتوفى سنة 324 هـ. ورأيه في مسألة الفعل الإنساني أن لاتأثير للقدرة الحادثة في الإحداث... غير أن الله أجرى سنته بأن يحقق عقيب القدرة الحادثة، أو تحتها أو معها : الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرّد له ويسمى هذا الفعل كسبا فيكون خلقا من الله إبداعا وإحداثا، وكسبا من العبد : حصولا تحت قدرته ، أنظر تحرير المسألة عند. محمد بن عبد الكريم الشهر ستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيّد كيلاني، بيروت : دار المعرفة، [د، ت]، ج1، ص 96، 97.

والشيء الملفت للإنتباه أن يكون هذا الاعتراض، صادرا من عالم سنّي كبير «كابن تيميّة» إذ لوكان المعترض معتزليا لكان متماشيا في ذلك مع روح مذهبه، ومما يعلق في أذهاننا ويصلح أن يكون تعبيرا حسنا على عقيدة «أهل السنّة» في هذه المسألة الإمام «أحمد الدردير» (1) -رحمه الله تعالى - في خريدته البهيّة.

والفعل والتأثير ليس إلا ***** للواحد القهار جل وعلا
ومن يقل بالطبع أو بالعلّة ***** فذاك كفر عند أهل الملّة
ومـن يقل بالقوة المودعة ***** فذاك بدعى فلا تلتفت(2)

والواقع أن «ابن تيمية» جانبه الصواب في هذا الاتهام، ومن ينظر في حياة الشاذلي وتعظيم أكابر العلماء له «كالعز» و«المنذري»، و«ابن دقيق العيد»... يجد صدق مانقول ويدرك يقينا أنه مبني على غير أساس.وبخاصة أن نصوص الشاذلي الدالة على تعظيمه للشريعة، وضرورة اتخاذها الحصن، والملجأ الذي يلجأ إليه المتقّرب إلى الله - بين أيدينا - ترد هذا القول من أساسه وتأمل في بعض مايقول :

«كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل إليه النّفس وتلتذ به الطبيعة، فارم به وإن كان حقا، وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله واقتد به، وبالخلفاء، والصحابة والتابعين من بعده وبالأئمة الهداة المبرئين عن الهوى، تسلم من الشكوك والظنون، والأوهام والدعاوي الكاذبة المضلّة، عن الهدى وحقائقه».(3)

وأنظر قوله :« إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة فلا تعبأن به» (4)

---

1 - هو أبو البركات أحمد العدوي الشهير بالدردير، ولد سنة 1127 هـ، من أهم مؤلفاته : أقرب المسالك، والخريدة في التوحيد، وشرح المختصر، توفي سنة 1201 هـ. أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 359.

2 - أحمد الدردير، **شرح الخريده البهيّة**، ط1، القاهرة : المطبعة الميمنية، 1313 هـ، ص 34، 35.

3 - نقلا عن: عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4، 5.

4 - نقلا عن: محمد بن محمد حسن ظافر المدني، **الأنوار القدسيّة في طرق القوم العلية**، ط3، تركيا : مكتب الصنائع البهيّة، 1304 هـ، ص 118.

وقوله :

« إيّاك والوقوع في المعصية المرة بعد المرّة، فإن من تعدى حدود الله فهو الظالم، والظالم لايكون إماما، ومن ترك المعاصي، وصبر على ماابتلاه الله، وأيقن بوعد الله ووعيده فهو الإمام وإن قلت أتباعه»(1)

ولو عرف« ابن تيمية» هذا كلّه لكان أصوب رأيا، وأقوم فهما لعبارة الشاذلي.

وإذا أدركنا بعد ذلك أن الشاذلي كان يوجه كلامه إلى مريد في بداية انخطافة عن رؤية الخلق بمشاهدة الخالق، وعن رؤية الأسباب بمشاهدة مسبّب الأسباب كما تشير إلى ذلك رواية ابن عطاء الله السكندري في «لطائف المنن» (2)، إذ تذكر أن هذا المريد كان كثيرا مايأتي الشيخ بآيات التوحيد وهي آيات كان يستأنس بها عندما ارتقى ذلك المقام الصعب كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ» (3) أو قوله : «وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ» (4) أو قوله : «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »(5) وغيرها كثير..

وهي آيات تفتح لها قلب هذا المحب الغريق في لجة «الفناء»،فما كان من الشاذلي إلا أن أرشده إلى الكمال، بأن دلّه على« البقاء»،أوقل على «فرق الجمع» وهي إجابة تكشف عن علو كعب الشاذلي في المعارف الإلهيّة.

وهاهو ترجمان هذه المدرسة وناشر أنوارها« ابن عطاء اللّه السكندري» يشرح جانبا من هذه الحقيقة، فيقول في رسالة كتبها لبعض إخوانه نوردها حرصا منّا على دقته في التعبير يقول له فيها:

« إن كانت عين القلب، تنظر إلى أنّ الله واحد في منّته، فالشريعة تقضي أن لابد من شكر خليقته، وأن النّاس في ذلك ثلاثة أقسام :

---

1 - محمد بن محمد ظافر المدني، الأنوارالقدسية، ص 114، 115.

2 - ابن عطاء الله السكندري، ص 199، 200.

3 - الفتح، آية : 24.

4 - يوسف، آية : 100.

5- النصر، آية : 1

أ - غافل منهمك في غفلته، قويت دائرة حسّه، وانطمست حضرة قدسه، فنظر الإحسان من المخلوقين، ولم يشهده من ربّ العالمين، إمّا اعتقادا فشركه جلّي، وإما استنادا فشركه خفي.

ب - وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفني عن الأسباب بشهود مسبّب الأسباب، فهو عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة قد استولى على مداها غير أنّه غريق الأنوار مطموس الآثار، قد غلب سكره على صحوه، وجمعه على فرقة، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره.

ج - وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوا، وغاب فازداد حضورا، فلا جمعة يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصرفه عن بقائه، ولابقاؤه يصده عن فنائه، يعطي كل ذي قسط قسطه، ويوفي كل ذي حق حقّه... » (1)

ولاشك أن إشادة الشاذلي «بالبقاء» على «الفناء»، و «الصحو» على «السّكر» وحرصه على ذلك رؤية تجديدية للتصوف، ومحاولة جادة لاخراجه من شرنقته الضيقة، لإنزاله إلى دنيا الناس، وواقع الحياة المعيش ، ويبدو أن المرسي خليفة الشاذلي كان واعيا بالإصلاح الذي أدخله أستاذه وهوما نستشفه من رواية ساقها ابن عطا اللّه السكندري في كتابه «لطائف المنن» قال رحمه اللّه :

سمعت الطلبة يقولون : من صحب المشائخ لايجيء منه في العلم الظاهر شيء، فشق عليّ أن يفوتني العلم، وأن تفوتني صحبة الشيخ، فجئته فوجدته يأكل لحما بخّل. فقلت في نفسي :

ليت الشيخ يطعمني لقمة من يده؟ فما استتممت الخاطر إلا وقد وضع في فمي لقمة من يده، ثم قال : نحن إذا صحبنا تاجرا مانقول له أترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعه... أو طالب علم، نقرّ كل واحد فيما أقامه اللّه تعالى فيه، وماقسم له على أيدينا هو واصل إليه(2)

---

1 - بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 198، 199.

2 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 114، 115.

ثم يقول كالمعلل له سر ذلك:

وقد صحب رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - صحابته فما قال لتاجر أترك تجارتك، ولالذي صنعة أترك صنعتك، بل أقرهم على أسبابهم ، وأمرهم بتقوى الله فيها (1)

وهذا نص يدل بوضوح على طريقة الشاذلي، وخلفائه في التربية كما يدل على فهم عميق لمقاصد الشريعة، ولما ينبغي أن يكون عليه كل تصوف، وفي هذا تفسير لأهم الأسباب التي جعلت «المدرسة الشاذلية» تبتعد عن المغالاة في التجريد عدو كل تطور علمي وثقافي، وتتخلى بالكليّة عن «تجربة التطهير»، أو «خرق العوائد» وهو ما سنوضحه في المبحث الموالي.

خامسا - الشاذلي وتجربة «خرق العوائد» :

بيّنا أن الشاذلي أصبح يدعو إلى نوع جديد من التصوف، تصوف يشمل جميع مرافق الحياة، كمالايمنع من تعاطي أسبابها، ومادام الشاذلي يريد نشر التصوف على أوسع نطاق بين أفراد المجتمع كان عليه أن يعيد النظر في تجربة «خرق العوائد» التي يقوم عليها التصوف القديم - خصوصا عند الملامتية (2) - لأن هذا الأسلوب مع دلالته التربويّة، عفّ عنه الزمن، وأصبح لايتماشى مع روح العصر السائدة، ولقد أدرك الشاذلي ببعد نظره أن ليس المقصود من تجربة «خرق العوائد» ذاتها كما يتبادر إلى ذهن بعض الحرفيين، وإنما مايحصل منها من الفوائد كتطهير الباطن وصقله، وهذا يمكن أن يتم بتشبع المؤمن بحقيقة اليقين إذ كلما قويت عواصف اليقين - كما يقول المرسي - يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه (3)، دون حاجة إلى «خرق عوائده» ولعل المرسى استلهم روح هذه الطريقة من قول الرسول - صلّى الله عليه وسلّم - في دعائه :« **اللهم اقسم لنا من خشيتك مايحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك من تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدّنيا**»(4)

لذلك بدأ الشاذلي بتغيير الاعتقاد السائد في الدوائر الصوفيّة عن هذا العالم، حيث كانوا لاينظرون إليه إلا بمنظار التفاهة،وعدم الواقعيّة كما كانوا يعتبرونه بمثابة

---

1 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 115.

2 - الملامتية أو «أهل الملامة» فرقة من فرق الصوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث بمدينة نيسابور بخراسان، والملامتي لايرى لنفسه حظا، ولايطمئن إليها على الإطلاق لأنه يعتقد أن النفس شر محض، ولايصدر منها إلا مايوافق طبعها . راجع : الهجويري، كشف المحجوب، ص 259.

3 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 218.

4- أخرجه الترمذي ، في السنن ، كتاب الدعوات، أنظر: أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ط4، دمشق: دار العلم للجميع[د.ت] ج13، ص 32 .

عقوبة سجن للإنسان ولروحه فثار الشاذلي على هذا التصور، وقال كلا فإن

آدم خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، واسكنه جنّته .....ثم نزل به إلى الأرض، والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به الأرض ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً» ما قال في السماء ولا في الجَنّة، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لانزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنّة بالتعريف، فأنزله الله إلى الأرض ليعبده بالتكليف،فلما توفرت فيه العبوديّتان استحق أن يكون خليفة، وأنت أيضا - يقصد الإنسان بصفة عامة - لك قسط من آدم(1)

فما الموجب إذن للضيق من هذا العالم والتبرم منه، والدعوة إلى خرق عوائده، وسننه التي أودعها الله فيه، وفي هذا أساس «طريقة الشكر» عند الشاذلي كما يشير إلى ذلك «عبد العزيز الدبّاغ»(2) في مقابل «طريقة المجاهدة»(3) في التصوف القديم، ولقد نهج الشاذلي بهذا منهجا جديدا في التصوف لم يسبقه إليه فيه أحد وهو ماعبرّ عنه «داود بن باخلا» بقوله : **«جاء في طريق الله بالأسلوب العجيب، والمنهج الغريب والمسلك العزيز القريب»** (4) ، فليس غريبا بعد ذلك أن نرى أسلوب الشاذلي في حياته، يختلف عن أسلوب المتصوفة قبله فلقد كان -رحمه الله- «يلبس الفاخر من الثيّاب، ويركب الفاره من الدواب، ويتخذ الخيل الجياد، ولاتعجبه المرقعات التي يتخذها عامة المتصوفة»(5) ويذكر مترجموه أنه دخل عليه يوما فقير، وعليه ملابس شعر فلما فرغ الشيخ من حديثه دنا من الشيخ، وأمسك بملبسه الجميل، وقال ياسيّدي:« ماعبد الله بهذا اللّباس الذي عليك، فأمسك الشيخ بملبسه فوجد فيه خشونة فقال له : ولاعبد الله بهذا اللّباس الذي عليك. لباسي يقول:

---

1 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 84، 85؛ وانظر أيضا ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 105.

2 - هو عبدالعزيز بن مسعود الدباغ من أهم تآليفه كتاب الأبريز الذي جمعه تلميذه أحمد بن المبارك. توفي سنة 1130 هـ، أنظر في ترجمته: عبد العزيز الدباغ، مقدمة ، **الأبريز** ،جمع أحمد بن المبارك، القاهرة، مكتبة ومطبعة، محمد علي صبيح وأولاده، [د. ت]، ص2 - 36.

3 - نفس المرجع، ص : 211.

4 - داود بن باخلا، اللطيفة المرضية ، ص 6.

5 - علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 34.

أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطوني»(1)

بمثل هذه المفاهيم الجديدة، والنظرات العميقة التي تكشف عن مدى فهم الشاذلي لمقاصد الشريعة، وروح التصوف صار الشاذلي يدعو إلى هذا اللّون من التصوف الجديد، ويبشّر به بين أفراد المجتمع الإسلامي.

ويذكر المرسي أنه دخل يوما على الشيخ وفي نيته العزم على أكل الخشن من الطعام، ولبسه الخشن من الثيّاب فقال له :« **يا أبا العباس أعرف اللّه وكن كيف شئت» (2)**

ويؤكد الشاذلي هذا المبدأ الذي صيّره أساسا في طريقته في قوله لأحد مريديه كان يهم بشرب الماء الساخن فقال له : « **يابنّي بردّ الماء فإنّك إذا شربت الماء البارد، فقلت الحمد للّه استجاب لك كل عضو من أعضائك بالحمد للّه» (3)**

وإذا كان رؤساء بعض الطرق الصوفيّة ،يتفننون في إرهاق مريديهم بأنواع من التكاليف، وضروب من المجاهدات الشاقة كما اتخذوا من عادة تجريد مريديهم من أموالهم أساسا في التربية فإن الشاذلي رفض هذا الأسلوب بالجملة.

وعلى ضوء هذا المنهج الجديد في التربية سار« أبو العباس المرسي» في تهذيب نفوس أصحابه. ويذكر «ابن عطاء اللّه السكندري» أنه كان كثيرا مايحكى عن الشيخ« عبد الرزاق» الولي الكبير -رضي اللّه عنه - أن رجلا من أهل المهديّة أتاه... فقال له الشيخ أرى عليك أثر النعمة فمن أين أنت؟ وماقصتك؟ فقال : كنت من أكابر المهديّة وأعيانها، وأكثرها مالا وعزا، فورد علينا رجل يدعي أنه من الدالين على اللّه فجئت إليه؟ وأنا متطلع محترق على الوصول إلى اللّه. فقال لي :

إنك لاتصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله وحتى تطلق نساءك بتاتا وحتىٰ تغيّر زيّك ففعلت ! فما ازداد قلبي إلا قسوة فضاق صدري، ولقد ذهب ماكنت فيه من المال، ولم أتعوض عن ذلك شيئا في باطني، فقال الشيخ عبد الرزاق: دعوة على غير بصيره قاتلهم اللّه فما كان منه إلا أن دلّه إلى طريقة يسترّد بها ثروته ففعل ذلك، ثم فتّح اللّه عيني قلبه في هذا الطريق (4)

---

1 - نقلا عن ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 201.

2- نفس المرجع، ص 200.

3 - نفس المرجع، ص 201.

4 -نفس المرجع، ص 218، 219.

لذلك كان المرسي يقول عن طريقته، وطريقة شيخه :

نحن إذا جاءنا مريد له شيء من الدنيا لانقول له أخرج دنياك وتعال، ولكن ندعه حتى تترشح فيه أنوار المنة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه(1)

ويزيد «أبو العبّاس المرسي» هذا المعنى ايضاحا بتمثيله له في سياق قصة طريفة نوردها لطرافتها يقول :

«ومثل ذلك قوم، ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها غدا تهب ريح شديدة.ولا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم، فارموا بها الآن، فلم يسمع أحد قوله فإذا هبّت العواصف كان الكيّس من يرمي متاعه بنفسه»(2)

ثم يعلق المرسي على هذه القصة بجملة قصيرة حقها أن تكتب بماء الذهب لأنه لخص فيها طريقة الشكر التي أتى بها الشاذلي في تصوفه المجدد فقال :«فكذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه»(3).

وهذا ماسنتوسع فيه أكثر في المبحث الموالي.

سادسا : الشاذلي « وطريقة الشكر» :

أشرنا فيما سبق وفي أكثر من مناسبة إلى «طريقة الشكر» التي أتى بها الشاذلي، واعتبرنا ذلك من أهم مآثر تجديد الرجل في ميدان التصوف، ولسنا الآن بصدد تكرار ماقلناه عن بعض مظاهر هذا المنهج في جانبه «البرّاني» ولكن نحب أن نعنى بالجانب « الجوّاني» منه ، إذا سمح لنا الأستاذ «عثمان أمين »(4) باستعارة هذا الاصطلاح منه.

---

1 - ابن عطا الله السكندري، لطائف المنن، ص 218.

2 - نفس المرجع، ص 218.

3 - نفس المرجع والصفحة.

4 - عثمان أمين، فيلسوف مصري له عدة مؤلفات من أهمها كتابه الجوّانية الذي أودع فيه خلاصة مذهبه الفلسفي ، طبع هذا الكتاب عدة مرّات.

ويبدو أن الشاذلي انتبه إلى هذه الطريقة بعد حادثة وقعت له وهو في «جبل زغوان »بتونس يتعبد، فلنستمع إليه وهو يروي هذه الحادثة بنفسه قال- رحمه الله-:

كنت أنا وصاحب لي قد أوينا إلى مغارة، نطلب الوصول إلى الله، فكنّا نقول غدا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، فدخل علينا رجل له هيبة، فقلنا له من أنت؟ فقال : عبد الملك؟ فعلمنا أنه من أولياء الله! فقلنا له كيف حالك؟ فقال كيف حال من يقول غدا يفتح لي، بعد غد يفتح لي، فلا ولاية، ولافلاح يانفس لم لاتعبدين الله قال : فتفطنا من أين دخل علينا، فتبنا واستغفرنا، ففتح لنا (1)

وهذه القصة على طرافتها تشير إلى حقيقتين مهمتين :أولهما انغماس الشاذلي في «طريقة المجاهدة» التي تهدف للوصول إلى الله عن طريق الكشف متخذة من الصوم، والصلاة، والسهر وسيلة إلى ذلك. وهنايبرز الشاذلي متأثرا بالجو الذي عاش فيه، حتى يحدث له تنبيه من طرف «عبد الملك» إلى خطأ هذا المسلك، ثم أرشده إلى طريق الله الصحيح المتمثل في العبوديّة الصرفة، والتبري من الحظوظ النفسانية، فما كان من الشاذلي إلا أن استغفر مما كان فيه وتاب، فحصل له الفتح بعد ذلك.

ولاشك أن هذه اليقظة التي حصلت له، دفعته فيما بعد أن يقوم بثورة شاملة، وتغيير جذري للتصوف يختلف عن «التصوف الإشراقي» الذي نجده عند «شهاب الدين السهروردي»(2) المقتول كما يختلف عن تصوف «الغزالي السنّي» في منهجه.

ويمكننا أن نلخص مميزات هذا التجديد الشاذلي لطريقة الشكر فيما يلي :

- أن غاية السالك في «طريقة الشكر» منذ البداية تكون إلى الله، وذلك بالصدق في العبوديّة، وترك الميول النفسيّة لنيل المراتب والكشوفات، وعلى هذا كان مدار «طريقة الشاذلي» في التربية وهو مايبرز لنا جليا في القصة السابقة على خلاف الطريق الإشراقي.

---

1 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 88.

2 - هو الشيخ شهاب الدين السهروردي، ولد سنة 551هـ. من أهم مؤلفاته :هياكل النور، وحكمة الإشراق توفي مقتولا سنة 587 هـ أنظر في ترجمته : ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص 268- 274؛ ابن العماد شذرات الذهب، ج4، ص 263؛ ابن حجر، لسان الميزان، ج3، ص 156.

- أن العمدة في «طريقة الشكر» يكون على اليقين، وفي هذا أساس ماسميه الشيخ «أحمد زروق» بتصوف الأصولي حيث يقول :

وللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي، ومن نحا نحوه، وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه، وللمتريض تصوف نبه عليه القشيري في رسالته، وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه(1)

ويوضح لنا« زروق» تصوف الأصولي فيقول :«ومدار الأصولي على تحلية الإيمان بالإيقان، وتحقيق اليقين حتى يكون في معد العيان» (2).

وهو مايفسّر لنا حرص الشاذلي على تقوية اليقين عند مريديه حيث كان «يدلّهم على الانجماع على اللّه، وعدم التفرقة عليه»(3) وما ذلك إلا لأن اليقين يسهل طريق السير إلى اللّه، وفي هذا المعنى يقول : « خصلتان تسهلان الطريق المعرفة والمحبّة»(4) ويشير بالمعرفة إلى صدق اليقين، وإذا استقر اليقين في سويداء القلب انشعب منه الشكر الذي هو عبارة كما يقول المرسي: « عن انفتاح القلب لشهود منّة الرّب» (5).فيصير المتقرب يرى كل النعم الظاهرة، والباطنة صادرة منه جل وعلا حتى يصير إلى حالة لايرى فيها منعما عليه غيره في هذا الوجود(6)، فتورثه هذه المشاهدة حالا من المحبّة بخاصة إذا انضاف إليها استحضاره لنعم اللّه السابقة عليه فيما مضى من حياته، وفي هذا المعنى يقول الشاذلي ملخصا لهذه الطريقة :

---

1 - أحمد زروق، قواعد التصوف، ص 35 .

2 - نفس المرجع ص44 .

3 -ابن عياد، المفاخر العليّة، ص 60.

4 - نفس المرجع، ص 104.

5 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 221.

6 - نفس المرجع، ص 86.

ومن أخلد إلى أرض الشهوة واتبع الهوى ولم تساعده نفسه إلى التخلي، وغلب عن التحلي ،فعبوديته في أمرين : أحدهما معرفة النعم من الله فيما وهب له من الإيمان والتوحيد، إذ حبّبه إليه وزينه في قلبه ،وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان (1)

أما الأمر الثاني فسنتعرض إليه في معرض حديثنا في الميزة الثالثة «لطريقة الشكر».

- من المعروف والشائع أن التصوف قبيل مجيء الشاذلي، وكما يمثله «أبو حامد الغزالي» مداره كله على تهذيب النّفس ،وذلك بالبحث عن عيوبها وآفاتها أولا، ثم تحليتها بالفضائل الخلقيّة ثانيا وهو مايعبرعنه عند الصوفية «بالتخلية والتحلية»لكن الشاذلي لم يرتض هذه القاعدة التربويّة ورأى فيها إهدارا للجهد، وإضاعة للوقت إذ أن الذي يسعى في التفتيش عن عيوب نفسه بغرض تصفيتها، وتنقيتها لن يصل إلى ذلك أبدا وقد عبر ابن عطاء الله السكندري عن هذه الحقيقة في حكمة بليغة قال فيها :

لو أنك لاتصل إليه إلا بعد فناء مساويك، ومحو دعاويك لم تصل إليه أبدا، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطّى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك، لا بما منك إليه. لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول (2)

وهذا ولاشك نقد أساسي يوجهه ابن عطاء الله السكندري - وهو في صميمه يعبر عن رأي المدرسة الشاذلية - لطريقة التصوف القديم كما نجدها عند «الغزالي» في «الإحياء» وعند «الشهاب السهروردي» السنيّ في «عوارف المعارف» ،وهو ماجعل الشاذلي ينصرف عن هذه الطريقة على الرغم من أنه راض نفسه بها في بداية حياته إلى شيء أعلى وأسمى ،وهو الإتجاه إلى الله بصدق العبوديّة، وفي هذا المعنى يقول الشاذلي : **« والأمر الثاني: اللجأ والافتقار إلى الله دائما، ويقول اللّهم سلّم سلّم، ونجني وانقذني.»(3)**

---

1 - نقلا عن : ابن الصباغ الحميري، درة الأسرار، ص 74.

2 - بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 138، 139.

3 - نقلا عن : ابن الصباغ،المرجع السابق، ص 74.

ولاطريق للهداية، إلا من هذين الأمرين ، وهو ماعبر عنه الشاذلي صراحة فقال :

ولاطريق لمن غلبته الأقدار ، وقطعته عن العبوديّة المحضة لله إلا هذان الأمران ، فإن ضيعهما فالشقاوة حاصلة والبعد لازم والعياذ بالله (1)

والمتأمل يرى أن مدار «طريقة الشكر»- كما وضحناها في الميزتين السابقتين - على تعليق الهمة بالله، والتباعد عن الغفلة ، واللجأ إلى الله في الحركات والسكنات، وصدق الافتقار إليه وهذه كلها مجاهدات قلبيّة ولاغرابة في ذلك إذ أن مدار «طريقة الشكر» على «سير القلوب لاعلى سير الأبدان» (2) كما يقول «عبد العزيز الدباغ» بحق وهذا هو الأصل الذي بنى عليه الشاذلي «طريقة الشكر» وهو ماسنتعرض له أكثر في الميزة الرابعة.

- لسنا في حاجة إلى التأكيد بأن أساس «التخلية والتحلية» في التصوف القديم كان يقوم على ضرورة زهد المريد في الأشياء، لكن الذي نريد أن ننبه إليه أن الشاذلي غيّر هذا المفهوم الذي كان سائدا متأثرا في ذلك بوصية أستاذه «ابن مشيش » الذي أوصاه يوما وقال له :

«يسروا ولاتعسروا، ثم يبادر ليبين له ذلك فيقول: يعني دلوهم على الله ، ولاتدلوهم على غيره فإن من دلّك على الدنيا فقد غشّك ، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلّك على الله فقد نصحك . » (3)

ويبدو أن الشاذلي كان واعيا بحقيقة هذه النصيحة التي أوحى له بها أستاذه، إذ صار يعلن للناس : **«إن الشيخ الكامل من يدلّك على راحتك لا من يدلّك على تعبك»(4)**

ومعنى ذلك أن التصوف الجديد الذي أصبح الشاذلي يدعو له يقوم أساسا على مراعاة الله في الباطن ،ولاضير على الإنسان بعد ذلك إن لم يتلبس ظاهره بكثير عمل، أو كثير عبادة ، وليؤكد الشاذلي هذا المفهوم الجديد لأساس «التخليّة والتحليّة» شرع بنفسه في تنفيذ روح هذا المنهج وقد ذكر لنا مترجموه أنه كان يلبس الفاخر من الثياب كما كان يركب الفاره من الدواب (5) ليعطي

---

1 - نقلا عن : ابن الصباغ ، درة الأسرار، ص 74.

2 - عبد العزيز الدباغ، الأبريز، ص 211.

3 - أحمد زروق، قراعد التصوف، ص44

4 - نفس المرجع والصفحة.

5 - نقلا عن : علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 34.

بذلك النموذج لأصحابه وكان من الطبيعي أن يحدث هذا التغيير الجذري للتصوف القديم ردود أفعال من طرف المتشبعين بالمعنى القديم لقاعدة «التخلية والتحليّة» ،وأصبحوا ينتقدون الشاذلي ،وقد عرّض به يوما أحد الفقراء ،وقال له وهو ممسك بثوب الشيخ الجميل.

مـا عـبـد الـلّه بمثـل هـذا الـلّبـاس الـذي عـلـيـك.
فـأمـسـك الـشـيـخ بملـبـسـه الخـشـن وقـال لـه :
ولاعـبـد الـلّه بـهـذا الـلّبـاس الـذي عـلـيـك (1)

وهذه القصة على طرافتها تكشف كيف قلب الشاذلي النظرة القديمة السائدة عن الزهد، وليعطيه بعد ذلك بعدا جديدا عبر عنه صراحة بقوله : « **وحقيقة الزهد فراغ القلب مما سوى الرّب**»(2)

فالزهد حسب هذه النظرة الجديدة لايعني ترك الأشياء ذاتها، وإنما يعني تخليص القلب من الميل إليها بالهمّة أو بالفكرة ،وإذا حقق العبد ذلك فلا يضره تنعمه بالدنيا إذا كان معه الشكر، وفي هذا المعنى يقول مرددا صدى تعاليم أستاذه ابن مشيش الذي أوصاه ذات يوم أن يعبد اللّه عبادة الصديقين وبينها له بقوله :

عبادة الصديقين عشرون : كلوا، واشربوا، والبسوا، وانكحوا، واسكنوا، وضعوا كل شي حيث أمركم اللّه، ولاتسرفوا، واعبدوا اللّه، ولاتشركوا به، واشكروه، وعليكم بكف الأذى، وبذل النّدى فإنها نصف العقل، والنصف الثاني أداء الفرائض واجتناب المحارم والرضا بالقضاء...(3)

وحتى يؤكد الشاذلي هذا المفهوم الجديد للزهد في تصوفه كان عليه أن يرفض المفهوم القديم عن التوكل، حيث كان الناس يظنون أن التوكل ،والتجرد، والسياحة في البراري ،والقفار أشياء متلاقية بحيث لايمكن التمييز بينها.

الشاذلي ثار على هذا المفهوم للتوكل لأنه يؤدي بالصوفية إلى الانعزال عن المجتمع والابتعاد عنه، والشاذلي أولا وقبل كل شيء يريد إصلاح المجتمع عن طريق نشر الأخلاق والفضائل الصوفيّة، لذلك كان طبيعيا أن يغيّر النظرة القديمة السائدة

---

1 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 201.
2 - نقلا عن : ابن نلصباغ الحميري، درّة الأسرار،ص83.
3 - نفس المرجع، ص95.

عن التوكل والتي أصبح التصوف القديم أسيرا لها، وليعلن للناس كافة أن حقيقة التوكل عبارة عن حال قلبي وهو ماعبّر عنه صراحة بقوله :

حق التوكل هو صرف القلب عن كل شيء سوى الله، وحقيقته نسيان كل شيء سواه، وسرّه وجود الحق دون كل شيء تلقاه، وسرسرّه ملك وتمليك لما يحبّه ويرضاه(1)

وإذا كان التوكل حالا قلبيا، فما الموجب لترك الأسباب؟ وأي ضير في السير مع ماسنّه الله - تعالى - لعباده مادام القلب لايرى شيئا إلا ويرى الله دونه.

وهكذا صار الشاذلي يبيّن للناس كافة أن التوكل لايتعارض مع الأخذ بأسباب الحياة - ولطالما أعطى الشيخ المثل الحيّ من حياته الخاصة حيث كان يعمل في الحرث والزراعة - وفي هذا تمسك وانسجام مع «طريقة الشكر» من جهة ورجوع إلى ماسنهّ النبي-صلى الله عليه وسلّم -من جهة أخرى، وهو المعنى الذي عبّر عنه «سهل التستري» بقوله :«التوكل حال النبي - صلى الله عليه وسلّم - والكسب سنته فمن بقي على حاله فلا يتركن سنّته(2).

أو ماعبّرعنه أبو حامد الغزالي بقوله :«ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتشاقل عنها بالكليّة طعن في السنّة ،وقدح في الشرع»(3).

وهذا ماعمل المرسي خليفته من بعده على تنفيذه ، متأثرا في ذلك بتعاليم أستاذه ، حين صار يعلن للناس خاصتهم وعامتهم أن التصوف لايتعارض مع الكسب وفي هذا المعنى يقول : «نحن إذا صحبنا تاجر مانقول له أترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة... أو طالب علم.. ولكن نقر كل واحد فيما أقامه الله تعالى، وماقسمه الله على أيدينا هو واصل إليه» (4)

---

1 - نقلا عن :علي سالم عمّار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 152، 153.

2 - نقلا عن : القشيري، الرسالة البيانيّة، ص 77.

3 - أبو حامد الغزالي، إحياء الدين، ج4، ص 278.

4 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 114، 115.

ثم يقول كالمعلل سبب ذلك:

وقد صحب رسول الله ﷺ - صلّى الله عليه وسلّم - صحابته فما قال :

لتاجر أترك تجارتك، ولا لذي صنعة أترك صنعتك، بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها (1)

وبهذا التفكير الواقعي استطاع الشاذلي أن ينشر التصوف بين الجماهير الشعبيّة وحتى يضمن أكثر هذا الإقبال كان عليه أن يسّهل منهج الممارسة العرفانية على القاصدين طريق الإرادة وفي هذا المنهج مايشهد للشاذلي على كمال معرفته، ورسوخ قدمه وأنه بحق من أساطين الطريق المجددين للدين المشار إليهم في الحديث الشريف.« إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »(2) ذلك لأن العارف كلما علا مقامه كان أعرف بتقريب الطريق واختصارها على المريدين، وفي هذا التقريب أساس تجديد الشاذلي في التصوّف وهو مادعاه أن يقول عن مسلكه هذا الجديد. « ولقد جئت في هذا الطريق بما لم يأت به أحد » (3)

سابعا - تقريب الشاذلي لمنهج الممارسة العرفانيّة :

لسنا في صدد التذكير بأن الغاية من الطريق الصوفي كله على تعدد طرقه هي الوصول إلى معرفة الله.

لكن كيف نصل إلى هذه المعرفة؟

في المدرسة القديمة للتصوّف والتي يمثلها الغزالي الوصول إلى الله يتم بتدرج المريد من مرحلة إلى مرحلة، إذ يبدأ السّالك بتجريد النّفس من عوائقها وعلائقها، ثم المضي بها قدما في ترقي المقامات من توبة، وزهد، وصبر حتى يصل بها السّالك إلى مقام المحبّة والفناء.

---

1 -نقلا عن : ابن عطاء الله السّكندري، لطائف المنن ، ص115.

2 - أخرجه أبو داود من طريق أبي هريرة في أول كتاب الملاحم، قال محمد آبادي في عون المعبود «وحديث أبي هريرة سكت عنه المنذري، وقال السيوطي في مرقاة الصعود : إتفق الحفاظ على تصحيحه منهم الحاكم في المستدرك، والبيهقي في المدخل، وممن نص على صحته من المتأخرين ابن حجر». ا هـ

أنظر : محمد شمس الحق آبادي، عون المعبود، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة: المطبعة السلفيّة 1969م. ج11، ص 396.

3 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، المرجع السّا بق ،ص 77.

الشاذلي لم يسلك هذا الطريق عند تربيته لمريديه، ولقد تأسفت كثيرا عندما لاحظت أن الأستاذ «عبد الحليم محمود» عند كتابته فصل الطريق الصوفي عند الشاذلي، كتبه وهو متأثر بروح الغزالي والتصوف القديم، فغاب عنه بذلك اكتشاف عنصر تجديد الشاذلي(1) في منهج الممارسة العرفانية على الرغم من أن كثيرا من أعلام «المدرسة الشاذليّة» قد أشاروا إليه في مقدمة هؤلاء الشيخ «أحمد زروق» وهو ماوضحه في القاعدة (74) بقوله :

« تشعب الأصل قاض بالتشعب في الفرع، وكل طريقة للقوم لم يرجعوا بها لأصل واحد، بل لأصول غير الشاذليّة فإنهم بنوها على أصل واحد هو اسقاط التدبير مع الحق فيما دبره من القهريات والأمريات»(2).

ولاشك أن اسقاط التدبير مع الحقّ، مظهر للتحقق «بالتوحيد الشهودي» ولازم عنه غير أن هذا الأصل لم يتميز في التصوف القديم كما تميز عند الشاذليّة وفي هذا المعنى يقول «زروق» : «وهذه نكتة مذاهب القوم ، وحولها يحومون لكنهم لم يصرحوا بوجهها كهذه الطائفة - يقصد الشاذلية-»(3)

ما السبب في ذلك؟لاتعليل في رأينا على ذلك سوى أن« الفناء » في التصوف القديم كان يجعل آخر المقامات، وعنده ينتهي سير السالك وفي هذا المعنى يقول «الغزالي» متحدثا عن الطريق الصوفي من بدايته إلى نهايته.

«وأول شروطها تطهير القلب بالكليّة عما سوى اللّه تعالى، ومفتاحها- الجاري مجرى التحريم بالكليّة من الصلاة- استغراق القلب بالكليّة بذكر اللّه، وآخرها الفناء بالكليّة في اللّه. » (4)

1-عبد الحليم محمود، أبو الحسن الشاذلي،بيروت :المكتبة العصريّة،[د.ت]،ص123-154.

2- أحمد زروق، قواعد التصوف، ص 45.

2 - نفس المرجع والصفحة،

3 - أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود، ط2، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1985م، ص 127.

و في هذا المعنى يقول ابن عيّاد بعد أن يصف طريقة أهل اليمن في التربية:

«وأهل اليمن بنوا طريقتهم عل رؤية الحقّ والفناء فيه بأول قدم، وهم يتنعمون من أول قدم وعلى هذا طريق الشاذليّة»(1)

ويقول مصطفى المدني في كتابه «النصرة النبويّة لأهل الطريقة الشاذليّة» واصفا طريقة الشاذلي في التربية بأنه:

سهل الطريقة على الخليقة لأن طريقته أسهل الطرق وأقربها، لأنه بنى طريقته على رؤية الحق والفناء فيه، من أول قدم(2)

لكن كيف يصل المريد إلى هذا المقام بسهولة ؟وما الوسيلة التي استخدمها الشاذلي في ذلك؟الذي يظهر لنا أن الشاذلي اعتمد في ذلك على المحبّة وهو ماعبر عنه بقوله : «خصلتان يسهلان الطريق المعرفة والمحبّة» (3).

لذلك كان الشاذلي يوصي مريديه على الانجماع على حب الله(4)، لأن المحبّة هي التي تفتح باب معرفة الله على مصراعيها وهي أفضل وسيلة لتحصيل الانخطاف أو الانجذاب إلى الله وقد عبّر عن ذلك صراحة بقوله :«وحبّ الله قطب تدور عليه الخيرات، واصل جامع لأنواع الكرامات» (5)

ويبدو أن الشاذلي استلهم روح هذا المنهج من الحديث القدسي الذي رواه البخاري:«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها»(6)

---

1 - ابن عياد الشافعي، المفاخر العليّة في المآثر الشاذليّة، ص 146.

2 - مصطفى المدني، النصْرة النبوية لأهل الطريقة الشاذليّة الفاسية الدرقاوية المدنية، القاهرة : المطبعة الشرقية، 1316 هـ، ص 208.

3- نقلا عن : ابن عيّاد الشافعي، المرجع السابق ،ص 104.

4- ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 145.

5 - ابن عياد الشافعي، المرجع السّابق، ص 32.

6 - سبق تخريج هذا الحديث ، أنظر : ص86.

فليس بغريب أن نجده بعد ذلك يجعل المحبّة بمثابة قطب الرحى في العملية التربوية عنده، بل يعمد في تشييد صرح مدرسته على هذه الدعامة الكبرى متأثرا في ذلك بتعاليم أستاذه «عبد السلام بن مشيش» الذي أوصاه يوما فقال له :

ألزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت، ومن دنس حبّ الدنيا كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت، وعليك بمحبّة الله على التوقير والنزاهة، وادمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت حتى يكون سكرك وصحوك به (1)

ثم يقول كالموضح له أهمية المحبّة في تحصيل العرفان فيقول :

المحبّة آخذة من الله قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله ، وقدس كمال جلاله، وشراب المحبّة: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن يشاء(2)

وهكذا يكون الشاذلي من أوائل المتصوفة الذين تنبهوا إلى أهميّة المحبّة في تحصيل الممارسة العرفانية، وهو ماسنتعرض له بتوسع في الفصل الموالي .

ثامنا - دعوة الشاذلي الإنسانية :

ولا نحب أن نغادر شخصية الشاذلي دون أن نشير إلى السّمة الإنسانية التي امتازت بها دعوته. ، فقد كان متفطنا لحاجة المسلمين إلى الوحدة ونبذ الفرقة مما جعله يقول لأصحابه «**أصحبوني ولاأمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فردُوه**» **(3)** وهذا رأي انفرد به الشيخ من بين سائر شيوخ التربية، إذ بينما نرى الجمع الغفير من أرباب هذا الفن يكادون يجمعون على هذا الأصل، ويجعلونه حجر الأساس في العمليّة التربويّة نرى الشاذلي لايعترف بذلك ولاينتهجه في مسلكه التربوي، وماذاك إلا أنه أحسّ بأن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى نبذ الفرقة التي يغذيها عادة التعصّب والتحزّب.

---

1 - نقلا عن: ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 53، 54.

2 - نفس المرجع ، ص 54.

3 - نقلا عن: ابن عباد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 60.

وبهذا الوعي وبعد النظرة استطاع الشاذلي أن يقضي على التعصّب الأعمى للمشائخ وماينشأ عنه من عداوات، ومظاهر مبتذلة كالتملّق والتزيّد في حبّهم دون محاولة الإتصاف بحقائقهم وفي هذا أعظم الخطر على الوحدة الإسلامية، وعلى روح التصوف الحق وماأحوج دعاتنا اليوم إلى الأخذ بهذا المبدإ!

كما تمتاز دعوة الشاذلي في صميمها بإشادتها بالحريّة في أعلى مستوياتها، وهي في نظره تتمثل في صدق العبوديّة للّه بحيث يتخلصّ المرء من أشياء الدنيا وقيمها الأرضية، فتحرر بذلك روحه من جميع الشوائب المضللّة وقيود الرغبة والرهبة، فلايخاف مما يخاف منه الناس، ولايفرح بما يفرحون به عادة، وإنما يكون فرحه باللّه، قال تعالى : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» (1)

ولاشك أنّ هذا معنى رفيع للحريّة الإنسانيّة إذ تضفى على الإنسان معنى ساميا وهو ماعبّر عنه بقوله :«لن يصل العبد إلى اللّه، وباق معه شهوة من شهواته، ولا مشيئة من مشيئاته» (2)

وإذا وصل العبد إلى اللّه أصاب هناك الحريّة في أجمل صورها لأنه خلصّ نفسه من جميع الشهوات والمشيئات، ومن جميع التبعيات الكونيّة والعمليّة.

بهذه المواقف والنظرات العميقة في التصوف، ولمقاصد الشريعة نستطيع أن ندرك أهميّة التجديد الشاذلي، وهو تجديد يستحق أن يوصف بالتغيير الجذري لما كان عليه التصوف في الفترة التي سبقت ظهور دعوة الشاذلي.

ولم يقصر أبو الحسن الشاذلي نظرته في محاولة تطهير التصوف من الأفكار الغريبة والانحرافات الضارة، والممارسات المنحرفة حتى رأيناه يقدم البرهان الساطع على أنّ الصوفيّة أهل عمل، ورجال فعل مما يندهش له أولئك الذين يظنون التصوف مخرقة، ودروشة، ونشوة، وانجذاب ففتح بذلك باب تجديد العمل الديني بعد أن كادت الأمة تغرق في آفتي التجريد والتسييس كما هو حالنا اليوم.

1- يونس، آية : 58.

2- محمد بن محمد ظافر المدني، الأنوار القدسيّة ، ص 130.

الفصل الخامس

منهجه في الممارسة التحقيقيّة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قبل البدء في بيان منهج الشاذلي في تحصيل الممارسة التحقيقيّة، أرى من الضروري أن أطرق بحثا له صلة بما نحن في صدده ، وأعني به منهج الصوفيّة في الوصول إلى معرفة اللّه.

أولا- منهج الصوفيّة في الوصول إلى معرفة اللّه .

ترى المتصوفة أن العلوم المكتسبة عن طريق النّظر مشوبة بأحكام الوهم، وغير خالصة من التأثيرات الداخليّة ، والخارجية، والعقل في قياسه الغائب على الشاهد، إنما يلجأ إلى أشياء محسوسة ليصل إلى أمور غير محسوسة، ولا مناسبة بين الربّ وبين المحسوسات حتى يدرك بهذا الطريق، وهو ماعبّر عنه «محي الدين بن عربي» بقوله:

> إن الإنسان المدرك لايمكن أن يدرك شيئا أبدا إلا ومثله موجود فيه، ولولا ذلك ماأدركه البتّة، ولاعرفه، فإذا لم يعرف شيئا إلا وفيه مثل ذلك الشيء المعروف، فما عرف إلا مايشبهه ويشاكله، والباري تعالى لايشبهه شيء، ولا في شيء مثله فلا يعرف أبدا.(1)

وهو المعنى ذاته الذي حرص «عبد الكريم الجيلي» على تأكيده بقوله:

> اعلم أن ذات اللّه لاتدرك بمفهوم عبارة، ولاتفهم بمعلوم إشارة، لأن الشيء إنّما يفهم بما يناسبه فيطابقه، أو بما ينافيه فيضاده، فليس في ذاته في الوجود مناسب، ولامطابق، ولا منافٍ، ولامضاد(2)

وللصوفيّة في نقد «العقل المجرّد» آراء طريفة ومبتكرة لاتقل عمقا عن آراء الفيلسوف الألماني «إيما نويل كانط(3)» التي ضمنها كتابه الشهير «نقد العقل الخالص»إن لم نقل تزيد عليها أهميّة وثراء.(4).

والصوفيّة كلهم متفقون على أنّ الإنسان لايستطيع تحصيل المعرفة الإلهيّة عن طريق الحواس، أو العقل، وإنّما بالتزكيّة والمجاهدة.

---

1 - ابن عربي، الفتوحات المكيّة، بيروت :دار صادر ، [د،ت] ،ج1، ص 95.

2 - عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل ، ص15.

3 -من أكبر فلاسفة العصر الحديث، من أهم كتبه «نقد العقل الخالص» و «نقد العقل العملي» أنظر في ترجمته : عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ط1، بيروت: المؤسسة العربيّة للدّراسات، والنشر 1984م، ج2، ص 269.295.

4 - أنظر من ذلك ماكتبه : ابن عربي، في الفتوحات المكيّة، ج1 ،ص 94، 95.

ولما سأل رجل أبا الحسن النّوري - رحمه اللهّ - : بم عرفت اللهّ تعالى ؟ فقال : بالله. قيل : فما بال العقل؟ قال : العقل عاجز لايدل إلاعلى عاجز مثله(1).

وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء البغدادي:«العقل آلة للعبوديّة لا للإشراف على الربوبية.»(2)

وهي معان عبر عنها الحلاّج في أبيات من الشعر قال فيها :

من رامه بالعقل مسترشدا * * أسرحه في حيرة يلهو

شاب بتلبيس أسراره * * يقول من حيرته هل هو؟(3)

لهذا جافى الصوفية كل نظر عقلي في تحصيل هذه المعرفة، فلم يحرصوا على نيلها من دراسة الكتب والبحث عن الأدلة، بل قالوا إن الطريق إلى الله يكون بمجاهدة النّفس وتزكيتها، والإقبال على الله بكنه الهمّة وهو ماعبر عنه أبو حامد الغزالي بقوله :

ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله القلب فاضت عليه الرحمة.... وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهيّة فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة(4)

ويذهب أبو حامد الغزالي إلى أن هذه طريقة الأنبياء والأولياء فيقول :

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلّم وبالدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى (5)

ومن الطريف أن يكون ابن خلدون (6) على ماعرف به من واقعية في تفسير الوقائع

---

1 - أبو نصر الطوسي، اللّمع، تحقيق د عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1960م، ص 63.

2 - نفس المرجع والصفحة .

3 - HALLAG, HUSSAYN;MANSOUR;KITAB AL-TAWASSIN;TRAD; PAR; L, MASSIGNON: GEUTHNER;1913; P:196,

4 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 19.

5- نفس المرجع، والصفحة.

6- هو قاضي القضاة : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ولد بتونس سنة 732 هـ من أهم مؤلفاته : المقدمة، وكتابه العبر، توفي بالقاهرة سنة 807 هـ. أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 227، 228، ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 76.

التاريخيّة، من مؤيدي هذا الطريق حتى خصّه بكتاب سماه «شفاء السائل لتهذيب المسائل» كما عقد له فصلا رائعا في كتابه «المقدمة»، يقول - رحمه الله - ملخصا هذا الطريق :«ثم إن المجاهدة والخلوة والذكر غالبا مايتبعها كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحسّ إدراك شيء منها والروح من تلك العوالم.»(1)

ثم يبيّن ابن خلدون سبب هذا الكشف، فيقول :

> وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحسّ الظاهر إلى الباطن، ضعفت أحوال الحسّ وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه... وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولايزال في نمو وتزيّد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما ويكشف حجاب الحسّ، ويتم وجود النّفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك، فيتعرّض للمواهب الربّانية وللعلوم اللّدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة.(2)

وإذا أنكر المتصوفة قدرة العقل في اكتناه الذات الإلهيّة، فإنهم لم ينكروا قدرة هذه الأداة على إثبات وجود الله وهم يميزون بين العلم بوجود الله والعلم به جل مجده وفي هذا المعنى يقول ابن عربي في رسالة بعث بها إلى «فخر الدين الرازي» نثبت جزءا منها .«إن العلم بالله خلاف العلم بوجوده، فالعقول تعرف الله من حيث كونه موجودا، أو من حيث السلب لا الإثبات... فينبغي للعاقل أن يخلّي قلبه عن الفكر إن أراد معرفة الله من حيث المشاهدة».(3)

وهو ماوضحه في أكثر من موضع في «الفتوحات المكيّة» حيث قال: «فالله لايعرف أبدا من جهة الدليل إلا معرفة الوجود، وأنه الواحد المعبود »(4)

والشاذلي باعتباره متصوفا يوافق الصوفية في هذه النظرة، ولايعترف بقيمة الاستدلال العقلي في جانب المعرفة الإلهيّة وفي هذا المعنى يقول: « كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء» (5)

1- ابن خلدون، المقدمة، ص 866.

2 - نفس المرجع، ص 866، 867.

3 - رسالة ابن عربي إلى الإمام الرازي، ضمن مجموعة رسائل ابن العربي، ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د، ت] ، ص 2.

4 - ابن عربي، الفتوحات المكيّة، ج1، ص 95.

5 - نقلا عن : ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 42.

كما نجده يعرّض بالمتكلمين وبطرقهم في الاستدلال على وجود الله فيقول : «أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان» (1) وبنور هذه المعرفة لايحتاج الصوفي إلى تحرير الأدلة المنطقيّة، والحجج العقليّة فيما يتعلق بالعقيدة، بل إن النظر والاستدلال حجاب يصد عن المعرفة الحقة عند الصوفية وهو ماعبر عنه ابن عطاء الله السكندري بعبارة بليغة في إحدى حكمه فقال : «شتان بين من يستدل به، ويستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه (2) فالمعرفة التي يثق فيها المتصوفة ويعولون عليها كثيرا هي المعرفة الحضورية التي أشار إليها أبو الحسن الشاذلي بقوله :« إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان»(3)

و إذا كان الشاذلي يرى عدم استقلال العقل بإدراك الذات الإلهيّة، فهنا يبرز لنا تساؤل وجيه وهو ماهي الوسيلة التي استخدمها للوصول بمريديه إلى معرفة الله؟.

أبو الحسن الشاذلي كان من أوائل المتصوفة الذين انتبهوا إلى أهميّة المحبّة في الممارسة العرفانيّة وهو المعنى الذي يؤكده ابن عبّاد الرندي(4) بقوله :«إن الذي عليه المعول في هذا الطريق إن الشاذليّة معولهم على الصحبة الصّالحة مع الاهتداء، والمحبّة الصادقة مع الاقتداء»(5) وماذلك إلا لأن المحبّة هي الطاقة التي تهيء العبد إلى إدراك سرّ «الفناء» إذ لاطريق يدخل به إلى معرفة الله إلا من هذا الطريق وفي هذا المعنى يقول أبو العباس المرسي: «ولايتم الدخول إلى الله إلا من بابين : من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي، ومن باب الفناء الأصغر الذي تعنيه هذه الطائفة». (6)

1- نقلا عن : ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ط، بيروت:المكتبة الثقافيّة، [د، ت]، ص 503.

2- بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 99.

3-نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 43، وانظر أيضا ابن الصباغ، درة الأسرار،ص126.

4- هو محمد بن عبد الله الرندي الشهير بابن عبّاد الصوفي الزاهد ولد سنة 733هـ، من أهم مؤلفاته: شرحه على الحكم العطائية، وهو المسمى «غيث المواهب العليّة»، ورسائله الكبرى والصغرى، توفي سنة 792 هـ، أنظر في ترجمته : دائرة المعارف الإسلامية، ج3، ص 220. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، ص 299؛ وانظر أيضا:

PAUL ; NWYAY; IBN ABBAD DE RONDA; COL ; RECHERCHES BEYROUTH; 1961; PP.43-80

5- نقلا عن: مصطفى المدني، النصرة النّبويّة لأهل الطريقة الشاذلية، ص208.

6 - نقلا عن ابن عطاء الله ، لطائف المنن،ص 204.

ومعنى هذا أنّ المتقرّب إلى اللّه عليه أن يعدم وجوده بجانب وجوده سبحانه، كما ينعدم ضوء النجوم وينطمس إزاء ضوء الشمس الوهاج، ويكون على وعي بوجود اللّه وصفاته العليا كما تتجلّى فينا وفي الكون الظاهر قال تعالى : «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»(1).

فليس بعجيب أن يجعل الشاذلي «الفناء» أو «التوحيد الشهودي» هو الأساس الذي تدور عليه الممارسة العرفانية عنده، وهو ماسنتعرض له بإسهاب عند حديثنا عن منهج الشاذلي في الممارسة التحقيقيّة.

ثانيا - منهج الشاذلي في تحصيل الممارسة التحقيقية :

اتضح لنا من المبحث السابق أن العقل ليس هو الأداة الموصلة لمعرفة اللّه عند الصوفيّة، كما أشرنا إلى أن الوسيلة التي استخدمها الشاذلي للحصول على هذه المعرفة هي المحبّة كما أرشد إلى ذلك الحديث القدسي : « ولايزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» (2).

وهذا مايجعل الحديث عن المحبّة أمرا جوهريا لأنه من صميم الممارسة التحقيقيّة في كل تصوف بعامة وعند الشاذليّة بخاصّة وهذا مايدعونا إلى بيان صلة الحبّ بالمعرفة.

1 - صلة الحب بالمعرفة :

قبل أن نشرع في توضيح جانب صلة الحب بالمعرفة لابد أن نتوقف قليلا عند كلمتي الحب والمعرفة لنتعرف على مدلولهما اللّغوي والاصطلاحي ذلك لأنهما الأساس الذي يبنى عليه هذا المبحث.

1 . 1 - مفهوم الحب

1 . 1 . 1 - المعنى اللغوي للكلمة :

دون الانشغال بآراء اللغويين في تتبع صور اشتقاقات هذه الكلمة حسبنا أن نشير إلى بعض صور هذه الاشتقاقات كما جاءت في « تاج العروس» (3).

- أن لفظ المحبّة مشتق من الحبّة وهي بزر النبات، وهو الأصل فيه، فأطلقوا على المحبّة حبا لأن الحب أصل الفضائل والملكات.

- أنها مشتقة من حبّة القلب أي «سويداؤه» أو مهجته وهو الموضع الذي ينشأ فيه الحبّ، فأطلقوا ذلك على المحبّة من باب تسمية الشيء باسم محلّه.

---

1 - النور، آية : 35.

2 - سبق تخريج هذا الحديث. أنظر ص 86.

3 - محمد مرتضي الزبيدي. تاج العروس من شرح جواهر القاموس، تحقيق على هلالي أنظر: مادة حبب، الكويت : مطبعة حكومة الكويت، 1966، ج2، ص 212.

- وقيل إنها مشتقة من الحب وهي الجرّة الصغيرة التي يوضع فيها الماء بحيث إذا امتلأت لم تسع غيره، فكذلك القلب إذا امتلأ بالمحبّة لم يتسع لغير محبوبه.

- وقيل أنها مشتقة من حباب الماء أي فقاقيعه التي تطفوا كأنها القوارير وعلى هذا المحبّة، لأنها عبارة عن غليان القلب وثوارنه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب.

- وقيل إنها مشتقة من قولهم : أحبّ البعير إذا برك وقيل من الحبّ والقرط وقيل غير ذلك (1).

وتطلق المحبّة في لسان العرب كناية عن الإرادة المؤكدة، والفرق بين قولك أردت أن أفعل كذا، وأحببت أن أفعل كذا، أن الإرادة متعلقة بالصفة، أو الفعل أما المحبّة فهي مختصّة بذوات الأشياء (2) قال تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيَحِبُّونَهُ» (3) وقال أيضا: «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» (4)

1 . 1 . 2 - المعنى الاصطلاحي للكلمة :

عرف الصوفية المحبّة بتعريفات كثيرة، وهي على كثرتها، واختلاف مشارب أصحابها، فإنها تكاد تتفق في الغاية التي تهدف إليها، وهي الفناء، في ذات المحبوب إما فعلا، أو صفة، أو ذاتا، ومن بين هذه التعاريف تعريف المحاسبي (5)، حيث يقول : « المحبّة ميلك إلى الشيء بكلتيك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبّه» (6)، وسئل سهل بن عبد الله (7) عن المحبّة فقال : « موافقة القلوب لله. والتزام الطاعة لله، واتباع الرسول - صلى الله عليه وسلّم - مع دوام الاستهتار بذكر الله تعالى، ووجود حلاوة المناجاة لله عزّ وجلّ»(8).

---

1 - أنظر مزيدا من صور اشتقاقات هذه الكلمة في تاج العروس من شرح جواهر القاموس، مادة حبب، وانظر أيضا : لسان الدين ابن الخطيب، روضة التعريف بالحبّ الشريف، تحقيق محمد الكتاني، ط1 الدار البيضاء : دار الثقافة 1970م، ص 334 - 338.

2 - لسان الدين ابن الخطيب، المرجع نفسه، ص 338.

3 - المائدة، آية : 54.

4 - البقرة، آية : 165.

5 - هو الحارث بن أسد المحاسبي البصري، أبو عبد الله، أحد الأوتار الكبار الجامعين بين الظاهر والباطن وسميّ بالمحاسبي لأنه كان كثير المحاسبة لنفسه مات سنة 243هـ، أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 75، القشيري، الرسالة، ص 12.

6 - نقلا عن : ابن الملقّن، طبقات الأولياء، ص 175.

7 - هو الصوفي الكبير سهل بن عبد الله التستري ت 283هـ) أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء،ص 222، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 428. 430.

8 - نقلا عن: أبي نصر السراج، اللمع، ص87.

وسئل سمنون المحب (1) عن المحبّة فقال : صفاء الودّ مع دوام الذكر لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره» (2). وقال أبو القاسم الجنيد : «المحبّة دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحبّ»(3). وسئل أبو الغيث منصور الحلاّج عن المحبّة فقال :« حقيقة المحبّة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك (4).

ولاشك أن الجنيد والحلاج يشيران إلى الحديث القدسي الذي تقدم ذكره « لايزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه... ».

وقال الشبلي (5) : « سميت المحبّة محبّة، لأنها تمحو ماسوى المحبوب»(6) وقال إبراهيم الخواص(7) : «المحبّة، محو الإرادات، واحتراق جميع الصفات، والحاجات»(8).

والمحب الحق من لاسلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة غير مشيئته، وللشاذلي كلام جميل في المحبّة نحب أن نورده في هذا المقام على طوله يقول فيه :

المحبّة آخذة من الله لقلب عبده، عن كل شيء سواه، فترى النّفس مائلة لطاعته، والعقل متحصنا بمعرفته، والرّوح مأخوذة في حضرته، والسرّ مغمورا في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته،فيكسى حلل التقريب على بساط القرلة ويمس أبكار الحقائق وثيبّات العلوم(9)

فقال له أحد الحاضرين : «قد علمت الحب فما شراب الحب، وماكأس الحب من الساقي، وما الشراب، وما الري، وما السكر، وما الصحو؟»(10)

---

1 - هو سمنون بن حمزة، أنظر في ترجمته : ابن الملّقن، طبقات الأولياء، ص 165.

2 - نقلا عن : أبي السراج، اللّمع، ص 86.

3 - نقلا عن القشيري، الرسالة، ص 145؛ وانظر أيضا : الله مع لأبي نصر السرّاج، ص 88.

4 - نقلا عن : القشيري، الرسالة، ص 145.

5 - هو أبو بكر بن جحدر، (ت 334هـ) أنظر في ترجمته : القشيري، الرسالة، ص 25.

6 - نقلا عن : القشيري، الرسالة، ص145.

7 - هو إبراهيم أحمد الخواص (ت 291هـ) أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص18-20

8 - نقلا عن : أبي السراج، اللّمع، ص 87.

9 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 52.

10 - المرجع نفسه، ص 53.

فرد عليه الشاذلي : « الشراب هو (1) النور الواضح من جمال المحبوب، والكأس(2) هو اللطف الموصل إلى أفواه القلوب، والساقي المتولي للمخصوص الأكبر، والصالحين من عباده وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبابه»(3).

ثم يجيب الشاذلي سائله عن ثمرات تجليات الحق الأربع وهي :

«الذوق والشراب والري، والسكر» (4) بما يدل دلالة قاطعة على رسوخ قدمه في المحبة فيقول :

فمن كشف له عن ذلك الجمال، وحظى منه بشيء نفسا أو نفسين، ثم أرخى عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق، ومن دام له ساعة أو ساعتين، فهو الشارب حقا، ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة، فذاك هو الرّي وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدري مايقال ولا مايقول فذاك هو السكر*(5).

.ولما كان الشاذلي كالجنيد يجعل الغاية العليا ليست في «السكر» أو «الجذب»(6)، بحد ذاته، وإنّما في كونه وسيلة إلى المعرفة الحقيقية وبعده يعود السالك إلى حالته العادية لذا قال الشاذلي منبها إلى طريق الكمال :

«وقد تدورعليهم الكاسات وتختلف لديهم الحالات، ويردون إلى الذكر والطاعات ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات فذاك وقت صحوهم، واتساع نظرهم ومزيد علمهم فهم بنجوم العلم وقمر

---

1 - شراب الحب عند الصوفية : عبارة عن تجل متوسط بين تجليين - الذوق والري - وهو التجلّي الدائم الذي لاينقطع وهو أعلى مقام يتجلى الله فيه لعباده العارفين، أنظر : ابن عربي الفتوحات المكيّة، ج2، ص 111.

2 - كأس الحب : يشير به الصوفية إلى القلب لا العقل ولا الحس، ولأن القلب يتقلب من حال إلى حال كما أن الله الذي هو المحبوب كل يوم هو في شأن فيتنوع المحب في تعلق حبّه بتنوع المحبوب في أفعاله كالكأس الزجاجي الأبيض الصافي يتنوع بتنوع المائع الحال فيه أنظر : ابن عربي، الفتوحات المكيّة، ج2، ص 119.

3 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 53.

4 - الذوق والشراب والري، والسكر ألفاظ مخصوصة بمعان ... أنظر : ابن خلدون شفاء السائل لتهذيب المسائل، ص 101، ويعبر بها الصوفية عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات، أنظر : الرسالة القشيرية، ص 39.

* - السكر غيبة بوادر قوي، أنظر : ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، ص 101.

5 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 53.

6 – الجذب أو الجذبة : عبارة عن تقرب العبد بمقتضى عناية الله التي أعدت له كل شيء، من جانب الله في لمس المراحل شطر الحق، بلا تعب وسعي منه أنظر : عبد المنعم الحفني : معجم مصطلحات الصوفية، ط1، بيروت: دار المسيرة 1980م، ص 62.

التوحيد يهتدون في ليلهم، وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم»(1)

ونعتقد أن هذه النقول تكفي لكي تظهرنا على أهميّة المحبّة عند الصوفيّة عامة وعند الشاذلي خاصة والذي يهمنا منها أن نعرف أن أذواق الحب ومعاناته، يمكن أن تصل بالسالك إلى مدارج الكمال كلما أوغل في فنائه عن نفسه، وعلى مقدار أجنبيته عنها يكون الحبّ حقيقيا فمن تحقق بمحبّة الله الخاصة لم يؤثر عليه شيئا من حظوظه وهوى نفسه إذ المحبة كما قال الشاذلي : « سر في قلب المحبوب، إذا ثبت قطعه عن كل مصحوب» (2).

ومن شأنها أن تأخذ قلب من أحبّ بحيث لايكون له عن نفسه أخبار، ولا مع غير محبوبه قرار(3) ولا يحصل هذا إلا بعد الفناء عما سوى الله تعالى، ومادام السالك عليه بقية من محبة سواه فهو ناقص المحبّة وإلى هذا أشار ابن الفارض بقوله:

«فلم تهوني، مالم تكن في فانيا **** ولم تفن مالا تجتلى فيك صورتي»(4)

وفي هذا المستوى تكون إرادة المحب قد محيت بإرادة محبوبه، واثاره غيبت بآثار محبوبه فيكسى خلع التشريف على حد تعبير أبي مدين :

وافت لهم خلع التشريف يحملها **** عرف النّسيم الذي من نشره ثملوا(5)

وهي الحقيقة التي عبّر عنها الجنيد بقوله :« المحبّة دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب»(6). فيصير الصوفي قائما بالحق، وبصفات الحق، لا قائما بنفسه وبصفاته هو، وهو المعنى الذي يوضحه الجنيد عند وصفه لحال المحبّ فيقول : «فإذا تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله، ولله. ومع الله» (7) وإلى هذا أشار الحديث القدسي: «فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها» (8).

---

1 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 53.

2 - ابن عياد، المفاخر العلية، ص104.

3 - ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص296.

4 - ابن الفارض، ديوان ابن الفارض، بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر سنة 1983م، ص 54.

5 - هذا البيت للصوفي الكبير أبي مدين الغوث من قصيدته التي مطلعها :

أهل المحبّة بالمحبوب قد شغلوا *** وفي محبّته أرواحهم بذلوا

أنظر : أبا مدين، الديوان، جمع العربي الشوار، دمشق : مطبعة الترقي 1938م، ص 68.

6 - القشيري، الرسالة البيانية، ص 145.

7 - نفس المرجع، ص 147.

8 - سبق تخريج الحديث، أنظر : ص 86.

ولايعني هذا حلولا أو اتحادا بحيث تضيع معالم التمييز بين العبد والرّب وإنّما معنى ذلك كما يقول الجنيد في كتابه « الفناء» .

فإذا كان - اللّه - سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، فكيف تصف ذلك بكيفيّة. أو تحدّه بحد تعلمه، ولو ادعى ذلك مدّع لأبطل في دعواه لأنا لانعلم ذلك كائنا بجهة من الجهات تعلم أو تعرف، وإنما معنى ذلك أن يؤيّده.ويوفقه ويهديه، ويشهده ماشاء كيف شاء بإصابة الصواب وموافقة الحق، وذلك فعل اللّه - عزّ وجلّ - فيه، ومواهبه له منسوبة إليه لا إلى الواجد(1)

وهو المعنى ذاته الذي رامه ابن عطاء اللّه السكندري حينما علّق على الحديث القدسي السابق بقوله :« والحديث يدل على البقاء بعد الفناء، فتمحى أوصافك»(2). وما البقاء إلى غشيان رحمة اللّه على العبد، بحيث يؤيد جوارحه بنور إلهي، ويبارك فيه(3).

وفي رأي ابن عطاء اللّه السكندري أن السّالك لايكون باقيا باللّه إلا إذا تحقق بالفناء في هذا يقول :« إذا أفناك عنك ، أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء ومنه يدخل إليه. فمن صدق فناؤه صدق بقاؤه » (4).

والباقي باللّه هو العارف (5) في رأي ابن عجيبة الحسني، وهو مايدعونا إلى تحديد مفهوم المعرفة.

1 . 2 - مفهوم المعرفة :

1 . 2 . 1- المعنى اللّغوي للكلمة :

جاء في لسان العرب :

« العرف ضد النكر، والعرفان العلم، ويقال في اللغة : عرفه نفسه إذا أعلمه إيّاه»(6) وفي القرآن الكريم : «يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» (7).

---

1 - نقلا عن : محمد كمال جعفر، الركائز الأساسيّة للتصوف الإسلامي ومدى أصالته، محاضرة ألقيت في الملتقى الحادي والعشرين للفكر الإسلامي، بمعسكر، 1987م، ص 15.

2 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 32.

3 - أحمد شاه ولي اللّه الدهلوي، حجّة اللّه البالغة، بيروت : دار الثقافة [د . ت]، ج2، ص 71.

4 - ابن عطاء اللّه السكندري، المرجع السابق، ص 33.

5 - ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج2، ص 236.

6 - ابن منظور، لسان العرب، مادة عرف، ج11، ص 140 - 148.

7 - البقرة، آية : 146.

المرسي كان يحرص كل الحرص على حضورها في ميعادها(1).

إلا أن الشيء الذي نوّد أن نخلص إليه أن كلا الولايتين : الصغرى والكبرى تمارسان « تجربة محبّة »، وما المحبّة إلا تجربة عرفان في صميمها.

والمحبّة عند الشاذلي تنقسم إلى قسمين : محبّة للّه ومحبّة من اللّه «المحبوبية» وإن شئنا قلنا ولاية للمنيبين، وهي لمن تناله المنّة من المشيئة باديء ذي بدء فتجذبه جذبا وهؤلاء هم «المحبوبون».

وسوف نوضّح في هذا المبحث الممارسة التحقيقيّة عند الشاذلي من خلال «تجربته في المحبة» بشقيها الآنفي الذكر.

2 - الممارسة التحقيقيّة عند الشاذلي :

2 . 1 - ممارسة الشاذلي التحقيقيّة مع طائفة «المحبوبين»

يرى أبو الحسن الشاذلي أن الطريق الخاص بالمحبوبين هو المنّة الإلهيّة، التي تخرج من المشيئة، فتجذب العبد من أول قدم له إلى مرتبة القربة « فيغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب »(2)

والمحبوبون هم الذين اجتباهم اللّه، واختطف أرواحهم ونفوسهم من شهود الأغيار إلى شهود الأنوار، وفي هذا يقول أبو الحسن الشاذلي : «واقرب مني قربا تمحق به عنّي كل حجاب محقته عن ابراهيم خليلك»(3)

وقد يبدو لأول وهلة أن المجذوب المختطف لاطريق له، وهذا فهم قاصر إذ أنّ المجذوب حينما يصل إلى مقام القربة يؤخذ بما يؤخذ به السالك من تربية، وتهذيب، وتنقية وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء اللّه السكندري : « ولاتظن أن المجذوب لاطريق له، بل له طريق طوتها عنايّة اللّه فسلكها مسرعا إلى اللّه عجلا... فهو قد طويت له الطريق ولم تطوعنه، ومن طويت له الطريق لم تفته، ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها والمجذوب كمن طويت له الأرض إلى مكة والسالك كالسائر إليها على أطوار المطايا(4).

إلا أن هذه العطايا ترد على المجذوب فجأة من غير طلب في الوقت الذي يريده اللّه له تفضلا منه ومنّة، والمجذوب من أول قدم له يحال بينه وبين نفسه، ويخرج عنها بالكليّة.ولاشك أن من تلابسه هذه الحالة تكون المحبة والمعرفة قد رسخت في قلبه، ويكون اختياره وتدبيره قد سقطاعنه كليّة وفي هذا يقول أبو الحسن الشاذلي : « وبينما هم كذلك إذ ألبسهم اللّه ثوب العلم فنظروا فإذا هم، ثم أردف عليهم ظلمة غيبّتهم عن نظرهم

---

1 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنّن، ص 117؛ و أبو الحسن الشاذلي، علي سالم عمار، ج1، ص 141

2 - من كلام الشاذلي نقلا عن : ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 42.

3 - ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 73.

4 - ابن عطاء اللّه السكندري، المرجع السابق، ص 194.

بل صار عدما لاعلّة له... فهناك ظهر من لم يزل ظهورا لا علّة فيه... فحيي هذا العبد بظهوره حياة لاعلة فيها، فظهر بأوصاف جميلة كلها لا علّة فيها » (1)

إلا أن هذا المجذوب بعد وصوله هذه المرتبة العظمى، وتغلغله فيها يعود ليبدأ سيره مارا بالمراحل التي مر بها السالك في بدايته وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري : « ومن كان مبدؤه المواصلة ردّ إلى وجوب المعاملة » (2)، ويلخص ابن عيّاد طريق هذا المجذوب بقوله : « إن طريق العبد طريق علوي أول ماطرح في بحر الذات، فانعدم، فأحيي حياة طيبّة فنقل من غيرتنقل إلى بحر الصفات، ثم إلي بحر الأمر الرّباني » (3)، أما رتبة هؤلاء فيرى الشاذلي أنها أقل من رتبة الأنبياء والرسل، وفوق مراتب الأولياء الذين مددهم يأتي عن طريق الأنبياء لا الرسل.(4)

والشاذلي في رأيه هذا موافق للحكيم الترمذي إن لم نقل أنه قد استفاده منه (5) لكن إذا كانت الجباية اختصاص إلهي لبعض دون بعض، ألا يؤدي هذا إلى التساؤل على الأساس الذي تتوجه به المشيئة بالمنة لهذا الصنف من الناس؟

الحقيقة أنني لم أعثر في هذه المتفرقات التي لدي من كلام أبي الحسن الشاذلي مايصلح أن يكون إجابة عن هذا التساؤل الفلسفي الوجيه، ربما لأنه كان مدركا أنّ وضع هذا السؤال على هذا النحو خطأ. إذ أن فعل المشيئة الإلهية لا يعلل، ولايسأل عنه قال تعالى : « لَايُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (6).

غير أني وجدت أحد متأخري الشاذليّة، وهو ابن عيّاد الشافعي، قد لامس الإجابة عن هذا السؤال، حيث أرجع ذلك إلى جبلّة وطبع هذا العبد المجذوب، وفي هذا المعنى يقول في وصف هؤلاء المجتبين:

«فهم أصحاب النفوس الرضيّة، والعقول الزكيّة، والفطر الصديقيّة... طريقهم طريق السائرين إلى الله، والطائرين إليه، وهي طريق أهل المحبّة السالكين إلى الله بالجذبة وملاك السّير بها صفاء القلب، وصدق الحب، والتحقق ظاهرا وباطنا بشعائر التصديق، فيخرج عن حوله وقوته، وعقله وفطنته... وهذه الطريقة في غاية السهولة بالنسبة لأهلهاالمخطوبين لجمال وصلها فربما وصل السالك بها في نفس. فسبق من عفا بالمجاهدة واندرس»(7).

---

1 - ابن عيّاد، المفاخر العليّة، ص 133.
2 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 193.
3 - ابن عيّاد، المرجع السابق، ص 134.
4 - المرجع نفسه، ص 130، 131.
5 - الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 407.
6 - الأنبياء، آية : 23.
7 - ابن عيّاد الشافعي، المرجع السابق، ص 58.

فحقيقة هذا الجذب إذن يرجع أساسا إلى معاملة الله لهذا العبد على أساس استعداده الفطري الذي منحته إياه المشيئة الإلهية من قبل، وإذا أردنا أن نقرّب هذه القضية إلى أذهاننا أكثر فننظر إلى تأثير الشمس في الأشياء التي نراها من حولنا فإننا نرى أن بعض المواد تنفعل بها أكثر من انفعال غيرها، مع أن تأثير الشمس واحد على الجميع، وماذاك إلا للاختلاف الناشيء عن القابلية والاستعداد، فكذلك عناية الله تتوجه إلى أصحاب هذه الفطر فتصل بهم إلى مقام القربى العظمى في أقصر مدّة، ولما يصل العبد إلى ذلك المقام، يقال أن الله جذبه ويسمى هذا السالك «مجذوبا».

ولذلك عندما نقرأ للحكيم الترمذي، نجده يولي عناية خاصة بأوصاف هؤلاء المجذوبين، فكأنه يجيبنا من طرف خفي عن هذا التساؤل الذي طرحناه، ولنقرأ وصفه لفرد منهم :

> وهو عبد صحيح الفطرة، طيّب التربة، عذب الماء، زكي الروح، صافي الذهن، عظيم الحظ من العقل، سليم الصدر من الآفات، لين الأخلاق، واسع الصدر، مصنوع له، أعني محفوظا عليه، فإذا بلغ وقت الإنابة، هداه الله، ووفقه للخير، حتى إذا بلغ وقت كشف الفتح ، فتح له ثم أخذ بقلبه فمر به إلى العلا إلى المكان الذي رتب بين يديه(1)

لكن هل نجد في إجابة ابن عيّاد، والحكيم الترمذي حلاً للقضية التي طرحناها ؟

لانعتقد ذلك أن يمكننا أن نتساءل عن الأساس الذي خص به المجتبى أو «المجذوب» بهذا المحتد الكريم دون غيره، إنه السؤال نفسه تقريبا إلا أنه تعدى إلى بدء الخلق، «حيث خلق الله الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فلما أصاب من أصاب بمشيئته، وأخطأ من أخطأ بمشيئته، فقد علم من يصيبه ممن يخطئه» (2).

2 . 2 - ممارسة الشاذلي التحقيقية مع طائفة «المحبين» :

بعد فراغنا من إبراز طرفي الجانب التحقيقي عند الشاذلي، الذي يتمثل في ممارسته العرفانية مع «المحبوبين» علينا أن نلّم بالشطر الثاني من هذه الممارسة الذي يتمثّل في تحقيقيه «للمحبين».

وإذا كانت«المحبوبيّة» ممارسة تحقيق تصل بالمجتبى إلى مقام المشاهدة (3)، فإن المحبيّة مثلها مثل معرفة « المحبوبيّة» معرفة قائمة على المشاهدة، غير أن الفارق يكمن في أن الأولى تخرج لمن تناله المنّة من باب المشيئة إبتداء دون طلب،وهم «المجتبون».والثانية تحرج لمن تناله المنّة من باب الرحمة بعد توجه الطلب، وهم«المنيبون».

---

1 - الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 416.

2 - الحكيم الترمذي، نوادر الأصول، تحقيق مصطفى بن اسماعيل الدمشقي 1293هـ، ص 387.

3 - هي أحد مراتب السالك، وفيها يجد السالك الحق من غير بقاء تهمة. وقيل هي : المعرفة بالله وصفاته وأفعاله وأسرار ملكوته في أكمل رتب المعرفة. أنظر : ابن خلدون : شفاء السائل لتهذيب المسائل، ص 103.

وإذا أمعنا النظر نجد أن القسمين عند الشاذلي يرجعان إلى أصل واحد وهو «شهودالمنّة». إذ لا وصول عنده للصنفين، إلا من هذا الطريق. وإذا كانت المنّة ظاهرة لأصحاب القسم الأول، إذ فجأتهم عناية اللّه باديء ذي بدء، فإن ظهور سبق المنّة الإلهية لأصحاب القسم الثاني يحتاج إلى مزيد بيان، وعلى مقدار إبرازنا لبعد المنّة الإلهية - في تعلّقه بوصف العبوديّة من جهة، وإيجابه للمحبّة من جهة ثانية - نكون قد استوعبنا الممارسة التحقيقية عند الشاذلي مع هذا القسم.

في رأي الشاذلي أن إثبات الربوبيّة يدرك بإظهار العبوديّة، وفي هذا المعنى يقول: «العبودية جوهرة أظهر بها الربوبيّة»(1)، فسبحان من جعل الأشياء كامنة في أضدادها كما يقول ابن عجيبة الحسني، غير أننا قبل شروعنا في تفصيل حقيقة هذه الممارسة رأينا أن نعرج على مفهوم العبوديّة.

2. 2 . 1 - مفهوم العبودية :

أ - المعنى اللغوي للعبودية :

لفظ العبوديّة مأخوذ من فعل عبد، يعبد، والمصدر عبادة، وبالرجوع إلى القاموس المحيط نجد أنّ : العبديّة، والعبودية، والعبودة، والعبادة، تطلق على معنى واحد وهو الطاعة ويقال طريق معبّد أي مذلّل.(2)

ب - حقيقة العبودية عند الشاذلي :

وتأسيسا على ماتضمنته الكلمة من معاني الخضوع، والطاعة، والذل، رأى شيخ الإسلام ابن تيمية : أنّ العبوديّة تتضمن معنيين : معنى الذل، ومعنى الحبّ فهي غاية الذل للّه بغاية المحبة له(3).

وتماشيا مع أهداف هذا البحث نرى لزاما علينا أن نتبين تعريفات بعض الصوفيّة للعبوديّة، حتى يتوضح تعريف الشاذلي لهاأكثر.

- العبودية هي : ترك الاختيار فيما يبدو من الاختيار من الأقدار.
- العبودية هيك التبري من الحول والقوة
- العبودية هي شهود الربوبيّة.

سئل محمد بن خفيف (4) : متى تصح العبوديّة؟ فقال : إذا طرح كلّه على مولاه

1- نقلا عن : ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 204.

2- مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، بيروت : دار الفكر سنة 1983م، ج1، ص 311، 312.

3- ابن تيمية، **العبودية**، باتنة، دار الشهاب، سنة 1988م، ص9.

4 - هو أبو عبد اللّه محمد بن خفيف الشيرازي، كان أوحد وقته علما، وعملا وحالا سنة 391هـ. أنظر في ترجمته : القشيري، الرسالة. ص 29، أبو نعيم حلية الأولياء، ج 10، ص 385 - 387.

وصبر معه على بلواه، وعلامات العبودية : ترك التدبير، وشهود التقدير.

- ويقول النصر أبادي (1) العبوديّة إسقاط رؤية التعبّد في مشاهدة المعبود.

- ويقول أبو علي الدقاق : أنت عبد من أنت في رقه وأسره، فإن كنت في أسر نفسك فأنت عبد نفسك، وإن كنت في أسر دنياك فأنت عبد دنياك، قال رسول الله، - صلى الله عليه وسلّم - «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة» (2).

- العبودية معانقة ماأمرت به، ومفارقة مازجرت عنه (3).

ويفسر أبو العباس المرسي العبادة بالتبعيّة للأشياء، وفي هذا المعنى يقول : « من أحبّ الظّهور فهو عبد الظهور، ومن أحبّ الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو خفاه، لأن إرادته وقفت على اختيار سيده»(4).

وبالجملة فقد عرفت العبودية تعريفات متعددة، وأتّمها من حيث الشمول تعريف الشاذلي، وهو : « العبوديّة امتثال الأمر، واجتناب النهي، ورفض الشهوات والمشيئات على الشهود والعيان» (5).

وإذا نظرنا في هذه الأقوال المختلفة نظرة فاحصة، رأينا أنها ترمي إلى غاية واحدة وهي أن حقيقة العبودية تكمن في التحقق بالحريّة، من جميع التبعيات سواء عمليّة كانت أو كونيّة، أو حتى أخرويّة، وإن من يصح أن يقال أنه عبد الله هو الذي أخرج نفسه من نفسه، وهو المقام المعبّر عنه عند الصوفيةّ بالحريّة، وفي هذا المعنى يقول أستاذ القشيري. أبو علي الدقاق : « الحريّة أن لايكون العبد تحت رقّ المخلوقات، ولايجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء» (6).

ويدلنا هذا على أنّ هناك صلة وثيقة بين العبوديّة والحريّة، وهو ماكان ملحظا للدقاق فقال :«اعلم أن حقيقة الحريّة في كمال العبوديّة، فإذا صدقت لله عبوديته، خلصت من رقّ

---

1 - هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد النصر أبادي، صحب الشبلي وأبا علي الروذباري والمرتعش جاور بمكة توفي سنة 366هـ. أنظر في ترجمته : القشيري، الرسالة، ص 30 : ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 26.

2 - أخرجه البخاري : في كتاب الرقاق، باب مايتقي من فتنة المال، أنظر : ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ط2، بيروت : دار إحياء التراث العربي 1402 هـ، ج11، ص 212.

3 - أنظر هذه التعريفات وكثير غيرها في الرسالة القشيرية : ص 91 - 92.

4 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 57.

5 - ابن عبّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 98.

6 - القشيري، الرسالة البيانيّة، ص 100

الأغيار حريته» (1)

غير أن العبد إذا وصل هذا المقام، وصار حرا من جميع الشهوات، والمشيئات والإرادات قد يتوهم أن أحكام الشرع وإرادتها يخرج به عن مقتضى العبودية، لأنه قد اختار وأراد فيقول بسقوط التكليف، نبه الشاذلي عن قصور هذا النظر وبيّن أن ترتيبات الشرع وأحكامه ليس منها لمرادات العبد واختياراته شيء، وإنما العبد مخاطب أن يخرج عن تدبيره لنفسه، وأختياره لها، لا عن تدبير الله ورسوله، قال تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (2).

وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن الشاذلي : « وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منها شيء، واسمع وأطع، وهذا موضع الفقه الربّاني والعلم اللّدني وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذة من الله لمن استوى» (3).

وهو معنى حرص جميع شيوخ التصوف السنّي (4) على تمييزه لأنه مظنة مزلّة قدم إذ فيه، كما يقول ابن تيميّة : « غلط الغالطون، وكثر الإشتباه على السّالكين، حتى زلق فيه من أكابر المدعين للتحقيق، والتوحيد والعرفان، مالا يحصيه إلا الله الذي يعلم السر والإعلان» (5).

ولاشك أن كلام الشاذلي المتقدم يدل على عمق فهمه للتصوف العملي المبني على الكتاب والسنّة، والقائم على قاعدة «اتبعوا ولا تبتدعوا» والذي صار الشاذلي يدعو إليه.

وحاصل القول أن المتقرب لايتحقق بالعبودية الخالصة لله، إلاّ إذا نال صريح الحريّة. بحيث يصير قلبه خلوا من جميع ماسوى الله تعالى، ولايتأتى ذلك إلا بالخروج من سجن النّفس والكون، وإن شئت قلت « برفض الشهوات والمشيئات »كما يعبر الشاذلي عن ذلك.

---

1 - القشيري، الرسالة، ص 100.

2 - النساء، آية : 65.

3 - ابن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ط1، القاهرة : المطبعة الحميدية المصرية، 1901، ص 22.

4 - أنظر من ذلك الفصل الذي كتبه أبو نصر السرّاج الطوسي في باب من غلط في الأصول وأداة ذلك إلى الضلالة ونبتدىء بذكر الذين غلطوا في الحريّة والعبودية راجع : اللّمع : ص 531.

ويخطيء أبو علي الدقاق هذا الصنف بل يعد ذلك انسلاخا من الدين وفي هذا المعنى يقول : « فأما من توهم أن العبد يسلم له أن يخلع وقتا عذار العبودية. ويحيد بلحظه عن حد الأمر، فذلك انسلاخ من الدين». راجع القشيري. الرسالة. ص 100.

5 - ابن تيمية، العبودية، ص 14.

وإن شئت قلنا بالتحرر من التبعيّة الكونيّة والعمليّة، فلنذكر الآن تفاصيل هذه الحريّة في هذين المستويين :

المستوى الأول : التحرر من التبعيّة الكونيّة :

ونعني بالتحرر من التبعية الكونيّة، «تخلص [القلب] من التعلّق بشيء من أشياء هذا الوجود، إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلا» (1).

وذلك لأنه لما كان الإنسان لايعيش منفردا في هذا الوجود، وإنما تحيط به جملة من الكائنات من كل جهة، تؤثر فيه ويؤثر فيها، فليس من الممتنع أن يؤدي ذلك إلى وقوع الإنسان في ورطة التبعيّة لهذه الأشياء، فيتوجه قلبه لهذا الأثر، أو ذاك بالرغبة أو الرهبة، ثم يشتد تعلقه بهذا الأثر تعلقا ينسى معه عبوديته الخالصة لمولاه، إذ من أحبّ شيئا - كما يقول ابن عطاء اللّه السّكندري - كان له عبدا وهو لايرضى أن تكون عبدا لغيره(2)، وماذلك إلا لأن التعلق بهذه الأشياء ينشأ عنه إما الشرك الجلّي، وهو اعتقاد قوة التأثير لها من نفسها، وإما الشرك الخفي وهو الاستناد إليها وكلاهما قاطع عن إدراك العبودية المحضة للّه.

ومن ثم أولى الشاذلي وخلفاؤه من بعده عناية كبيرة لوظيفة التخليص، إذ رأوا فيها إكسيرا يهيء العبد للتبعية للذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود، وحقيقة الفاعليّة (3)، إذ لاوجود على الحقيقة إلا وجوده، ولا فاعلية في الكون أصلا إلا فاعليته، وهذه هي الحقيقة ولكن أكثر الناس لايعلمون.

وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن الشاذلي : « إنا لانرى أحدا من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولابد، فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئا والحكيم هو واضع الأسباب وهي لمن وقف عندها عين الحجاب» (4).

وقوله هذا في غاية الكشف عن اثار مشاهدة أحدية الوجود، ومعنى كلامه كما يفسره ابن عطاء اللّه السكندري : « إنّ الكائنات لايثبت لها رتبة الوجود المطلق لأن الوجود الحق إنما هو للّه، وله الأحديّة فيه، وإنما للعوالم الوجود من حيث ماأثبت لها، فاعلم أن من الوجود له من غيره، فالعدم وصفه في نفسه». (5).

وهو المعنى ذاته الذي عبّر عنه ابن عطاء اللّه السكندري في إحدى حكمه بعبارة بليغة فقال : « العوالم ثابتة بإثباته، ممحوة لأحدية ذاته» (6).

---

1 - سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط7، بيروت : دار الشروق. 1978م، ج6، ص 4002.

2 - بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 169.

3 - سيد قطب، المرجع السابق، ج6، ص 4002.

4 - نقلا عن : ابن عطاء اللّه، لطائف المنن، ص 43، 44.

5 - المرجع نفسه، ص 199.

6 - بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 143.

وفي رأي الشاذلي أن الصوفي الحق هو الذي وصل إلى هذا المستوى من الحريّة وفي هذا المعنى يقول : «**الصوفي من لايرى الخلق لا موجودين ولا معدومين**» (1).

ولقد أدرك «ابن عطاء الله السكندري» مايكتنف هذه العبارة من غموض، إذ كيف يصح أن يكون الشيء لا موجودا، ولا معدوما في نفس الوقت. فسارع إلى رفع هذا الالتباس القائم بحمله على وجه من وجوه التمايز، وفي هذا المعنى يقول :

وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال،والظل لا موجودا باعتبار جميع مراتب الوجود، ولامعدوم باعتبارمراتب العدم،وإذاثبتت ظليّة الآثار لم تنسخ أحديّة المؤثر،إذا الشيءإنّما يشفع بمثله،ويضم إلى شكله،كذلك أيضا من شهد ظليّة الآثارلم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهارلايعوق السفن عن التسيار(2).

ومتى أدرك « المتقرب المحبّ» أن هذه الآثار الكونيّة لا كينونة لها من ذاتها، وأن كينونتها تبع، لا تختلف عن تبعيته في شيء، واستقر هذا في وعيه وشعوره، تخلّص من حجاب الوهم - وهو أصل قيود كثيرة - وأدرك ماقاله أبو العبّاس المرسي : «كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيبقى بعد أن كان، ومن كلا طرفيه عدم، فهو عدم بنفسه» (3)، ومن هنا نعلم مغزى حكمه ابن عطاء الله : « ماحجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لاشيء معه، ولكن حجبك توهم موجود معه» (4)

وهذه هي الحريّة الوجوديّة في أسمى معانيها، وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن الشاذلي « **من تحقق بالوجود فني عن كل موجود، ومن كان بالوجود، أثبت به كل موجود(5)** » والحقيقة أن هذه الأقوال بعيدة كل البعد عن الحلول، والإتحاد، وإن أوهم ظاهرها ذلك إذ غاية كلامهم أنهم يعنون أن الله هو الوجود الحق أما الأشياء الأخرى فهي موجودات به « **فالعبد عبد والرب رب**».

وفي هذا المعنى يقول القشيري : « وإذا قيل فني عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة والخلق موجودون، ولكنه لاعلم له بهم ولا به، ولا إحساس ولا خبر، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين، ولكنّه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين غير محس بنفسه وبالخلق. »(6).

---

1 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 199.
2 - نفس المرجع، ص 200.
3 - نفس المرجع، ص 199.
4 - بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 141.
5 - ابن الصبّاغ، درّة الأسرار، ص 119.
6 - القشيري، الرسالة البيّانيّة، ص 37.

وهو المعنى الذي أشار إليه ابن القيّم رحمه الله إذ قال : « وهم يشيرون إلى كمال المعرفة، واستيلاء شهود السّوى بالكليّة فلا يشهد القلب سوى معروفه، وينظرون هذا بطلوع الشمس، فإنها إذا طلعت انطمس نور الكواكب، ولم تعدم الكواكب، وإنما غطى عليها نور الشمس، فلا يظهر لها وجود، وهي في الواقع موجودة في أماكنها، وهكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب، قوى سلطانها وزالت الحجب عن القلب، ولاينكر هذا إلا من ليس من أهله » (1).

والشاذلي وأصحابه لايقررون أكثر من هذا، وهي عقيدة الأحدية التي قررها القرآن ذاته بقوله تعالى : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ » (2).

ولاشك لمن تأمل أن لفظ « أحد » غير لفظ « واحد » إذ أنه - كما يقول سيّد قطب - يضيف إلى معنى واحد أن لاشيء غيره معه وأن ليس كمثله شيء(3).

ويرى سيد قطب أن « عقيدة أحدّية الوجود » حقيقة يقوم عليها التصور الإيماني وفي هذا المعنى يقول :و « هي الحقيقة التي عني بها القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني، ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائما ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله،:[وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى] (4) [وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِن عِنْدَ اللَّهِ] (5)، [وَمَاتَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ *] ».(6)

وهذه غاية تجربة التلخيص حتى تصل بالإنسان إلى مستوى رفيع من معاني الكرامة الإنسانيّة، وتصيّره حرا بالمعنى الحقيقي وذلك بتخليص قلبه « من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعليّة». (7)

ومتى وصل المتقرب إلى هذا المستوى من الحريّة «تنحت عنه الأسباب الظاهرة، ورد جميع الأمور إلى مشيئته سبحانه وحده» (8) لأنه أدرك أن هذه الآثار الكونيّة ليست فاعلة في شيء، أو فاعلة لشيء.

وهذا المعنى من معاني الحريّة إيجابي لا سلبي،لأنه يضفي على حياة الإنسان

---

1 - ابن قيم الجوزيّة، مدارج السالكين، ج3، ص 111.
2 - الإخلاص، آية : 1، 2.
3 - سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج6، ص 4002.
4 - الأنفال، آية 17.
5 - آل عمران، آية : 126.
* - الإنسان، آية 30.
6 - سيّد قطب، المرجع السابق، ج6، ص 4002.
7 - نفس المرجع، ج6، ص 4002.
8 - نفس المرجع، ج6، ص 4002.

معنى ساميا فيجعله ينعم بالاستقرار النفسي فلا يخاف منه النّاس ولايفرح بما يفرح به الناس، ولا يحزن على شيء من حطام هذه الدنيا الفاني وهو معنى الآية الكريمة «لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» (1).

ومن ثم يتساوى عنده ذهب الدنيا ومدرها كما قال الصحابي الجليل حارثة وهو المعبر عنه بمقام الزهد عند الصوفيّة، ووراؤه مقام أعلى منه، وهو مرتبة ترك الزهد ذلك لأن «الزاهد في الدنيا مثبت لها فإنه شهد لها بالوجود إذ أثبتها مزهودا فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي لقد عظمتها إذا زهدت فيها»(2).

ومن ثم قال أبو الحسن الشاذلي : « وحقيقة الزهد فراغ القلب مما سوى الرب»(3).

فالزاهد حقا عنده هو من خرج عن الأوصاف الكونيّة وتحرر من رق آثارها وهو المعنى الذي أشار إليه سيّد قطب بقوله هو « الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس، ومن بينها حاجز الذات وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود » (4).

وهذه « تجربة التحرّر من التبعية الكونيّة » عند الشاذلي وهو المعنى المعبّر عنه «بالفناء» ولاشك أن من تقرب إلى الله يمثل هذا التقرب كان حقا عليه أن يمده « بأوصافه الكونيّة » وهو المعنى المشار إليه في الحديث القدسي : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر له» (5) وهو مقام المحبة أو ليست المحبّة شيئا غير هذا ؟ ومن هنا قال الجنيد « وحقيقة المحبّة دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب»(6) وإذا أدركنا هذه الحقيقة أدركنا وجه ترتب المحبّة على الزهد كما في الحديث النبوي الشريف : « أزهد في الدنيا يحبّك الله» (7).

ذلك لأن الزاهد الحقيقي هو الذي خرج عن الأوصاف الكونيّة بما فيها أوصاف نفسه، وتحرر من رق التبعية لها ، ومن ثم أمده الله بصفاته بمعنى من معاني النسبّة الإلهيّة (8).

---

1 - الحديد، آية : 23.
2 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 176.
3 - ابن الصبّاغ الحميري، درة الأسرار، ص 83.
4 - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج6، ص 4003.
5 - سبق تخريج هذا الحديث، أنظر ص86
6 - القشيري، الرسالة البيانيّة، ص 145.
7 - سبق تخريج هذا الحديث، أنظر : ص 58.
8 - أحمد شاه ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، ج2، ص 97.

وإذا وصل « المتقرب المحب» إلى إلى هذا المستوى من الحريّة الوجوديّة يكون أوعى من غيره بحرية الآخرين، فلا يقع في انحراف التسلّط عليهم، ولايمارس عليهم أي لون من ألوان العبوديّة لأنه متخل عن نزعته التربيبيّة وفي الحكمة « حريتي تنتهي إذا بدأت حرية غيري».

المستوى الثاني : التحرر من التبعيّة العمليّة :

نقصد بالتحرر من التبعيّة العمليّة التحرر من أمور ثلاثة هي : اسناد العمل إلى الذات، وطلب العوض عنه، والنظر إليه بعين التعظيم.

- **التحرر من إسناد العمل إلى الذات :**

لما كان المتقرب يشعر بأنه يتقرب إلى الله بأنواع من أعمال البر فأنه ليس من الممتنع أن تؤدي هذه الطاعات به إلى الاعتماد عليها، والإعتداد بها، بل الإعتقاد بأنّها صادرة عنه مما يفضي بالسلك إلى غرور عظيم يحول بينه وبين إدراك منّة الله عليه، ومن ثم ينسى تبعيته الأصليّة.

ولما كان منشأ هذا الزيف الذي يقع فيه المتقرّب، إنّما ينشأ نتيجة شعوره الظاهري بأنه يدبّر عمله، ويشاء الإتيان به، ويوقعه على الوجه الذي أراد، وهو مايشعره بأنها صفاته، فيميل إلى اسنادها إلى نفسه مما يخرجه عن طور العبوديّة المحضة، صحيح أنها صفات قائمة به، لكن في الحقيقة والواقع لايملك العبد منها شيئا، وإنما أمرها كله إلى الله.

ومن ثم فينبغي على المتقرب، وهو في هذه الحال أن يدرك واقع أمره، وحقيقة ذاته في تبعيتها، وجليّة تصرفاته، فلا يدعها تسند إليها ماليس لها، أو تتصرف في ملك غيرها بأي نوع من أنواع التصرّف، وإلا فهو عبد آبق عن عبوديّة سيده، منهمك في دائرة حسه، منطمس عن حضرة قدسه، وليس ذلك هو شأن الأحرار.

والصوفية جميعا لم يجعلوا لمشيئة العبد أو اختياره من وجود في جنب مشيئة الله، بل زعموا أن العبد إذا توجه إلى أن يختار لنفسه، ويدبّر لها حسب مشيئتها فهو منازع لربّه فيما هو له، وهو ما استطاع الشاذلي أن يوجزه في حكمة قصيرة قال فيها : «**لاتختر من الأمر شيئا، واختر أن لاتختار، وفر من ذلك المختار، فرارك من كل شيء إلى الله تعالى، وربّك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة**»(1)، وكان يقول أيضا:« **إن كان ولابد من التدبير فدبروا أن لاتدبروا**»(2). وهي معان عبر عنها ابن عطاء الله السكندري في حكمة قصيرة جعلها في صدر حكمه يقول :« أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك»(3).

---

1 - نقلا عن : عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 8.
2 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري التنوير في إسقاط التدبير، ص 3.
3 - بولس لويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 84.

ذلك لأن التدبير فيه نقض لعقد المبايعة مع الله تعالى حيث قال : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» (1)، والحقيقة أن هذه المبايعة توجب على العبد تسليم مابعه وعدم المنازعة فيه».

وليس في هذه الآراء غرابة ولا هي مما انفرد به الصوفية، إذ نجد نظيرها في «مدرسة الأشاعرة» - وهم لسان أهل السنّة الرسمي - لمن وقف على مذهبهم وتعمقه فلا تثريب إذن على القوم.

وفي قصة قارون التي وردت في القرآن - لمن تدبرها - عبرة إذ أن فلسفتها العميقة تتمثل في ضرورة تبري العبد من حوله وقوته، إلى حول الله وقوته قال تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ... قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي» (2).

فكان جزاؤه كما قص القرآن أن خسف به وبداره الأرض.

ومن هنا ندرك سرّ قول رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - : « لاحول ولاقوة إلا بالله كنز من كنوز الجنّة» (3) وما الكنز إلا صدق التبري من الحول والقوة لذلك سنّه الشارع فيما سنه لنا من أذكار لهذه الخاصيّة التي فيه وهو ماكان ملحظا لحكيم الإسلام شاه ولي الله الدهلوي فقال : « وثمرة هذا الذكر أن يصير الذاكر لايرى الحول والقوة إلا بالله، ويرى أن لامؤثر في العالم إلا القدرة الوجوبية بلا واسطة، ويرى الأسباب عادية وإنما تنسب المسببات لها مجازا » (4).

وصدق تبري رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أشهر من أن ينبّه إليه فانظر إلى قوله عليه السلام : « اللهم بك أصول وبك أحول» (5).

أو ليس هو المخاطب بقوله تعالى: « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ» (7) وبقوله أيضا : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»(8).

---

1 - التوبة، آية : 111.

2 - القصص، الآيات : 76، 77، 78.

3 - أخرجه : الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج5، ص 156.

4 - أحمد شاه ولي الدهلوي، حجة البالغة، ج2، ص 93.

5 - أخرجه الإمام أحمد بن حنبل، في المسند، ج1، ص 90.

6 - أخرجه أبو داود، في السنن، في كتاب الأدب، باب مايقول إذا أصبح، ج4، ص 318.

7 - سورة الأنفال، آية : 17.

8 - الفتح، آية 10.

وأليس هو - صلى الله عليه وسلّم - المخصوص بمقام المحبّة دون سائر أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - وما المحبّة إلا دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب كما أرشد الحديث القدسي : « **فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»(1) بمعنى من معاني النسبة الإلهيّة كما في قوله تعالى « **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ**» (2).

وحقيقة المنهاج الصوفي، أنه يوصلك إلى فهم هذه المعاني، ولا طريق لإدراكها إلا من هذا الطريق طريق المجاهدة والخلوة، وطريق الذكر والفكر، وألم يقرر حجة الإسلام الغزالي من قبل أن حقيقة التوحيد : « أن ينكشف لك أن لافاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق، أو رزق، وعطاء ومنع، وحياة، وغنى، وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه إسم المنفرد بأبداعه واختراعه هو الله عز وجلّ، فأنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وماسواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة والبصر»(3).

وفي هذا المعنى ذاته يقول الإمام الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني» :

«لاتطمع أن تدخل في زمرة الروحانيين حتى تعتقد أن كل شيئ في الحياة أصنام فتعاديها، تعادي جوارحك وأعضاءك، وتنفرد عن وجودك، وسمعك، وبصرك وبطش، وسعيك، وعملك لأن جميع ذلك حجاب عن ربّك عز وجلّ كما قال الخليل للأصنام في قوله تعالى :« **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ***»(4).

ومابنا حاجة إلى تتبع أقوال الصوفيّة في هذا الموضوع (5) إذ أن ذلك قد يخرجنا عن هذف البحث ولكن والحقيقة تقال، إن يكن لإتجاهات الصوفية على تعدد طرقهم واختلاف مشاربهم أصل يلتقون حوله فهو هذا الأصل وهو المعنى الذي أشار إليه الشيخ زرّوق بقوله: « هذه نكتة مذاهب القوم وحولها يحومون لكنّهم لم يصرحوا بوجهها كهذه الطائفة» (6) - يقصد الشاذليّة -

---

1 - تقدّم تخريج الحديث، أنظر : ص 86.

2 - الأنفال، آية : 17.

3 - أبو حامد الغزالي، أحياء علوم الدين، ج4، ص 231.

* - الشعراء، آية: 77.

4 - نقلا عن أحمد توفيق عيّاد، التصوف الإسلامي، ص 167، 168.

5 - من شاء أن يستزيد فلينظر فيما كتبه أبو طالب المكي في باب التوكل، **قوت القلوب**، بيروت : دار صادر، [د. ت] ج2، ص2 - 31 ، القشيري، الرسالة البيّانية، ص 75، 80.

6 - أحمد زروق، قواعد التصوف، ص 45.

ذلك لأن المدرسة الشاذليّة تزج بمريدها من أول قدم له في هذا «التوحيد الشهودي»، بخلاف سائر الطرق الأخري، إذ أنهاتجعله في نهاية سير المريد في الطريق بعد أن يتحقق بمقامات اليقين من توبة، وزهد، وصبر إلى أن يصل إلى مقام التوكل.

ولما كان هذا الأساس بمثابة قطب الرحى في الممارسة التحقيقية عند الشاذلية أفرده ابن عطاء اللّه السكندري برسالة كاملة، عمق فيها هذا المبدأ وأصله بالشواهد والنصوص الشرعية ساق فيها عشر أدلة إستند إليها في ضرورة أن يسقط المريد تدبيره عن نفسه نذكر بعضا منها بإيجاز.

أ - علم المتقرب بسابق تدبير اللّه فيه، وذلك بأن يعلم أنّ اللّه كان له قبل أن يكون لنفسه، فكما كان له مدبرا قبل أن يكون ولاشيء من تدبير الإنسان معه، كذلك سبحانه وتعالى مدبر له بعد وجوده.

ب - أن يعلم المتقرب أن التدبير منه لنفسه جهل بحسن النّظر لها، فإنّ المؤمن قد علم أنّه إذا ترك التدبير مع اللّه كان له بحسن منه لقوله تعالى : [وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] (1) فصار التدبير في إسقاط التدبير والنظر للنفس ترك النّظر لها.

جـ - علم الإنسان بأنّ القدر لايجري على حسب تدبيره، بل أكثر مايكون مالا يدبره، وأقل مايكون ماهو له مدبر، والعاقل لايبني بناء على غير قرار.(2)

ونعتقد أن في استعراضنا لبعض من هذه الأدلة التي ساقها غنية، ومن شاء أن يستزيد فلينظر ماكتبه ابن عطاء اللّه السكندري في كتابه «التنوير في إسقاط التدبير»(3).

وأعظم مظهر تتجلى فيه العبودية هو إسقاط التدبير ومن هنا قال أبو الحسن الشاذلي : « **والعبودية امتثال الأمر واجتناب النهي، ورفض الشهوات والمشيئات على الشهود والعيان**»(4) وما العبادات إلا صور ناطقة عن معاني الإخبات والخضوع ورفض مشيئة النفس امتثالا لمشيئة اللّه، وهو العبوديّة التي هي روح العبادة ولبها، وهو المعنى الذي أشار إليه المرسي حينما شكا إليه ابن عطاء اللّه السكندري بعض أمره فقال له : « الراحة في الإستسلام إلى اللّه وترك التدبير معه وهو العبوديّة » (5).

---

1 - الطلاق، آية : 3.

2 - ابن عطاء اللّه السكندري، **التنويرفي إسقاط التدبير**، ص 12، ومابعدها.

3 - أنظر: ابن عطاء اللّه السكندري، نفس المرجع، ص 12 - 16.

4 - ابن عبّاد، المفاخر العليّة، ص 98.

5 - ابن عطاء اللّه السكندري، المرجع السابق، ص 14.

لكن إذا كانت المدرسة الشاذلية ترى أن صريح العبوديّة لاينال إلا بترك التدبير ورفض مشيئة النفس، اعتمادا على مشيئة اللّه وتدبيره، فهل يعني ذلك أن يتخلى المتقرب عن كل مشيئته حتى عن مشيئة تغيير نفسه، وتغيير واقعه، ومن ثم فكيف يصل إلى اللّه؟

قد يبدو ذلك لمن يسارع إلى إدانة القوم، والتماس العيوب للبرآء، أما من خبر طريق القوم فيعلم يقينا أن ليس مقصودهم رفض كل مشيئة، وإسقاط كل تدبير وإنّما يعنون رفض كل حظوظ النّفس، وكل شهواتها بما في ذلك شهوة الوصول إلى اللّه، وإلا كان ذلك تعارضا مع أحكام الشريعة وقد مر بنا قول الشاذلي : « **وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منها شيء وأسمع وأطع**» (1).

ذلك لأن هذه الأوامر والنواهي هي عين مشيئة اللّه، ولامقصد للمتقرب إلا الإذغان لهذه المشيئة، وإنما يكون ترك المشيئة في الأمور التي تدبرها النّفس كطلب العز، والمال والوجاهة بقصد اتخاذها مطايا لتحصيل اللّذات الدنيوية الفانية وهو مابيّنه ابن عطاء اللّه شارح آراء مؤسسي هذه المدرسة وموطد دعائمها بقوله : «اعلم أن التدبير على قسمين تدبير محمود ، وتدبير مذموم. فالتدبير المذموم هو كل تدبير ينعطف على نفسك بوجود رياء، وسمعة ونحو ذلك وهذا كله مذموم لأنه إما أن يوجب عقابا أو يوجب حجابا ومن عرف نعمة العقل استحيى من اللّه أن يصرف عقله إلى تدبير مالا يوصله إلى قربه ولايكوت سببا لوجود حبّه» (2).

ثم يتحدث ابن عطاء اللّه عن التدبير المحمود فيقول : « أما المحمود هو ماكان يقربك من اللّه كالتدبير في براءة الذمم من حقوق المخلوقين إما وفاء وإما استحلالا، وتصحيح التوبة إلى ربّ العالمين، والفكرة فيما يؤدي إلى قمع الهوى المردي والشيطان المغوي، وكل ذلك محمود لاشك فيه»(3).

ومن هذا كله يتبيّن أن التدبير في المدرسة الشاذليّة ينقسم إلى نوعين :

تدبير الدنيا للدنيا، وتدبير الدنيا للآخرة، فالأول مذموم أما الثاني فهو محمود غير أن المتقرب وهو يزاول عالم الأسباب والمسببات ينبغي أن يرى الكل باللّه ومن اللّه. « فلا ينزعج إلى الأسباب مع فاقته إليها، ولايزول عنه حقيقة السكون إلى الحق،مع وقوفه عليها » (4) مستشعرا قوله تعالى:« **مَاأَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**»(5)، وقوله أيضا:«**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**»(6)

---

1 - ابن عطاء اللّه السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ص 22.

2 - نفس المرجع، ص 34.

3 - نفس المرجع، ص 35.

4 - حكمة لابن عطاء الآدمي، نقلا عن : عبد الحليم محمود، شبح الشيوخ أبو مدين، ص 82.

5 - النساء، آية 79.

6 - يونس، آية : 58.

ويمكن بعد الذي قدمنا أن نتعرف على مقصود أبي العبّاس المرسي حينما قال :«ولن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى»(1).

ولعل المرسي استفاد هذا المعنى قول الشاذلي : « **لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته**» (2).

وهذه مسألة - ولاشك - بعيدة الإدراك، صعبة المنال إذ كيف يتجه إلى الله وهو مجرد من مشيئة الوصول إليه، ومن ثم عالجها ابن عطاء الله بما لامزيد عليه في هذا المجال يقول رحمه الله :

ومعنى كلام الشيخ - يقصد المرسي - أنه لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله أي انقطاع أدب لا انقطاع ملل، يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه، فيلقي القياد إليه ويترك نفسه سلما بين يديه فلا يختار مع مولاه شيئا لعلمه بما في الاختيار من الآفات (3)

ثم يضيف لهذا معنى آخر في كتابه التنوير فيقول : « وهو أن يشهد - المتقرب إبان وصوله - عدم استحقاقه لذلك، واستحقاره لنفسه أن يكون أهلا لما هنالك فتنقطع عنه شهوة الوصول إلى ذلك لا مللا ولا سلوا، ولا اشتغالا عن الله تعالى بشيء دونه» (4)

ويحسن بنا في الأخير أن ننبه أن نظرة المدرسة الشاذلية في إسقاط التدبير ومشيئة الوصول إلى الله تكاد تتفق مع نظرة الحكيم الترمذي إن لم تكنها لذلك أحببت أن أثبت نص إجابة الحكيم الترمذي عن السؤال الذي أجاب عنه ابن عطاء الله لكي نعرف مقدار التشابه والتطابق بين المدرسة الشاذلية والمدرسة الحكيمية ومن ثم ندرك لماذا أكنّ له الشاذلي وخليفته المرسي كل هذا التقدير والتبجيل حتى كانا يدعوانه بالإمام الرباني(5) وهذا نص إجابة الحكيم نورده كاملا حرصا منّا على ترابط أجزائه.

قال له القائل: ذكرت أنه لايبقى - للعبد مشيئه،وكيف تنقطع عنه مشيئة الوصول إليه؟

قال لو تركته عمر نوح عليه السلام لم تنقطع عنه تلك المشيئة، ولكن الله لطيف بعباده، حكيم في أمره يلطف بعبده حتى يقطع عنه المشيئة، فحينئذ تطهر نفسه من جميع المشيئات ويصح للقبول، فإنه مادامت له مشيئة واحدة فنفسه معه، فليس للقلب أن يتقدم إلى الله تعالى

---

1 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 202.

2 - نفس المرجع والصفحة.

3 - نفس المرجع، ص 202، 203.

4 - ابن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير، ص 22.

5 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 106.

في مقام العرض ليقبله، ويتخذه عبدا، بعد أن تولى سيره إليه بنفسه، ولا يكله الله إلى نفسه حتى يجاهد، وليس لمثل هذا القلب أن يتقدم إلى الله مع نفس فيها مشيئة، لأن تلك المشيئة شهوة(1).

فقال له القائل : فكيف لطف الله تعالى بعبده في هذا المقام حتى انقطعت عنه مشيئته؟ فقال له الترمذي: « إذا خرجت للعبد الرحمة، من ملك الرحمة، سقاه ربه شربة يسكره بها عن هذه المشيئة! قال القائل : وماهذه الشربة؟ قال شربة الحب. قال : ماهي؟ قال : كفاك» (2).

وأحسب أن ابن عطاء الله في إجابته عن كلام المرسي كان يتوجه بها إلى السائرين إلى طريق الله، حتى لاينقطعوا عن السّير اغترارا بظاهر كلام الشيخ لما يعلم مما ركز في جبلّة النفوس من الدعوى والتوثب على المراتب العالية.

ونستطيع القول أن «المتقرب المحبّ» لايصل إلى الله إلا إذا أسقط تدبيره ومشيئته وإذا تم له ذلك يمكننا أن نقول أنه تحرر من إضافة العمل إلى ذاته، ولاشك أنه متى أدرك هذه الحقيقة يكون متحررا من عمل الآخرين في ذاته وهو المعنى الذي رامه الشاذلي حينما قال : « يئست من منفعة نفسي لنفسي، فكيف لاأيأس من منفعة غيري لها، ورجوت الله لغيري. فكيف لا أرجوه لنفسي» (3).

● التحرر من طلب العوض عن العمل :

متى تحرر المتقرب من عمله، وعلم أن المنفرد بخلق الأفعال حقيقة هو الله فإنه لا محالة متحرر عن طلب العوض، إذ كيف يطلب جزاء على عمل ليس له فاعلا على الحقيقة؟!.

ومن هنا قال ابن عطاء الله السكندري في حكمة قصيرة لخص فيها هذا الموضوع من أطرافه يقول : « لاتطلب عوضا على عمل لست له فاعلا، يكفي من الجزاء على العمل أن كان له قابلا » (4)

ثم أعقبها مباشرة بحكمة تزيد هذا المعنى جلاء فقال : « إذا أردت أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك» (5).

● التحرر من تعظيم العمل :

لما كان المتقرب يأخذ نفسه بأنواع من أعمال البر يصل نفعها للآخرين فإن هذه

---

1 - الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 419.
2 - نفس المرجع، ص 420.
3 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 9.
4 - بولس نويا : ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 135.
5 - نفس المرجع، والصفحة.

الأعمال الخيرية قد تفضي بالمتقرب إلى الإعجاب بها، وتعظيمها ومن ثم يطلب المزيّة عليها وهذا لعمري أعظم حجاب يصد العبد عن إدراك عبوديته الحقّة، فعوض أن يفرح المتقربّ بظهورها على يديه تكرما وإحسانا من اللّه عليه، إذ نجده معجبا بها ممتنا بها على الغير وفي هذا من سوء الأدب مع اللّه ومع النّاس مالا يخفى.

فلا نستغرب إذا إدعى بعد ذلك حق السيّادة، وحق الولاء، والطاعة مما يؤدي به إلى منازعة الربوبيّة حقها، ولأجل ذلك كله حرمت الشريعة المن، ومدحت المجتنبين له قال تعالى : « اَلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ» (1).

وإنما يسلم العبد من شهود تعظيم الأعمال بشهودها منّة من اللّه تعالى ومن هنا قال ابن عطاء اللّه : « لاعمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويحتقر عندك وجوده » (2).

وحاصل مما سبق أن الحرية عند الشاذلي تهدف إلى تخليص المتقرب من جميع ماسوى اللّه، فلا يكون عبد لغير اللّه الذي خلقه ليعبده، ولن ينال المتقرب هذه الحريّة إلا بتحققه بوصفي الافتقار والاضطرار وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن الشاذلي :

« ومن أخلد إلى أرض الشهوة واتبع الهوى، ولم تساعده نفسه على التخلي وغلب عن التحلي فعبوديته ... في اللجأ والافتقار إلى اللّه تعالى دائما ويقول اللّهم سلّم، ونجني وانقذني، فلا طريق لمن غلبته الأقدار، وقطعته عن العبودية المحضة إلا هذا »(3).

وهو المعنى الذي أوجزه ابن عطاء اللّه في حكمة قصيرة فقال « ماطلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب مثل الذل والافتقار » (4)

وهو مايدفعنا إلى تبيين كيفية اتصاف العبد بهما وهو المعبر عنه بلسان الصوفيّة بالتحقق وفيما يلي بيان ذلك .

2 . 2 . 2 - أسباب تحقق المتقرب بوصفي الحريّة الشيئية والعمليّة :

أ - التحقق بوصف الافتقار :

الافتقار وصف من أوصاف العبوديّة ويقابله الغني الذي هو من صفات الربوبيّة.

ونعني بالافتقار خروج المتقرب عن التملك بما فيه خروجه عن تملك هذه الصفة والتوجه إلى خالقه بالذلّة والانكسار، ذلك لأنه لاشيء أسرع للمواهب من التحقق بهذا الوصف وملابسته وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا السر في أكثر من موضع قال تعالى :

---

1 - البقرة، الآيتان: 262، 263.

2 - بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذليّة،ص 111.

3 - ابن الصبّاغ الحميري، درة الأسرار، ص 74.

4 - بولس نويا، المرجع السابق، ص 137.

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ »(1). وهوما أوجزه ابن عطاء الله في حكمة قصيرة بقوله : « إن أردت ورود المواهب عليك، صحّح الفقر والفاقة لديك. [إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ*] (2).

وإذا تحقق « المتقرب المحبّ» بهذا الوصف أصاب مايمكن أن ندعوه « بالحريّة الوجوديّة» في أسمى معانيها.

ب - وصف الاضطرار :

الاضطرار هو أخص أوصاف العبوديّة، ويعني بالاضطرار تجرد المتقرّب عن فاعليته، وهو ماكان ملحظا لابن عبّاد الرندي فقال : « الاضطرار هو أن لايتوهم العبد من نفسه شيئا من الحول والقوة، ولايرى لنفسه سببا من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، ويكون بمنزلة الغريق في البحر. أو الضال في التيه القفر، لايرى لغياثه إلا مولاه، ولايرجو لنجاته من هلكته أحدا سواه » (3).

ومتى تحقق المتقرب بهذا الوصف وتجرّد عن جميع أفعاله كلّها بما فيها فعل الاضطرار استجاب الله له، وتجلّى له بفاعليته تفضلا منه ومنّة، وعناية له سبحانه بحقيقة الاضطرار قال تعالى : « أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» (4).

وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري : « فمن اضطر إلى الله اضطرار الضمآن إلى الماء، والخائف للأمن لوجد - الله - أقرب إليه من وجود طلبه، ولو اضطر إلى رحمة الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته، لوجد الحق منه قريبا وله مجيبا »(5).

والاضطرار حقيقة ذاتية في العبد ذلك لأنه ممكن، وكل ممكن لابد من ممد يمدّه، ومن هنا قال ابن عطاء الله : «فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك مما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لاترفعها العوارض» (6).

فالآلام والأسقام التي تنتابنا من حين لآخر، إنما هي مثيرات لتحرك دواعي الاضطرار فينا لله، مصداق ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (7).

---

1 - آل عمران، آية : 123.

* - التوبة، آية : 60.

2 - بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 157.

3 - ابن عبّاد الرندي، غيث المواهب العليّة، ج1، ص 311.

4 - النمل، آية : 62.

5 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 67.

6 - بولس نويا : ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 127.

7 - يونس، آية 12.

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ »(1). وهوما أوجزه ابن عطاء الله في حكمة نصيرة بقوله : « إن أردت ورود المواهب عليك، صحّح الفقر والفاقة لديك. [إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ*] (2).

وإذا تحقق « المتقرب المحبّ » بهذا الوصف أصاب مايمكن أن ندعوه « بالحريّة الوجوديّة » في أسمى معانيها.

ب - وصف الاضطرار :

الاضطرار هو أخص أوصاف العبوديّة، ويعني بالاضطرار تجرد المتقرّب عن فاعليته، وهو ماكان ملحظا لابن عبّاد الرندي فقال : « الاضطرار هو أن لايتوهم العبد من نفسه شيئا من الحول والقوة، ولايرى لنفسه سببا من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، ويكون بمنزلة الغريق في البحر. أو الضال في التيه القفر، لايرى لغياثه إلا مولاه، ولايرجو لنجاته من هلكته أحدا سواه » (3).

ومتى تحقق المتقرب بهذا الوصف وتجرّد عن جميع أفعاله كلّها بما فيها فعل الاضطرار استجاب الله له، وتجلّى له بفاعليته تفضلا منه ومنّة، وعناية له سبحانه بحقيقة الاضطرار قال تعالى : « أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » (4).

وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري : « فمن اضطر إلى الله اضطرار الضمآن إلى الماء، والخائف للأمن لوجد - الله - أقرب إليه من وجود طلبه، ولو اضطر إلى رحمة الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته، لوجد الحق منه قريبا وله مجيبا »(5).

والاضطرار حقيقة ذاتية في العبد ذلك لأنه ممكن، وكل ممكن لابد من ممد يمدّه، ومن هنا قال ابن عطاء الله : «فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك مما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لاترفعها العوارض» (6).

فالآلام والأسقام التي تنتابنا من حين لآخر، إنما هي مثيرات لتحرك دواعي الاضطرار فينا لله، مصداق ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (7).

---

1 - آل عمران، آية : 123.

* - التوبة، آية : 60.

2 - بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 157.

3 - ابن عبّاد الرندي، غيث المواهب العليّة، ج1، ص 311.

4 - النمل، آية : 62.

5 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 67.

6 - بولس نويا : ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 127.

7 - يونس، آية 12.

وقوله جلّ شأنه : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (1)، ولما اتسعت فهوم الصوفية لهذه الحقيقة اتصفوا بها، تحققا بوصفهم الذاتي ومن هنا قال أبو العباس المرسي : « الولي لايزال مضطرا » (2) وهو المعنى الذي يشير إليه ابن عطاء الله ولكن بأرشق عبارة « العارف لايزول اضطراره، ولايكون مع غير الله قراره» (3).

والاضطرار في حد ذاته منّة إلهية عظمى، إذ لاتعمّل للعبد فيه، فإذا أراد الله أن يعطي عبدا وفقه للاضطرار، وإذا أراد أن يمنعه عنه صرفه عنه وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري : « وإذا أراد الله تعالى أن يمنع عبدا أمرا منعه الاضطرار إليه فيه، ثم منعه إيّاه» (4).

وحاصل مما سبق أن المحب لايتحقق بالعبوديّة الكاملة إلا إذا تحرر من رق الأغيار الكونيّة، ولن يصل إلى ذلك إلا بالتوسل لها بوصفي الافتقار والاضطرار. وعلى مقدار هذا التحقق يدرك عبوديته كاملة، وأكمل منه عبد تجرد حتى عن هذين الوصفين ليصيب الحرية الحقّة، فتخلغ على العبد خلع التشريف، بل خلع التولية ماحقق هذين الوصفين فإذا تحقق بذله أمده بعزته، وإذا تحقق بعجزه أمده بقدرته، وإذا تحقق بضعفه أمده بحوله وقوته(5).

وهو المعنى الذي أشار إليه أبو الحسن الشاذلي بقوله :

وتصحيح العبوديّة ملازمة الفقر والضعف والذل لله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبيّة فما لك ولها؟ فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه وقل من بساط الفقر الحقيقي ياغني من للفقير سواك؟ ومن بساط الضعف الحقيقي : ياقوي من للضعيف سواك، ومن بساط العجز الحقيقي: ياقادر من للعاجز سواك، ومن بساط الذل الحقيقي:ياعزيز من للذليل سواك، تجد الإجابة كأنها طوع يدك قال تعالى :[إِسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا](6) [إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ*] (7).

---

1 - الأنعام، الآيتان: 42، 43.

2 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 154.

3 - بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص 127.

4 - ابن عطاء الله، المرجع السابق، ص 156.

5 - بولس نويا،المرجع السابق، ص 127.

6 - الأعراف، آية 128.

* - البقرة، الآية : 153.

7 - ابن الصبّاغ، درة الأسرار، ص 73.

فسبحان من ستر الخصوصيّة بظهور سر البشرية، ولهذه اللطيفة قال أبو الحسن الشاذلي : « العبوديّة جوهرة أظهرها بها الربوبيّة » (1) ومن كانت هذه أوصافه أليس هو ولي الله حقا.

وهكذا نكون قد بيّنا كيف أن التحقق بوصف العبوديّة هو في حقيقته تجربة محبّة تصل بمن تحقق بها إلى معرفة الله، « وشتان بين عقل الإرادة وعقل التجريد » (2)، وشتان بين المستدل به والمستدل عليه.

ثالثا - مقتضيات الممارسة التحقيقيّة :

بينا سابقا منهج الممارسة التحقيقيّة عند الشاذلي، غير أن هذا المنهج يظل غير مثمر، إذا لم يأخذ بالدعامتين التاليتين :

- الشيخ الربي.
- الذكر

وغرضنا في هذا المبحث أن نبيّن أهميّة هاتين الركيزتين في الممارسة التحقيقية.

1 - ضرورة الشيخ المربي للمريد :

لايستطيع المريد سلوك منهج الممارسة التحقيقيّة إلا بالاسترشاد بمرشد، أو شيخ يبصره عيوب نفسه، وخفايا آفاتها، كما يعلّمه كيفيّة الاتصاف بالعبوديّة التي تعتبر أصلا رئيسيا في الممارسة التحقيقيّة في كل تصوف، بحيث لايكون الصوفي صوفيا إلا بتحققه بمقامها.

ويكاد يجمع الصوفية على ضرورة المربي لسلوك الطريق، وفي هذا يقول أبو الحسن الشاذلي : « لايتم للعالم سلوك طريق القوم إلا بصحبة أخ صالح، أو شيخ ناصح »(3) ويقول أيضا « كل من لايكون له في هذه الطريقة شيخ لايفرح به » (4).

ويبيّن لنا ابن خلدون وجوه وجوب الشيخ المربي لسالك هذه الطريقة فيقول :

« إن مجاهدات هذه الطريقة وإن كان أصلها من الكتاب والسنّة إلا أنهامن التفاريع المحدثة. وهي خاصة لأهل الهمم في تحصيل بذر السعادة الكبرى قبل الموت بنوع من الكشف الحاصل بالموت فكأنها بمنزلة شريعة خاصة لها أحكام وآداب لايقلّد فيها غير من سنّها وشرع طريقها »(5).

---

1 - نقلا عن : ابن عجيبة الحسيني، إيقاظ الهمم، ص 204.

2 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، سنة 1990م، ص 253.

3 - الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2و ص 6.

4 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 105.

5 - ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، ص 59.

ويضيف قائلا : «أن سالك هذه الطريقة متعرض بطلبه لحصول صفتين إحداهما من كسبه واختياره، وهو التصفية عن الخلق الذميم، والتزكيّة بالخلق الحميد، والأخرى خارجة عن قدرته واختياره، وليست من كسبه وهو مما بعض للسالك من الأحوال قبل الكشف ومعه وبعده» (1).

ثم يقول: « إن حقيقة سلوك هذه الطريقة يتمثل في إخماد القوى البشريّة كلّها حتى يكون السالك ميّت البدن حيّ الروح، ولاشك أن الوصول لهذه الغاية بعيد المنال في الأكثر، إلا بالمعلّم المرشد وهذا شأن الصنائع كلّها » (2).

والواقع أنّ من التصوف مايعبر عنه وهو مسطور في الكتب، ومنه ماتضيق اللغة عن الإحاطة به. وإنما ترشد إليه الإشارة التي هي عبارة عن رموز لتلك الأمور الذوقيّة الوجدانيّة التي يجدها الإنسان في نفسه، ولايقدر أن يصوّرها لغيره إلا بتلك الوسيلة(3).

والواقع أن المربي ضروري للمريد وفي هذا يقول أحمد زروق :

من كمال التقوى، وجود الاستقامة، وهي حمل النفس على أخلاق القرآن والسنّة كقوله تعالى [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] (4) وقوله : [ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ] (5) إلى غير ذلك. ولايتم أمرها إلاّ بشيخ ناصح، أو أخ صالح، يدل العبد على اللائق به لصلاح حاله، إذ ربّ شخص ضره ماانتفع به غيره.(6)

ولذلك تنوعت وصايا الرسول - صلّى الله عليه وسلّم - وتوجيهاته، لأصحابه بتنوع أحوالهم «فلقد نهى عبد الله بن عمر عن سرد الصوم، وأقر عليه حمزة بن عمر الأسلمي، وقال في ابن عمر: نعم الرجل لو كان يقوم اللّيل، وأوصى أبا هريرة ألا ينام إلاّ على وتر.(7).

وهذه كلّها ولاشك تربية منه - صلّى الله عليه وسلّم - لأصحابه في مقام الاستقامة.

ثم يؤكد الشيخ زروق ضرورة المشيخة ولزومها من سلوك الصحابة فيقول في القاعدة(65):

---

1 - ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، ص 59، 61.

2 - نفس المرجع، ص 61.

3 - نفس المرجع، ص 61.

4 - الأعراف، آية 199.

5 - المؤمنون، آية 96.

6 - أحمد زروق، قواعد التصوف، ص 38.

7 - نفس المرجع والصفحة.

أخذ العلم والعمل عن المشايخ، أتم من أخذ دونهم، «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» (1) « واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ»(2) فلزمت المشيخة، سيّما والصحابة أخذوا عنه عليه الصلاة والسلام، وقد أخذ هو عن جبريل، واتبع إشارته في أن يكون عبدا نبيا، وأخذ التابعون عن الصحابة، فكان لكل أتباع يختصون به، كابن سيرين وابن المسيّب، والأعرج لأبي هريرة وطاووس ووهب، ومجاهد عبّاس، إلى غير ذلك.(3).

ويلخص الشيخ رأيه في هذه المسألة في القاعدة 66 فيقول : « ضبط النّفس بأصل يرجع إليه في العلم والعمل لازم لمنع التشعب والتشعث، فلزم الاقتداء بشيخ، قد تحقق اتباعه للسنّة، وتمكنه من المعرفة، ليرجع إليه فيما يرد أو يراد، مع التقاط الفوائد الراجعة لأصله من خارج» (4).

ويبدو أن لجاجة كبيرة حدثت بين فقراء الأندلس، حول مسألة سلوك طريق الصوفيّة. فيما إذا كان يصح ذلك بالكتب الموضوعة فيه أو لابد من الشيخ، ثم كتبوا للبلاد وممن تصدى للإجابة عن هذا السؤال العلاّمة « محمد بن عباد الرندي». في رسالة (5) بعث بها إلى زميله «إبراهيم الشاطبي» (6)، والعلامة «عبد الرحمن بن خلدون» حيث أفرد لها كتابا سمّاه «شفاء السائل لتهذيب المسائل»(7) وجملة الأجوبة - فيما يرى زروق - دائرة على ثلاث :

« أولها : النظر النظر للمشايخ. فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب الحاذق، يعرف موارد العلم، وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لدي دين عاقل ناصح، وشيخ الترقية، يكفي عنه اللقاء والتبرك، وأخذ كل ذلك من وجه واحد أتم.

الثاني : النظر لحال الطالب، فالبليد لابد له من شيخ يربيه، واللبيب يكفي الكتاب في ترقّيه. لكنه لايسلم من رعونة نفسه وإن وصل، لابتلاء العبد برؤية نفسه.

الثالث : النظر للمجاهدات، فالتقوى لاتحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها، والاستقامة

1- العنكبوت، آية : 49.

2 - لقمان، اية : 15.

3 - أحمد زروق، قواعد التصوف ص 39.

4 - نفس المرجع ، ص 39، 40.

5 - أنظر هذه الرسالة كاملة ضمن مجموعة الرسائل الصغرى : محمد ابن عبّاد الرندي، **الرسائل الصغرى**. تحقيق الأب بولس نويا، ط2، بيروت : دار المشرق 1974م، ص 130، 140.

6 - هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي، من أهم تآليفه : الموافقات والاعتصام توفي 790 - أنظر في ترجمته : محمد مخلوف شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 231، عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفيّة، ص 236.

7 - ابن خلدون، **شفاء السائل لتهذيب المسائل**، تحقيق الأب أغناطيوس عبده، ط1، بيروت : المطبعة الكاثوليكيّة 1959م.

للأفكار المنحرفة والعقائد الضالة فكانوا بمسلكهم هذا عرضة للنقد، بل التهجم على حركة التصوف بصورة عامة.

أما مسألة سلوك المريد على يد أكثر من شيخ واحد، في الوقت نفسه، فهي مسألة خلافية بين مشائخ الصوفيّة، غير أن الشاذلي كان يجيز لمريديه التحول عنه إلى غيره ولايلزمهم التقيّد به وفي هذا المعنى يقول : «اصحبوني ولا أمنعكم أن تصبحوا غيري. فإن وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فردوه» (1).

ولعله متأثر برأي الحكيم الترمذي في هذه المسألة في حين نجد ابن عربي يمنع المريدين من ذلك. وهو الذي راض نفسه على يد أكثر من خمسة وخمسين شيخا كما تبيّن ذلك رسالة «روح القدس في محاسبة النفس»! غير أنه والحقيقة تقال أن « المدرسة الشاذليّة» المتأخرة أخذت برأي ابن عربي وتركت رأي الشاذلي مؤسس هذه المدرسة.

بقي أن نشير في الأخير أن المريد إذا صحب شيخا كاملا لايستفيد منه إلا إذا تحلّى بما يلي :

أ - أن يلزم شيخه مهما كانت معاملة شيخه له لأن الشيخ يرى نالا يراه المريد وفي هذا يقول المرسي : « عليك أيها المريد بالعكوف على أعتاب شيخك ولو طردك فلا تبرح وسارقه في القرب منه فإن الأشياخ لايكرهون أحدا من المسلمين لحظ نفس، وإنما يقع ذلك منهم تأديبا» (2).

ب- أن يجلس المريد مع شيخه متعلما لا متعالما قال أبو الحسن الشاذلي : « من أراد الترقي على يد شيخه فلا يدخل عليه قط، إلا وهو تارك لمعلوماته الدنيّة ليدلّه على المعلومات العليّة»(3).

جـ - أن يعظمه ويعتقد ولايته، وقربه من الله، ولاتحجبه مظاهر البشرية عن أسرار الخصوصيّة، قال أبو الحسن الشاذلي: « إيّاك أيها المريد أن تستصغر شيئا من أعمال شيخك»(4).

ولعله يشير بهذا إلى الأعمال الظاهرة لأنه علل ذلك بقوله : « فإن ورد الأولياء الأكابر أنما هو إسقاط الهوى، ومحبّة المولى، ورد النّفس عن الباطل، في عموم الأوقات»(5).

---

1 - نقلا عن : ابن عياد الشافعي، المفخّر العليّة، ص 60.

2 - نقلا عن: عبد الوهاب الشعراني، **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفيّة**، بيروت : مكتبة المعارف، 1978م،ج 2، ص 21.

3 - المرجع نفسه، ج2، ص 19.

4 - المرجع نفسه والصفحة.

5 - المرجع نفسه والصفحة.

د - أن يتأدب في حضرته ظاهرا وباطنا أما الأدب الباطن فاعتقاد الكمال، وأما الآداب الظاهرة فكثيرة نذكر منها :

- عدم جدال الشيخ ومناقشته، وإظهار الاعتراض عليه قال أبو الحسن الشاذلي : « إياكم والاعتراض على الأشياخ، واصبروا تجت جفائهم لكم، وماقال شيخ لمريد قط جاء بطلب الطريق : قف ساعة، إلا لما رآه من قلة أدب المريد، ولو رأى عنده أدبا لبادر لأخذ العهد عليه» (1).

- التزام الهيبة والاحترام ولو باسطة شيخه قال أبو العباس المرسي : « عليكم بمعانقة الأدب، مع أستاذكم ولو باسطكم فإن قلوب الأولياء كقلوب الملوك تتقلب من الحلم إلى الغضب والانتقام في لمحة» (2).

- ثم أن المريد إذا جلس بين يدي أستاذه الكامل متحليا بآلاداب عليه أن «يتنمذج» به حتى ينصبغ كل واحد بالآخر وفي هذا المعنى يقول أبو العباس المرسي : « اعمل أيها المريد على أن تتحد بشيخك، فيكون ماعنده من المعرفة عندك على حد سواء، ويكون تميزه عليك إنما هو بالإضافة لاغير» (3).

- وفي هذا يقول الشاذلي مخاطبا تلميذه وخليفته المرسي : « يا أبا العباس ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت» (4)

ولا ينبغي للمريد أن يكتم أستاذه شيئا من أحواله الباطنة قال أبو العباس المرسي : « إذا سألك أستاذك عن شيء من أحوالك الباطنة فأجبه على الفور من غير تفكر» (5)

ثم يلتزم مايمنحه من أوراد وأذكار، فإذا فعل ذلك فهو المريد حقا السالك طريق الجادة.

2 - مبدأ الذكر :

إن التقرب بالذكر من أهم أركان الممارسة التحقيقيّة، ونحن نورد الآن بيان كيف أن تجربة الذكر ضروريّة في تحصيل العرفان.

ولقد عرف الشاذلي حقيقة الذكر بأنها : « الانقطاع عن الذكر إلى المذكور، وعن كل شيء» (6)، ومن هنا كان « لتجربة الذكر» أهمية كبيرة عنده وماذلك إلا لأنّها توصّل إلى تعرف الحق للمتقرب.

---

1 - عبد الوهاب الشعراني، الأوار القدسيّة، ج2، ص 5.

2 - المرجع نفسه، ج2، ص 22.

3 - المرجع تفسه ج2، ص 21.

4 - نقلا عن : ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 96.

5 - عبد الوهاب الشعراني، المرجع السابق، ج2، ص 23.

6 - نقلا عن : أحمد الفاسي، شرح رائية الشريشي، ط1. القاهرة : المطبعة العامرية 1316هـ، ص 127.

ويتفق الشاذلي في اعتباره « لتجربة الذكر » هذه الأهمية الكبرى في طريق الوصول إلى معرفة الله، مع سائر الصوفية الذين اعتبروا الذكر العروة الوثقى في الطريق إلى الله، وفي ذلك يقول أبو علي الدقاق : « الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولايصل أحد إلى الله ولا بدوام الذكر» (1).

لذلك عني ابن عطاء الله السكندري، لسان حال « المدرسة الشاذليّة» بتجربة الذكر عناية كبيرة، وكتب فيها رسالة خاصة وهي المعروفة « مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح» (2) أظهر فيها معنى الذكر وأنواعه، ومايثمره من أحوال ومقامات.

ويعلل ابن خلدون سر اهتمام الصوفيّة بهذه العبادة فيقول : « والذكر كالغذاء لتنمية الروح، ولايزال في نموّ وتزيد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما، ويكشف حجاب الحس، ويتم وجود النّفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك» (3).

لهذا كان الذكر هو وسيلة الصوفيّة المفضلة إلى حياتهم الروحيّة الحقة، حيث يصير الذاكر إلى حالة المشاهدة، والمكاشفة التي هي غاية الطريق الصوفي.

وإذا وصل المتقرب إلى هذه المرتبة الساميّة، ظفر لامحالة بالإشراقات القدسية والفيوضات الربّانية، وفاضت عليه الرحمة، ومن ثم آثر الصوفية الذكر على سائر أنواع العبادات، وضروب المجاهدات، وفي هذا المعنى يقول أبو حامد الغزالي : « فما بال ذكر الله سبحانه وتعالى مع خفته على اللّسان وقلة التعب فيه صار أفضل، وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها، فاعلم أن تحقيق هذا لايليق إلا بعلم المكاشفة، والقدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب... وهو المقدم على العبادات، بل تشرف به سائر العبادات، وهو غاية ثمرة العبادات العملية» (4).

ويذهب الشاذلي إلى أن الذكر أربعة أنواع : « ذكر لطرد الغفلة أو مايخافه المرء من الغفلة ؛ ذكر العذاب، أو النعيم، أو القرب، أو البعد، أو اللّه...ذكر يذكر المرء بأن الحسنات من الله تعالى والسيئات من قبل النفس، والعدو وإن كان الله هو الخالق لها، وذكر يذكر به المرء، وهو ذكر الله لعبده وهذا النوع ليس للعبد فيه تعمل، وإن كان يجري على لسانه. وهو مو ضع الغنى بالذكر أو بالمذكور العلي الأعلى» (5).

---

1 - القشيري، الرسالة، ص 101.

2 - ابن عطاء الله السكندري، **مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح**، القاهرة : مطبعة محمد علي صبيح ،أولاده بصر.

3 - ابن خلدون، المقدمة، ص 866، 867.

4 - ابو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص 271.

5 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 70.

والنوع الرابع من الذكر كما يقول الشاذلي : « هو حقيقة ماينتهي إليه في السلوك»(1).

وإذا تحول الذكر إلى لقلقة فارغة باللّسان كما هو الشأن في الفترات التي يضعف فيها التصوف، ومن ثم لم تصبح له قيمة خلقيّة أو معرفيةٌ، فإن هذا لايغض من قدره كوسيلة يتوسل بها إلى اكتساب المعرفة الحقّة.

ويلحق بالذكر غالبا السماع غير أن الشاذلي كما يظهر من الشذرات المنقولة عنه لم يكن يحفل به، متأثرا في ذلك برأي ابم مشيش الذي أجابه في شأنه بقوله تعالى : «إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ» (2).

ويبدو أن الشاذلي كان يعتبر السماع من خصائص ذوي الأهواء الرديّة، لأن أصحابه يتمايلون عند سماعه تمايل اليهود ، دون أن يحظى الواحد بما يحظى به أهل الشهود (3) ولهذا نجده يوصي أحد مريديه فيقول :

«فعليك بكتاب اللّه الهادي، وبكلام رسوله الشافي، فلن تزال بخير ما آثرتهما، وقد أصاب الشر من عدل عنهما » (4).

وهو رأي يكاد يتفق مع رأي ابن عربي الذي منع السماع في طريقه لا لذاته، ولكن بسبب كثرة دعاوي المريدين فيه (5).

---

1 - ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 70.

2 - الصافات، الآيتان: 69، 70.

3 - ابن عيّاد ، المرجع السابق، ص 110

4 - نفس المرجع والصفحة.

5 - ابن عربي، روح القدس في محاسبة النّفس، ص 43، 44

الفصل السادس

نظريته في الولاية

جامعة الأمير للعلوم الإسلامية

تمهيد :

بيّنا في الفصل السّابق أهميّة تجربة المحبّة بشقّيها في الممارسة التحقيقية عند الشاذلي، وقلنا أن هذه التجربة تصحبها عادة آثار التولية، وهذا مايدفعنا إلى استقصاء عناصر نظريّة الشاذلي في الولاية التي هي ثمرة سلوك الطريق الصوفي وفي هذا المعنى يقول «الهجويري (1)»:

«اعلم أن قاعدة ،وأساس طريقة التصوف والمعرفة جملة ،يقوم على الولاية وإثباتها، لأن جميع المشايخ - رضي الله عنهم - متفقون في حكم إثباتها، غير أن كلا منهم بيّن هذا بعبارة مختلفة»(2)

والأساس الذي يصدر منه الصوفيّة في مفهومهم للولاية هوتحليل النصوص الواردة في القرآن، والسنّة كقوله تعالى : «وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ»(3) وقوله أيضا : «إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا،» (4) وقوله : «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (5).

أما السنّة فهي قوله - صلّى الله عليه وسلّم - في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه- عن رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم -عن ربّ العزّة جلّ وعلا:

> من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وماتقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنّه(6)

---

1 - هو أبو الحسن على الهجويري، صاحب كتاب «كشف المحجوب» ويعد أقدم كتاب في التصوف باللّغة الفارسيّة،توفي سنة 465هـ وقيل 469هـ. في لاهور أنظر في ترجمته: عبدالمنعم الحفني، الموسوعة الصوفيّة ، ص 401 - 402.

2 علي الهجويري، كشف المحجوب، ص442، 443.

3 - الأعراف، آية : 196.

4 - المائدة، آية :55.

5 -يونس، آية :62.

6 - سبق تخريج الحديث فيما تقدّم.أنظر :ص86.

وتجمع المصادر الصوفية على أنّ أول من قدم نظريّة كاملة في الولاية هو أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم (ت 320هـ). صاحب الكتاب الذائع الصّيت في الدوائر الصوفيّة، أعني «ختم الأولياء» (1). وقد عرفناسابقا تأثر الشاذلي به، بل توليه لشرحه في حلقات وعظه(2). ويذكر الهجويري أن الترمذي : «كان واحدا من أئمة وقته في جميع علوم الظاهروالباطن، وله تصانيف ونكت كثيرة، وكانت قاعدة كلامه وطريقه على الولاية» (3) والذي يعنينا هناهو الحديث عن تصوّر أبي الحسن الشاذلي وخلفائه لها، بعدأن تعرفنا على منهجهم في الممارسة التحقيقيّة للوصول إلى هذه الغاية.

وسنحاول في هذا الفصل وبمقدار ماتسعفنا به المراجع أن نستجلي آرائهم في الولاية، ونقارنها بآراء غيرهم حتى تتضح نظريتهم أكثر لكن قبل شروعنا في هذا الفصل لابد أن نحدّد مفهومهم لها، إذا أردنا تصوّر نظريتهم تصوّرا صحيحا.

أولا - مفهوم الولاية :

1 -المعنى اللّغوي للكلمة :

جاء في لسان العرب الولي هوالناصر، وقيل المتولي لأمور العالم ،والخلائق القائم بها، ومن أسمائه عزّ وجلّ الولّي، وهو المالك للأشياء جميعها المتصرّف فيها.

قال ابن الأثير : كأن الولاية تشعربالتدبير، والقدرة، والفعل ،ومالم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه إسم الولي. والولي : الحليف القريب، والمعتق، والناصر، والمولى المحبّ، والولي الذي يلي عليك أمرك(4).

والناظر في معاني هذه الكلمة المختلفة يجدها تدور حول معنى : القرب، والدنو، والمناصرة، وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم واستعمالاته لهذه الكلمة نجد أن أظهر معنى ورد في الاستعمال القرآني هو التناصر قال تعالى:

---

1 - حققه ونشره عثمان إسماعيل يحي، وطبع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة 1965م.

2 - ابن عطاء الله السّكندري، لطائف المنن، ص 117.

3 - الهجويري، كشف المحجوب، ص 442.

4 - ابن منظور، لسان العرب، مادة ولي، ج20، ص287.

« هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» (1)ويبيّن الإمام الشوكاني معني هذه الآية فيقول : «والمعنى هنالك أي في ذلك المقام ،النّصرة للّه وحده لايقدر عليها غيره. »(2)

ويفسر ابن جرير الطبري(3) الأولياء في قوله تعالى [أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] (4):«بأنهم أنصار اللّه لاخوف عليهم في الآخرة من عقاب اللّه لأن اللّه أمنهم من عقابه، ولاهم يحزنون على مافاتهم من الدنيا ،والأولياء جمع ولي وهو النّصير» (5).

ولقد اختار ابن تيمية – رحمه اللّه –من هذه المعاني المحبّة والقرب قال: «الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبّة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد» (6)ثم قال مشيرا لرأى القشيري : «وقد قيل : إن الولي سمى وليّا، من موالاته الطاعات أي متباعته لها، والأول أصح» (7)ويذهب القشيري إلى أن الولي يحتمل أمرين :

أحدها فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى اللّه سبحانه أمره، قال اللّه تعالى : «وهو يتولى الصالحين» فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى اللّه سبحانه رعايته، والثاني فعيل مبالغة من الفاعل وهو الذي يتولى عبادة اللّه تعالى وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غيرأن يتخللها عصيان(8).

2 - المعنى الاصطلاحي للولاية:

أما إذا نظرنا إلى المعنى الاصطلاحي للكلمة عند الصوفية فإننا نجدهم يعنون

---

1 - الكهف، آية : 44.

2 - محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير**، ط2، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنة 1964م، ج3، ص 278.

3 -هو محمد بن جرير الطبري، ولد سنة224هـ، من أهم مؤلفاته تفسيره الكبير المعروف باسمه وهو «جامع البيان» وتاريخه، «تاريخ الرسل والملوك» توفي سنة 310هـ.أنظر في ترجمته : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج2، ص 260.

4 - يونس ، آية: 62.

5 - الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** القاهرة : المطبعة الميمنية، [د، ت]، ج11، ص 83.

6- ابن تيمية، مجموعة الفتاوي، ج11، ص 160، 161.

7- نفس المرجع والصفحة.

8 - القشيري، الرسالة البيانية، ص 118.

بها كما قال الجرجاني :«العارف باللّه وصفاته بحسب مايمكن، والمواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي، والمعرض عن الانهماك في اللّذات والشهوات»(1)، ويرى لذلك :«أن الولاية هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه» (2)

ويقول عبد الرزاق القاشاني في «اصطلاحات الصوفيّة»، أن الولاية هي : قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكن(3)

وإذا كان لابد من إيجاد صلة بين المعنى اللغُوي والاصطلاحي فإنّ هذه الصلة ستكون على معنى القرب، إذ على مقدار تحقق العارف بالفناء عن نفسه، وعن أوصافه يكون بقاؤه باللّه، وقيامه به، وفي هذا نهاية القرب.

ولقد تناول الشاذلي هذا الموضوع فميّز بين نوعين منها : كبرى وصغرى، وإن شئت قلت ولاية الصادقين، وولاية الصديقين. والأساس الذي صدر منه الشاذلي عند تقسيمه للولاية ، هو ماأشارت إليه الآية الكريمة، « ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ»(4).

فالولاية عند الشاذلي قسمان:

- ولاية كبرى : وهي ولاية اللّه للعبد، قال تعالى :«وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ»(5)

-ولاية صغرى : وهي ولاية العبد للّه، ولرسوله وللمؤمنين قال تعالى :«وَمَنْ يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ» .(6)

والولاية الكبرى تخرج من خزائن المنن على بساط المحبّة، أما الصغرى فتخرج من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن الشاذلي :

«من أجل مواهب اللّه الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على اللّه عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب، فمن خرجت له هذه الأربعة من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة ومتابعة السنّة، والإقتداء بالأئمة، فقد صحت

1- الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، بيروت: مكتبة لبنان 1978م، ج3، ص 275

2 - نفس المرجع والصفحة.

3 -عبد الرزاق القاشاني، اصطلاحات الصوفيّة، تحقيق محمد كمال جعفر، ط1، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، ص 54.

4- الشوري، آية : 13.

5 - الأعراف، آية : 196.

6 - المائدة، آية : 56.

ولايته لله، ولرسوله ،وللمؤمنين، ومن خرجت له هذه من خزائن المنن على بساط المحبّة فقد تمت ولاية الله له. »(1)

وابن تيمية أيضا يقسم الولاية إلى قسمين:طبقة أصحاب اليمين المقتصدين وطبقة السّابقين المقربين.(2).وإذا أمعنا النظر وجدنا أن كلتا الطبقتين تندرجان تحت الولاية الصغرى التي يتحدث عنها الشاذلي،إذ أن ابن تيمية يقول عن ولاية المقرّبين، وهي الولاية الخاصة عنده بأنهاتنال لمن تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ،ففعلوا الواجبات والمستحبات ،وتركوا المحرمات والمكروهات.(3)

ولاشك أن هذه ولاية الإنابة والاهتداء، أو الولاية الصغرى،التي يشير إليهاالشاذلي، لا ولاية أهل الاجتباء التي تكون للمحبوبين .

ثانيا - خصائص الولاية :

من استقراء التصورات العامة للولي عند الصوفية نجد الخصائص التالية :

- المعرفة.
- الحفظ.
- العلم اللّدني.
- التحقق بالمقامات
- الكرامات.
- التأدب بآداب الشريعة.

فما هي نظرة الشاذلي ،والشاذليين إلى هذه الخصائص؟

1 -المعرفة :

لانكون مبالغين إذا قلنا بأن المعرفة هي أظهر صفة من صفات الوليّ، ولانبعد عن الصواب إذا قلنا بأن الولاية والمعرفة وجهان لعملة واحدة، تأسيسا على ماتقدم في حدي العارف والوليّ، إذ أن العارف هو من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، وصدق الله في معاملاته (4)، أما الولي فهو العارف بالله وصفاته القائم بالحق عند الفناء عن نفسه(5).

والمنعم النظر في هذه التعاريف يجد تطابقا بين الولي والعارف ومن ثم فإنّ

---

1 - نقلا عن : ابن عطاءالله السكندري، لطائف المنن، ص 24.

2- أنظر : ابن تيمية الفتاوي الكبرى، ج11، ص 176، ومابعدها

3- ابن تيمية، **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** ، لاهور:إدارة ترجمان السنّة 1977م، ص 30.

4 - التعريف للقشيري أنظر في ذلك : القشيري، الرسالة، ص141.

5 - الجرجاني ، كتاب التعريفات، ج3، ص275.

المعرفة - ولاجرم- هي معنى الولاية، وتتميز المعرفة عند الصوفيّة بسمتين :

- أنها معرفة لاتحصل عن طريق النظر الفكري.

- أنها معرفة لايمكن تحقيقها إلا بشهود محض.

السّمة الأولى :يعيب الصوفيّة على المتكلمين استعمالهم للبراهين المنطقيّة في حق الله سبحانه وتعالى،ويعتبرونهم لأجل ذلك من جملة العوام، وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن الشاذلي« : أرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان»(1)

ذلك لأن المستدل بوجود المخلوق على الخالق، وبالمصنوع على الصانع، وبالمحدث على القديم مقر في قرارة نفسه بأنها أظهر وأوضح من مدلولها - إذ الأدلة دائما أجلى من مدلولاتها - وإلا لما نصبها دليلا عليه، ومعترفا بأنّ لها رتبة التوصيل لها من دونه،فكأنه سبحانه محتاج لها ومفتقر إليها للدلالة عليه، وهو الغني عن العالمين قال تعالى« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ» (2)

وهي الحقيقة التي أشار إليها الشاذلي بقوله «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء(3)

ويزيد ابن عطاء الله السكندري هذا المعني إيضاحا فيقول :«فأهل الشهود قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه،وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل، وكيف يكون معروفا به وهو المعرف له. »(4)

والواقع أنّ أهل العرفان لايغيب الله عنهم لحظة حتى يستدلون بشيء عليه، بل لايرون شيئا في هذا الوجود أصلا إلا رأوه قبله جلّ وعلا، فهوسابق عندهم لامسبوق، وهو معنى أكده الشاذلي في حكمة أخرى يقول فيها: إنالننظرإلى الله ببصائر الإيمان ،فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان» (5).

ولقد استطاع ابن عطاء الله السكندري أن يوجز كل هذه المعاني في حكمة قصيرة ضمنها مناجاته، ولله دره وهو يقول :

---

1 - نقلا عن : ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم، ص 503.

2 - فاطر، آية : 15.

3- ابن عطاء الله، لطائف المنن،ص 42.

4 - نفس المرجع، والصفحة.

5 - نفس المرجع ، ص 43.

«إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك،، أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لاتراك عليها رقيبا وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبّك نصيبا » (1).

وماذكرناه عن أبي الحسن الشاذلي وابن عطاء اللّه السكندري هو نفسه مذهب المتقدمين من الصوفيّة.

السمة الثانية : ولعل أخص صفة بالمعرفة هي حصولها بعد الشهود المحض، أي بعد فناء المتقرب عن نفسه، وإمحاء رسومه، وزوال إنيته، وعلى مقدار أجنبيته عن نفسه، يكون قادرا على المعرفة (2)، إذ أن معرفة الحق لاتتم إلا بالحق، وإذا وصل المتقرب إلى هذا المقام، وهو المعبّر عنه «بالفناء» أصاب لامحالة «البقاء» فتخلع عليه من ثم خلع التأييد الرباني، بل خلع التولية وهو المعنى الذي أرشد إليه الحديث القدسي :«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ،وبصره الذي يبصر به»(3). ولاشك أن من كان سمعه باللّه، وبصره باللّه ،فهوأصح إدراكا، وأقوم رأيا من المؤمن الذي ينظر بنور اللّه، فضلا عن صاحب العقل المجرد.

2 -الحفظ : الذي يتولاه لابد أن يكون محفوظا بإتفاق الصوفيّة قال القشيري: «من شرط الولي أن يكون محفوظا كما أنّ من شرط النبي أن يكون معصوما » (4).

وقال الكلاباذي : «ولطائف اللّه في عصمة أنبيائه، وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعدّ» (5).

---

1 - بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذليّة، ص216، 217.

2 - من كلام أبي علي الدقاق أنظر:القشيري : الرسالة البيّانية، ص 141.

3 - تقدم تخريج الحديث. أنظر: ص86.

4 - القشيري، **الرسالة القشيرية** ، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ج2، ص 520.

5 - الكلاباذي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، تحقيق محمد أمين النواري، ط2، القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، 1980م، ص 99.

ولكن مامفهوم الحفظ؟ وهل هو مرادف للعصمة التي اختص الله بها الأنبياء كما يزعم الأستاذ مصطفى كامل الشيبي في كتابه «الصلة بين التصوّف والتشيع»(1)

قبل إجابتنا عن هذا التساؤل رأينا أن نتطرق إلى تحديد مفهوم العصمة عند جمهور العلماء.

والمتأمل في أقوال العلماء حول معنى العصمة يجدهم يعنون بهاأمرين :

- أن تكون عصمة الأنبياء فيما يبلغونه عن الله تعالى من أحكام قال تعالى :«وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ، وَلَانَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَايُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ، ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَاتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»(2)

وكذلك عن الكذب. وبخاصة فيما يتعلّق بأمر تبليغ الشرائع وهذا باجماع علماءالمسلمين.(3)

- أن تكون عصمة الأنبياء عن ارتكاب الذنوب المنهي عنها، وهذاهو المشهور عند جمهور العلماء.(4)

والواقع أن الصوفيّة متفقون على أن الولي لايأتي بشرع جديد، ولكن يأتي بفهم جديد ، وفي هذا يقول ابن عربي بعد أن يتكلّم عن الوحي : «فالذي اختص به النبي من هذا [يقصد الوحي] دون الولي الوحي بالتشريع، فلا يشرّع إلا النبي، ولايشرع إلا رسول خاصة فيحلّل ويحرّم».(5)

كما أننا لانجد أحداً من الصوفيّة، أشار بأن الحفظ للولي، يوجب له عدم الوقوع في الزلّة، أو العثرة، وإجابة الجنيد المشهورة لما سئل عن زني العارف؟ فقال « وكان أمر الله قدرا مقدورا »(6) ترد هذا الزعم.

والصوفيّة يرون بأن الأولياء يجوز عليهم مايجوز على سائر الخلق، لكنهم قد صاروا في رتبة رفيعة بحيث تقل عثراتهم حتى توشك أن تنعدم. وبهذا نكون قد

---

1 - مصطفى كامل الشيبي، الصلة بين التصوّف والتشيع، القاهرة : دار المعارف، 1964ص 385.

2 - الحج، آية 52.

3 - أنظر : نعمان خير الدين الألوسي، جلاد العينين، ص 489.

4 - راجع : إبراهيم الباجوري، شرح جوهرة التوحيد، نسقه وخرّج أحاديثه محمد أديب الكيلاني مع عبد الكريم تتان، دون ذكر الناشر وبلده، طبع سنة 1972م،ص 203.

5 - ابن عربي، الفتوحات المكيّة، ج2، ص 376.

6 - نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 130.

بَينا أن العصمة عند المتصوّفة لاتمنع الولي من الوقوع في المعصية.

والحقيقة أن الشاذلي في هذه المسألة لايخرج عن رأي كبار الصوفيّة فهو لايقول بأن العصمة تبيح للولي مجاوزة حدود الشريعة، واتباع مايبدو له من أنوار الكشف، وهو الصريح في قوله بأنّ الكشف لايوجب العمل به، وبأن الأولياء إذا كشف عن بصائرهم بعض الحقائق، فهم غير معصومين في ذلك يقول:

إذا عارض كشفك الكتاب والسنّة، فتمسّك بالكتاب والسنّة ودع الكشف، وقل لنفسك، إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب ولم يضمنها في جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة(1)

كما أن العصمة عند الشاذلي لاتمنع الولي من الوقوع في الزلّة والعثرة وتأمل مايقوله في حزب البر : **اللّهم إنا نسألك التوبة ودوامها ونعوذ بك من المعصية وأسبابها » (2)**

ويقول أيضا وهو يتوجه بكلامه إلى أحد مريديه : **«عليك بالاستغفار، وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار النبي - صلّى الله عليه وسلّم- بعد البشارة واليقين بمغفرة ماتقدم من ذنبه وماتأخر، هذا في معصوم لم يقترف ذنبا قط وتقدّس عن ذلك ، فما ظنك بمن لايخلو عن العيب والذنب في وقت من الأوقات»(3)**

بقي علينا أن نتكلم عن المسائل التي أنكرها ابن تيمية، ومن تابعه على الإمام الشاذلي، فلقد أنكر عليه ابن تيمية قوله في حزب البحر في توسلاته: «**نسألك العصمة في الحركات والسكنات والخطرات والإرادات**» وقال :« العصمة لاتكون إلا للأنبياء، فكيف يسألها وماذاك إلا من الجهل. »(4)

وأنكر عليه مصطفى كامل الشيبي قوله : «**من خواص القطب إمداد الله بالرحمة، والعصمة ، والخلافة، والنيابة***» ، (5).

---

1 - نقلا عن : عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4.

2 - أحمد حامد عبد الكريم،الأسرار العليّة، ص 11.

3 - نقلا عن : عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4.

4 -نقلا عن : خيرالدين نعمان الألوسي، جلاء العينين،ص 83.

* - صوابها الإنابة والنيابة أنظر : ابن الصبّاغ، درة الأسرار، ص 71.

5 -نقلا عن : كامل الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيّع، ص 388.

والواقع إن الشاذلي حينما يطلق لفظ العصمة على الأولياء و الأنبياء على السواء لايقصد حرفيتها ليشارك الأنبياء في مراتبهم،وإنّما المسألة لاتعدو أن تكون مجرّد تسميات كما نبّه إلى ذلك العلامة «عبد الوهاب الشعراني» (1) ولعلّ هذا منشأ وهم ابن تيمية من المتقدميّن وكامل الشيبي من المحدثين، وبهذا الرد الذي أراه مقنعا ، يتضح لكل ذي لب أن العصمة بالنسبّة للولّي على خلافها بالنسبة للنبي عند الشاذلي، وهي عنده لاتمنع الولّي من الوقوع في المعصية، كما لاتمنعه من مجاوزة الشريعة لما يبدو في جانب الكشف، أو الإلهام ،أو المشاهدة، وقد عرفنا سابقا أن ذلك لايوثق به، ولايطمأن له.

ومن حقنا أن نتساءل هنا عن مقصود الشاذلي ومدرسته بالحفظ الذي يكون خاصيّة للولّي؟

الشاذلي يحدّد موقع الحفظ في مواضع أربعة هي«الخواطر والوساوس في الصّلاة، ووقت الدعاء، واللجأ إلى الله، والإجابة منه، ووقت نزول الشدائد وعند تفريجها فهذه التي لايخطر ولايتعلّق فيها بقلوبهم شيء سوى الله تعالى»(2) فالحفظ بهذا المفهوم متعلّق بالهمّة التي حقيقتها عند أبي الحسن« تعلّق القلب بالشيء المهتم به، وكما لها اتصال القلب بالكليّة بالله والانفصال عن كل شيء سواه».(3)

ويظهر أثر الهمّة جليا في هذه المواضع التي حددها الشيخ آنفا ، وهذا مايؤيد ماذهبنا إليه وهو أن مقصود الشاذلي من حفظ الولي حفظ همتّه من التطلع لغير الله.

فالخواطر والوساوس أثر من آثار انصراف القلب عن الله وبخاصة إذا كانت في الصلاة وفي هذا من دناءة الهمّة مالا يخفى، وكذلك الأمر في وقت الدعاء، أما تعلّق همّة المضطر في حالة إلتجائه إلى الله فهو أوضح من أن يحتاج إلى تعليق،أما التطلّع لغير الله عند الشدائد فمنشأ ذلك ضعف الثقة بالله وهو انحطاط في الهمّة أيضا.

---

1 -أنظر: نعمان خير الدين الألوسي، جلاء العينين، ص 83.

2 - أنظر: أحمد الكمشخانوي، جامع الأصول ، ص 34.

3 - نفس المرجع، ص 39.

وتحديد الشاذلي للحفظ والعصمة في هذه المواطن الأربعة دليل آخر على أن الشيخ لايقصد بالحفظ العصمة عن المعاصي الظاهرة صغائرها وكبائرها والتي يعني المنع من الوقوع فيها العصمة التي تكون للأنبياء عليهم الصلاة والسّلام.

وهذا ناشر آراء« المدرسة الشاذليّة »ابن عطاء الله السكندري عند حديثه عن الهمّة في كتابه «لطائف المنن» يعلّق -رحمه الله- عن إجابةالجنيد المشهورة عندما سئل - رضي الله عنه- فقيل له : آيزني العارف؟ فقال :«وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا.»(1) يقول ابن عطاء الله في تعليقه : «ولعمري لو سئل الجنيد أيطمع العارف في غير الله لقال لا »(2) والواقع أننا إذا رجعنا إلى الحديث القدسي - المتقدّم-« ... كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به... »(3) لأدركنا طرفا من هذه الحقيقة. ولعلّ الشاذلي يقصد من حفظ الولّي أن يكون متحققا بهذه المعاني وأنظر إليه في دعائه الواجف وهو يناجي ربه « اللّهم صلني باسمك العظيم الذي لايضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهب لي معه سرالاتضر معه الذنوب شيئا، واجعل لي منه وجهاتقضي به الحوائج للقلب، والعقل، والروح، والسّر، والنّفس ، والبدن، وادرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي درج أفعالك، درج السلامة ، وإسقاط الملامة، وتنزل الكرامة وظهور الإمامة(4) . »

وتأمّل جيّدا معنى كلامه لاتضر معه الذنوب شيئا، فالذنّوب واقعة لامحالة، ولكنّها لاتضر ذلك لأنها ليست من أخلاقهم، ولامن عاداتهم، ولكن كما قال الجنيد:« وكان أمرالله قدرا مقدورا » فالذنوب لاحقة بهم وفق ماجرت به المقادير، ولابد منها ومن ثم كان الشاذلي يقول:«وافتح أسماعنا وابصارنا، وأذكرناإذا غفلنا عنك بأحسن ماتذكرنابه إذا ذكرناك، وارحمنا إذا عصيناك بأتم ماترحمنا به إذا أطعناك، واغفر لنا ذنوبنا ماتقدّم منها وماتأخر، والطف بنا لطفا يحجبنا عن غيرك، ولا يحجبنا عنك، فإنّك على كل شيء عليم» (5)

---

1 - الأحزاب، آية : 38.

2- نقلا عن : ابن عطاء الله السكندري ،لطائف المنن، ص 130.

3 - سبق تخريج الحديث. أنظر:ص86.

4 - نقلا عن : ابن الصبّاغ الحميري، درّة الأسرار، ص68.

5 - نقلا عن : أحمد عبد الكريم الشريف، الأسرار العليّة، ص 10.

والشاذلي يرى أنّ اللّه إذا أحبّ عبدا لايضرّه الذنب شيئا ، وفي هذا المعنى يقول: اللّهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ،ولاتجعل حسناتنا حسنات من أبغضت.، فالإحسان لاينفع مع البغض منك، والإساءة لاتضر مع الحبّ منك» (1) وذلك على معنى قوله تعالى : «فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»(2)

والولي إذا كان في تصريف الحق، لايكله إلى نفسه، ولايتخلّى عنه طرفة عين وإذا بدرت منه معصيّة ،فربما قضى اللّه له بذلك ليصل إلى ماهو أعلى مما كان فيه وفي الحكم العطائية، «ربما فتح لك باب الطاعة ، ومافتح لك باب القبول، وقضى عليك بالذنب فكان سببا للوصول، ربّ معصية أورثت ذلاً وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا » (3)

ولهذا قال أبوالعبّاس المرسي:«ولي اللّه مع اللّه تعالى كولد اللبؤة في حجرهاأتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله(4) وهو معنى أشار إليه الشبلي قبله بقوله : «الصوفيّة أطفال في حجر الحق» (5)

وإذا اتخذ بعض الأدعياء – المحسوبين على الصوفيّة – ومن لاخلاق لهم في التربية، والتهذيب النّفسي، أو التأييد في إتيان العمل الشرعي هذه الحقيقة مطيّة ليواروا بها سوآتهم، وعجزهم فإن ميزان الشريعة بين أيدينا نزن به أقوالهم وأحوالهم، ودعاويهم .

3 – العلم اللّدني :

يستمد الصوفيّة هذاالاصطلاح من قوله تعالى عن الخضر – عليه السلام – «وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا »(6) فالعلم الذي أوتيه الخضر ليس استدلاليا بدليل أن مافعله مع موسى – عليه السلام – لم تظهر عليه علامات الاستدلال به ،وإلا لما أنكر عليه موسى – عليه السلام – ذلك.

---

1 – نقلا عن: أحمد حامد عبد الكريم الشريف، الأسرار العلية، ص 11.
2 – الفرقان، آية : 70.
3– بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 125.
4– ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 27.
5– نقلا عن : ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم، ص 168.
6 – الكهف، آية : 65.

ولم يكن - كذلك - موحى به كما هو الحال عند الأنبياء لأنه لم تصح عندهم نبوته، ولأن الله قال في شأنه «عبدا» ولو كان نبيًا لبيّن ذلك ومابقي إلا أن يكون مفاضا عليه بلا واسطة.

وهذا الأخير هو مراد الصوفيّة بالعلم اللّدني، أو الإلهام ،أو الكشف يقول أبوإسماعيل الهروي: (1) :« والعلم اللدني هو العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهاما بلا سبب من العبد ،ولا استدلال. »(2)

وكلّ الصوفيّة متفقون على أن الأولياء يحصل لهم هذا العلم قال أبو حامد الغزالي: «فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهاميّة دون التعليميّة، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم، وتحصيل ما صنفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت... »(3)

وهذا من أهم أوجه الخلاف بين الصوفية وغيرهم.

يقول ابن القيّم :« إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة، هو العلم الحقيقي،وأما مايدّعى حصوله دون شاهد ، ولادليل فليس بعلم فالدليل هو الذي يفيد العلم، وهو الذي يشعر النّفس بأنّها عالمة كما تشعر بالسماع والرؤية عند الاستماع للصّوت والترائي للشمس » (4)

---

1 -هو عبد الله الأنصاري الهروي الصوفي القدوة الحنبلي ولد سنة 401هـ، من أهم كتبه منازل السائرين الذي شرحه ابن القيم أنظر في ترجمته : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3،ص 365، 366.

2 - ابن قيّم الجوزية، مدارج السالكين، ج3، ص 431.

3 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 19.

4 - نقلا عن : الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال، **نظرية المعرفة الإشراقية وأثرها في النظرة إلى النبوة**، ط1، القاهرة، دار النهضة العربية، سنة 1977م، ج1، ص173.

والسؤال الذي يواجهنا بعد هذا هو:

ماهي ميادين العلم اللدني؟ وماموقف أبي الحسن الشاذلي وخلفائه منها؟

من تتبعنا لما وردعن الصوفية المتقدمين عامة والشاذلي بخاصة لما يسمى العلم اللدني نجده محصورا عندهم في الميادين التالية:

1.3- فهوم من الكتاب والسنّة: أو مايسمى بالتفسير الإشاري ولقد وردت عن أبي الحسن الشاذلي كثير من الشذرات عن فهمه لآيات من القرآن الكريم. كقوله مثلا: «خصلة واحدة تحبط الأعمال، ولاينتبه لها كثير من النّاس، وهي سخط العبد على قضاء الله،قال تعالى :[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ*] »(1)

وقوله :« كل وارث في المنزلة الموروثة لايكون إلا بقدر مورثه فقط»، قال تعالى: [ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض](2) فكما فضل بعضهم على بعض كذلك فضل ورثتهم على بعض إذ الأنبياء أعين للحق ،وكل عين يستمد منها على قدرها وكل ولي له مادة مخصوصة» (3)

وهذه الإشارات كما قال ابن عطاء الله، «ليست إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه لما جلبت الآية له، ودلت عليه في عرف اللّسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله عليه» (4)

ثم يقول : «فلايصدنّك عن تلقي هذه المعاني منهم، أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذه إحالة لكلام الله، وكلام رسوله، فليس ذلك بإحالة، وإنّما يكون إحالة لو قالوا : لامعنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها ،ويفهمون عن الله تعالى ماأفهمهم» (5)

وهذا هو جوهر الفرق بين تفسيرات الباطنيّة التي تنكر الظواهر ،وتجعل فهومها عين مراد الله وبين إشارات الصوفيّة.

---

*- محمد،آية:9.

1 - نقلا عن . د عبد الحليم محمود، **المدرسة الشاذليّة وإمامها أبو الحسن**، القاهرة: دار الكتاب الحديثة . [د. ت] .ص 110.

2 - الإسراء، آية : 55.

3 - ابن الصباغ، درة الأسرار، ص133.

4 - ابن عطاء الله،لطائف المنن، ص 165.

5 - نفس المرجع والصفحة.

لذلك لم ينكر الفقهاء، او المتكلمون على إشارات الصوفيّة مادامت تتوافر فيها هذه الشروط:

-« أن لا يكون التفسير الإشاري منافيا للظاهر من النظم القرآني.

- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

-أن لايكون له معارض شرعي أو عقلي.

- أن لايدعي أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر »(1)

قال ابن الصّلاح، وقد سئل عن كلام الصوفيّة في القرآن: «وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر - رحمه اللّه - أنه قال : صنّف أبو عبد الرحمن السّلمي حقائق التفسير فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسيرا فقد كفر» (2)

ثم قال ابن الصلاح : «والظن بمن يوثق منهم أنّه إذا قال شيئا من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولاذهب به مذهب الشرح المذكور من القرآن العظيم ... وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ماورد به القرآن، فالنظير يذكّر بالنظير» (3)

ويذكر ابن الصلاح مثالا على ذلك فيقول :« ومن ذلك قتال النّفس في قول تعالى : [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ] (4) فكأنه قال : أمرنا بقتل النّفس ومايلينا من الكفار» (5)

وبإنعام النظر فيما روي عن أبي الحسن من شذرات نجدها تطابق ماذكره ابن الصلاح وما اشترطوه من شروط.

3. 2- وصف وحالات وأذواق: هي نتيجة للتجارب الروحيّة التي يمر بها الولي، وقد أشار الشاذلي إلى ذلك عند حديثه في التوكل يقول رحمه الله :«**التوكل صرف القلب عن كل سيء سوى اللّه، وحقيقته نسيان كل شيء سواه ،وسرّه وجود الحق دون كل شيء تلقاه ،وسرّ سرّه ملك وتمليك لما يحبّه ويرضاه،ولايصّح التوكل إلالتق، ولاتتم التقوى إلا لمتوكل»(6)**

---

1 - محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ط2 بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1976م، ج 2 ص377.

2- نفس المرجع، ص368.

3 - نفس المرجع، والصفحة.

4 - التوبة، آية : 123.

5 - محمد حسين الذهبي، المرجع السابق، ص 368.

6 - نقلاعن: علي سالم عمار، أبوالحسن الشاذلي ج1،ص152،153.

وسبب هذه الفوائد العرفانية الناتجة عن الأحوال، أن الولي - الذي جعل همّته معرفة الله والاستغناء به- يحذر كل حال تجعله محجوبا عن مايتطلع إليه ،فلذلك هو في ترق دائم... وقد أشار إلى هذا «عبد السلام بن مشيش »في قوله لأبي الحسن الشاذلي :«أشكو إلى الله من بردالرّضا والتسليم كما تشكو أنت من حرالتدبير والاختيار. وعلل ذلك بقوله : أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله» (1)

وذلك الترقي الدائم يثمر العلوم والمعارف والتي لاتعدوأن تكون اخبارا عن النّفس، والثّقة مصدّق في اخباره عن غيره فكيف بإخباره عن نفسه.

3. 3- الاطلاع على الغيوب : يكاد يكون مقصود الصوفيّة بالعلم اللّدني أو الكشف مقصورا على هذا الوجه،ولذلك يهتمون بقصة الخضر مع موسى - عليه السلام - كدليل على ماذهبوا إليه.

وقد أشار أبو الحسن إلى هذا الوجه بقوله عن نفسه : «كنت ذات ليلة متفكرا بالفكرة الغيبيّة فأفادني علما جليلا، وسعيت في الغيوب سعيا جميلا»(2) وهذا الاطلاع قد يكون عند الشاذليّة محمودا ، وقد يكون مذموما ،فالمذموم مثل ماعبر عنه ابن عطاء الله بقوله : «تشوفك إلى مابطن فيك من العيوب ،خير من تشوفك إلى ماحجب عنك من الغيوب» (3).

ويفسر ابن عجيبة هذه الغيوب بقوله : «ماحجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد ، ومايأتي به القدر من الوقائع المستقبلية، وكالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له» (4)

ويبين ابن عجيبة وجه ذمّه بقوله : :«والاطلاع على الغيوب إنما هو فضول، وقد يكون سببا في هلاك النّفس كاتصافها بالكبر، ورؤية المزية على النّاس» (5)

ومن حكم ابن عطاء الله السكندري التي تبينّ ضرر هذا التطلّع على السالك قوله : «من اطلع على أسرار العباد ، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه، وسببا لجر الوبال إليه» (6)

1-ابن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ص 23.

2- ابن الصباغ الحميري ص 139.

3 - بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 101.

4- ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم، ص 81.

5 نفس المرجع، والصفحة.

6- بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ص149.

اما المحمود : فهو ماأفادهم العلوم الجليلة المتعلقة بمعرفة الله ،وصفاته، وأفعاله، فلا قيمة عندهم للاطلاع على الغيوب إذا لم يثمر هذه المعرفة ولذا قال أبو الحسن الشاذلي بعد ذكر جولاته في الغيوب «فأفادني الله علما جليلا»(1)

وينهى ابن عطاء الله السالك أن يجعل همته من الاطلاع على الغيوب غير اكتساب المعرفة الذوقيّة بالله فيقول: «لاترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرّحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ولكن ارحل من الكون إلى المكوّن، [وأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى*]. »(2)

ويشترط الشاذلي في المعرفة الكشفيّة أن تكون موافقة للكتاب والسنة وفي هذا المعنى يقول :«إذا عارض كشفك الكتاب والسنّة، فتمسك بالكتاب والسنّة ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنّة ،ولم يضمنها في جانب الكشف ،ولا الإلهام ،ولا المشاهدة»(3).

وهو في ذلك يردد أقوال أصحاب التصوّف السنّي «كأبي سليمان الدّاراني»(4)الذي يقول: «ربما وقعت النكتة في قلبي من كلام القوم ،فلا أقبلهاإلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنّة» (5)

وقول «أبي عمرو بن نجيد السلمي »(6): «كل وجد لايشهد له الكتاب والسنّة فهو باطل»(7) وأقوالهم هذه صريحة في إمكانية خطأ الكشف خلافا لما يزعم الشيعة عن أئمتهم، وخلافا كذلك لبعض الباحثين الذين يزعمون إتفاق الصوفيّة، والشيعة في القول بعصمة الآراء للأئمة والأولياء». (8)

---

1 - ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 139.

* - النجم، آية: 42.

2 - بولس نويا ،ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 105.

3 - نقلا عن :عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4.

4 - هو أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطيّة العنسي أحد الأوتاد الأقطاب مات سنة 215هـ أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 386؛ وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج2، ص13

5- نقلا عن : الشوكاني، قطر الولي، ص 236، 237.

6 - هو أبو عمرو بن نجيد السلمي، إسماعيل، جدالشيخ أبي عبد الرحمن السّلمي، صحب أبا عثمان الحيري، وكان أحد كبار الملامتية توفي سنة 365هـ أنظر في ترجمته :ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 107؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص 50.

7- نقلا عن : الشوكاني، قطر الولي، ص 237.

8 - أنظر : إبراهيم هلال، نظرية المعرفة الإشراقيّة، ج1، ص 94؛ وكامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ص 368.

وفي هذا المعنى يقول مجدد الألف الثاني أحمد السرهندي :«إنّ النّفس مهما أصبحت بالتزكية والتصفية نفسا مطمئنة، لاتستطيع أن تتجرد بتاتا عن صفاتها وخصائصها، ولذلك يحتمل أن يتسرب الخطأ إليها وتقع في الغلط»(1).

ولقد حاول الصوفيّة أن يستندوا إلى بعض النّصوص كدليل يؤيدون به ماذهبوا إليه من إمكان اطلاع الله بعض خلقه على بعض الغيوب التي لم يستأثر بعلمها، ولعلّ أصرحها الحديث القدسي : «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**» (2) فقد ذهب ابن عطاء الله السّكندري أن في هذا الحديث دلالة على جواز اطلاع الولّي على المغيبّات باطلاع الله إيّاه، ولايمنع من ذلك ظاهر قوله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ»(3)، ثم يستطرد ابن عطاء الله قائلا : «فإن قلت هذه زيادة على ماتضمنه الكتاب العزيز، فاعلم أنه إذا قيل إنّ السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده ربّما دخل مماليك الوزير معه وكان الأذن لمتبوعهم، إذنا كذلك للولي» (4).

ويقول «ابن حجر العسقلاني» (5) مستدركا على كلام ابن عطاء الله السكندري : «إذا كان الوصف المستثنى للرسول هنا إن كان فيمايتعلق بخصوص كونه رسولا، فلا مشاركة لأحد من أتباعه فيه إلا منه، وإلا فيحتمل ماقال، والعلم عند الله عز وجل»(6).

وعلى الرغم من اعتراض الإمام الشوكاني على هذا الاستدراك، واعتباره لزيادة ابن عطاء الله بأنها تشغيل لايؤكل به الكتف على حد تعبيره فإنا نراه يعترف بجواز اطلاع الله بعض غيوبه لأوليائه الصالحين، وهو الصريح في قوله :«ولكن ينبغي لهما [يقصد ابن حجر وابن عطاءالله] أن يحتجا لدخول بعض الأولياء، وصلحاء عباده في الظفر بشيء من الغيب الذي استأثر بعلمه بما قدّمنا من قوله كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...»(7)

---

1 - نقلا عن : أبي الحسن علي الحسني النّدوي، الإمام السرهندي، ص 196، 197.

2 - سبق تخريج الحديث فيما تقدّم، أنظر ص 86.

3 - الجن،الآيتان: 26، 27.

4 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 62

5 - هو قاضي القضاة المعروف بابن حجر قيل أنه لم يكن في عصره حافظ سواه، من أهم كتبه فتح الباري، توفي سنة 852هـ، أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب ج7، ص 270، 273.

6 - ابن حجر العسقلاني،فتح الباري، ط2، بيروت : داراحياء التراث العربي 1348هـ، ج11، ص 291.

7 - الشركاني، قطر الولي، ص 514.

ثم يقول الشوكاني :«وفي إخبار الرسول بأن في هذه الأمة محدّثين، وأن عمر منهم يفيد أعظم إفادة بأن وصف كونه من المحدّثين طريق إلى تلقي شيء من علم الغيب، ووصوله إليهم»(1)

لذلك عوّل «الحكيم الترمذي»قبله على هذا الدليل حيث أورد - رحمه الله- قصة عمر بن الخطّاب حيث نادى وهو على المنبر يخطب ياسارية بن حصين الجبل الجبل! فسمع الجيش كلمته في ذلك وهو منه على مسيرة شهر(2)، ولاينسى الترمذي ماقاله أبو بكر لعائشة في شأن المال الذي نحلها إيّاه فقال لها: «إنما هو أخوك وأختاك فقالت له ياأبت إنّما لي أخت واحدة، فقال إني ألقي في روعي أن الذي في بطن حارثة هو بنت، قالت : فولدت ابنة»(3)، ثم يعلّق الترمذي على هاتين الواقعتين فيقول : أفليس هذا غيبا قد اطلع عليه من طريق الحديث أو من طريق الإلهام» (4).

ثم يذكر الترمذي في معرض تناوله لرأيه اعتراض المانعين لجواز معرفة الولّي للغيب، وينقض دعواهم، ويستدل المانعون بقوله تعالى :« قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ»(5)

وقوله أيضا : «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ»(6) ويرد الترمذي عليهم بقوله : «ويقال لهذا الزاعم أن الغيب على وجوه فهل علمت أيّ غيب هذا الذي يعنيه الله في قوله : «قل لايعلم من في السّموات والأرض الغيب إلا الله» وقال في آية أخرى «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ من رَّسُولٍ »، ثم نجد في الأنبياء من ليس برسول ، وقد أظهره على غيبه من طريق الوحي، فهناك غيب عنده تعالى يكاد يخفيه من نفسه، وهو الساعة، وغيب أظهره عند المحدثين والأولياء»(7)

1- الشوكاني، قطر الولي، ص 515.

2- الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 391، 392.

3- نفس المرجع، ص 397.

4- نفس المرجع والصفحة.

5-النمل، آية : 65.

6-الجن، الآيتان: 26، 27.

7- الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 398.

ثم يتوجه الحكيم الترمذي - رحمه الله - إلى المعترض فيقول له : «فهل ميزت بين هذه الأشياء؟!» (1)

وهناك أحاديث استدل بها الصوفيّة في جواز اطلاع الله الأولياء على الغيوب منها قوله - صلّى الله عليه وسلّم - «**إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**» (2) وقوله عليه السلام -أيضا :«**قد كان في الأمم قبلكم محدّثون فإن يكن في أمّتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطّاب منهم**» (3).

كما لايهمل الصوفيّة استدلالهم على ذلك - أيضا بالتجارب والحكايات عن الصحابة والتابعين «كأويس القرني» (4)، و «هرم بن حيّان»(5) وغيرهم.

فهذه الميادين الثلاثة التي ذكرناها، هي المقصودة بالعلم اللّدني، أو الكشف - في رأينا - وهومن اكرامات الله التي تقتضيها الولاية الخاصة كما قال تعالى: «وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (6).

4 - التحقق بالمقامات :

يختلف الحديث عن المقامات عند الصوفيّة باختلاف درجات السالك، ولذلك يضعون لكل مقام درجات، كما فعل «أبو إسماعيل الهروي» في كتابه«منازل السائرين» الذي جعل الدرجة الأخيرة من كل مقام يذكره خاصة بالأولياء الكمل، إلى أن يصير السالك إلى حالة يكون وقوفه فيها مع المقامات حجابا ومعوقا عن الشهود، لذلك أنكرها «ابن العريف» وفي هذا المعنى يقول :

1- الحكيم الترمذي. ختم الأولياء، ص 318.

2- سبق تخريج الحديث، أنظر ص60 .

3- أخرجه مسلم : 44- كتاب فضائل الصحابة، - 2 - باب فضائل عمر، حديث رقم 2398، أنظر : مسلم ، الجامع الصحيح، ج4، ص 1864.

4- توفي سنه 36هـ، أنظر في ترجمته : الذهبي، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، ط3، حلب. دار إحياء التراث العربي، 1963، ج1، ص 129- 131.

5- هو من خيار الناس، ولي الولايات في زمن عمر بن الخطاب،أنظر في ترجمته : الهجويري، كشف المحجوب، ص 293، 294.

6- العنكبوت، آية:69.

فالإرادة والتوبة، والزهد والتوكل، والصبر، والحزن، والخوف، والرجاء، والشكر، والمحبّة، والشوق، والأنس منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة فإذا شهدوا عين الحقيقة اضمحلّت فيها أحوال السائرين فإن ماقبل هذه المقامات مرادة إلى هذه الغاية وهو النظر إلى الله تعالى (1)

وقال ابن عجيبة الحسني :

ربّما وقفت القلوب مع أنوار الأحوال، فتحجب عن مقامات الرجال، أو مع أنوار المقامات، فتحجب عن معرفة الذات،ولذلك قال ابن مشيش لتلميذه أبي الحسن الشاذلي : أشكو إلى الله من برد الرّضا، والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار، ذلك لأنه خاف - رضي الله عنه - أن يحجب بحلاوة الرضى، والتسليم عن شهود الذات(2)

وهذا ليس إنكارا لتحقق الولّي بالمقامات، فإن قول ابن مشيش أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم دليل على أن نصيبه وافر منه، ولكنّه إنكار للوقوف عندها. ويزيد ابن عجيبة هذه المسألة توضيحا بقوله : «وقد ينكشف لها - أي القلوب - عن سرّ توحيد الصّفات،وتلوح لها أنوار المقامات، كتحقيق الزهد، والورع، وصحّة التوكل، والرّضا، والتسليم، وحلاوة المحبّة، والاشتياق إلى غيرذلك فتقنع بذلك وتقف هنالك، والمطلوب هو الكشف عن سر توحيد الذات، وأنوار الصفات [وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ. *] ،» (3)

---

1 - نقلا عن : يحي هويدي ، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، القاهرة:دار النهضة العربية، 1966، ص 308.

2 - ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم، ص 281.

* - النجم، آية : 42.

3 - ابن عجيبة، المرجع السّابق، ص 280، 281.

ونرى من الضروري أن نعرض لرأي الشاذلي، وخلفائه لبعض المقامات، التي هي أمسّ بالأولياء لتكون لنا نماذج تمكننا من استكناه آرائهم في سائر المقامات.

4 . 1 - الورع : يقر الشاذلي واتباعه بالورع الذي يعني التنزه عن الحرام والشبهات، فقد نقل ابن عطاء الله عن أبي العبّاس المرسي قوله : «والله مادخل بطني حرام قط» (1)، وكان يقول أيضا: «الورع من ورعه الله»(2)، ثم يذكر عنه في ذلك حكاية تشبه ماكان يحدث للحارث المحاسبي من نبض عرق له عند الشبهة(3). ومع ذلك هناك ورع الخصوص، قال ابن عطاء الله : «واعلم - رحمك الله - أن ورع الخصوص لايفهمه إلا القليل» (4).

وهذا الورع أشار إليه أبو الحسن الشاذلي في قوله : **«الورع نعم الطريق لمن عجّل ميراثه وأجل ثوابه، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله، وبالله على البينّة الواضحة، والبصيرة الفائقة».** (5)

ثم يوضح ذلك في قوله - مستأنفا - « ... **فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لايدبرون، ولايختارون، ولايريدون، ولايتفكرون، ولاينظرون، ولاينطقون، ولاينبسطون، ولايتحركون، إلا بالله ولله من حيث يعلمون**» (6) وهو يشير بهذا كلّه إلى معنى «الجمع» كما وضحناه في خاصة المعرفة.

4 . 2 - المحبة :

يرى أبو الحسن محبّة الله شرطا أساسيًا للتحقق بالولاية وفي هذا يقول الشاذلي « **من أحبّ الله، وأحبّ لله، فقد تمت ولايته**» (7)

1- نقلا عن: ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص : 125.

2- نفس المرجع، والصفحة.

3- نفس المرجع، ص 105.

4- نفس المرجع، ص 126.

5- نفس المرجع، ص 127.

6 - نفس المرجع والصفحة.

7- نقلا عن : ابن عيّاد، المفاخر العليّة، ص 103.

وهو في ذلك تبع لمن قبله، كأبي حامد الغزالي الذي يجعلها الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبّة مقام إلاّ وهو ثمرة من ثمارها، وهو تابع من توابعها كالشوق، والأنس، والرضا ولاقبل المحبّة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة، والصبر، والزهد»(1) .

والحديث عن المحبّة الإلهية خاصيّة تميز بها الصوفيّة عن غيرهم حتى إن بعض المتكلمين أنكرها، قال أبو حامد : «وأما محبّة الله فقد عزّ الإيمان بها حتى أنكر العلماء إمكانها» (2).

وهؤلاء العلماء زعموا أن المراد بها في النصوص المواظبة على طاعة الله لأن الحبّ في نظرهم لايكون إلا مع الجنس والمثال.والصوفيّة يتفقون معهم في ارتباط الطاعة بالمحبّة، ولكنّها عندهم أثر، وليست حقيقة كما قال أبو الحسن الشاذلي:«**المحبّة آخذة من الله لقلب عبده من كل شيء سواه، فترى النّفس مائلة لطاعته، والعقل متحصنا بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسّر مغمورا في مشاهدته»(3)**

ولعلّه يقصد بهذه الأخذة محبّة الله للعبد أو «المحبّة الأصلية» كما يطلق عليها أحيانا، مفرقا بينها وبين «المحبّة الفرعيّة» أو محبّة العبد لله والتي هي مقام الولاية الصغرى.

ولانجد عند أبي الحسن حدا جامعا مانعا لحقيقة المحبّة لكونها من المعاني الذوقيّة، وهي ليست مما يصطاد بسهم العبارة، ولذلك فهو يذكر آثارها من السكر، والاصطلام ويتوسع في ذلك فيستعمل رموز الصوفيّة من الشراب، والأواني، والساقي وغيرها مما اشتهر على ألسنة القوم.

4 . 3 - الزهد :

العبّاد والزهاد، والعارفون، هم أصناف الصوفيّة حسب ما يظهر من استقراء مظاهر الحياة الروحية في الإسلام، وإن كان العارفون يستأثرون بالحظ الأوفر من هذا

---

1 - أبو حامد الغزالي،إحياء علوم الدين، ج4، ص 272.

2 - نفس المرجع، ج4، ص 273.

3 - نقلا عن :ابن عبّاد، المفاخر العليّة، ص 102.

الاصطلاح، بل يحاولون جعله خاصا بهم، لكنّ صوفيّا معتدلا « كالشيخ أحمد زروق»، رام التوفيق بينهم حيث جعل خلافهم مقصورا على المنهج دون الغاية. يقول في القاعدة العاشرة :

> لايلزم من اختلاف المسالك، اختلاف المقصد، بل يكون متحدا، مع اختلاف مسالكه، كالعبادة والزهّادة، والمعرفة مسالك لقرب الحقّ على سبيل الكرامة وكلّها متداخلة، فلابد للعارف من عبادة، وإلا فلا عبرة بمعرفته[...]ولابد له من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده[...] ولابد للعابد منهما إذ لاعبادة إلا بمعرفة، ولازهد إلا بعبادة، وإلا عاد بطالة.(1)

ثم يقول- رحمه اللّه -مبرزا اختلافهم: «نعم من غلب عليه العمل فعابد، أو الترك فزاهد، أو النّظر لتصريف الحق فعارف، والكل صوفيّة»(2).

لكنّ هذا التوفيق يظل بعيدا عن الحقيقة لأن لكل صنف تصوّره الخاص به للمعرفة، أو العبادة، أو الزهد، زيادة على أن شهرة هذا الخلاف قد سرت في الأمة منذ بروز مدارس التصوّف العرفاني، والواقع أن الشاذلي ينفي عن العبّاد والزهاد اسم الولاية يقول في كلام طويل نقتبس منه:«العبّاد بنوا أمرهم على عشرة أصول» وبعد أن ذكرها قال: «والزاهد يزيد عليهم بأربعة أوصاف : الزهد في الدنيا عموما، وفي النّاس خصوصا، وبكشف الغيب الملكوتي،والتخير للأحوال ومقامات الرّجال[...] ثم قال وأما الأولياء فهم درجات»(3).

وسبب ذلك عدم تحققهم بأوصاف الأولياء، والتي ترجع أساسا إلى المعرفة الذوقيّة التي لايمكن التنازل عنها بحال من الأحوال.

وبسبب فقدان هذا العنصر الحسّاس عند الزهاد بخاصّة، نجد عتاب الصوفيّة عليهم شديدا. قال «أبو يزيد البسطامي»، «لأبي موسى عبد الرحيم» :« في أي شيء تتكلّم؟ قال : في الزهد. قال: في أي شيء؟ قال : في الدنيا، فنفض يده،

---

1 - أحمد زروق، قواعد التصوف، ص 8.

2 - نفس المرجع، والصفحة.

3 - نقلا عن : ابن عيّاد، المفاخر العليّة، ص 84.

وقال ظننت أنك تتكلم في شيء والدنيا لاشيء»(1)

والحقيقة أن في هذا العتاب حق كثير لأن بعض الزهاد، بل جلّهم أبدوا تقشفا غريبا عن حقيقة الإسلام الذي يدعو إلى الاعتدال، متأثرين في ذلك بما كان عليه الرّهبان النّصارى، والهنود.

ولقد قاوم العلماء، والصوفيّة الأوائل هذه النزعة. يقول «سفيان الثوري» (2) مصححامفهوم الزهد: «الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولابلبس العباء»(3) وأبو الحسن الشاذلي يوافقه في هذه النظرة يقول - رحمه الله -: «ليس هذا الطريق بالرهبّانية، ولابأكل الشعير، والنخالة، وإنما هو بالصبر واليقين في الهداية.قال تعالى: [وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ*]. (4)».

وسلوك أبي الحسن الشاذلي في حياته - كما بينّا سابقا- يدل على أن مفهوم الزهد عنده حال قلبي، وإن شئت مجاهدة باطنيّة وتأمل قوله إلى أحد مريديه : «يابني بردّ الماء، فإنّك إن شربت ماء باردا حمدت الله بكليّة قلبك، وإن شربته ساخنا، حمدت الله عن كزازة نفس» (5).

بل هو الصريح في قوله أن الزهد الحقيقي :« هو فراغ القلب عما سوى الرب»(6)

4 . 4 - التوكل وإسقاط التدبير:

من أهم آثار المعرفة على الوليّ . في نظرة الصوفيّة عامة والشاذليّة خاصة - نظره إلى تصريف مولاه. وغيبته به عن تصريفه لنفسه، ويعبرون عن ذلك بالتوحيد،

---

1 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 212.

2 - هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الثوري الكوفي ولد سنة 77هـ، وتوفي عام 161هـ.أنظر في ترجمته : ابن الملّقن، طبقات الأولياء، ص6؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ، ج9، ص 151

3 - نقلا عن القشيري، الرسالة البيّانية، ص 56.

* - السجدة، آية: 24.

4 - نقلا عن : ابن عيّاد الشافعي، المفاخر العليّة، ص 88.

5 -ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 201.

6 - ابن الصباغ الحميري، درة الأسرار، ص 83.

والتوكل، وإسقاط التدبير والمتأمل بعين الإنصاف في الحديث - المتقدم -«كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» يجده قد أشار إلى هذه الحقيقة وهو ماكان ملحظا للإمام الشوكاني. فقال : «ومن كان سمعه به إلى آخره يدل على أنّه بذلك قد صار في تدبير من صار سمعه وبصره إلخ وهو الربّ عزّ وجلّ» (1) ولعل أهم مدرسة صوفيّة اشتغلت بتقرير حقيقة التوكل مدرسة الشاذلي، ونخص من بين أفرادها ابن عطاء اللّه الذي لم يكتف بتلك الشذرات التي نقلت عن الشاذلي، والمرسي، بل أفرد لهذه الحقيقة رسالة سماها «التنوير في إسقاط التدبير».

ولن نتطرق في هذا المبحث إلى الحديث عن حقيقة التوكل من الناحية العرفانية، إذ أننا بيّنّا ذلك فيما سبق، لكن نحب أن نشير إلى مسألة تمت بوشيجة إلى حقيقة التوكل نعني مسألة الكسب، وهي جديرة بأن نطرقها ولو بإيجاز. ذلك لأنها مسألة قد أسيء فهمها من طرف قصيري النظر من المتصوفة، فركنوا بسببها إلى البطالة، فغدت من أجل ذلك مثار طعن على الصوفيّة في جملتهم.

ويلخص ابن عطاء اللّه السكندري نظرة «المدرسة الشاذليّة» لهذه المسألة في حكمة قصيرة صدّر بها حكمه وللّه دره وهو يقول :« إرادتك التجريد مع إقامة اللّه إيّاك في الأسباب من الشهوة الخفيّة، وإرادتك للأسباب مع إقامة اللّه إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العليّة»(2)

ومما يزيد معنى هذه الحكمة جلاء مايورده ابن عطاء اللّه نفسه من أنّه دخل يوما على الشيخ أبي العبّاس المرسي، وفي نيته ترك الأسباب والتجرد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلا لنفسه: «إنّ الوصول إلى اللّه لايكون على هذه الحالة فقال لي من غير أن أبدي شيئا صحبني إنسان بقوص يقال له ابن ناشيء وكان مدرسا بها ونائب الحكم فيها، فذاق من هذا الطريق شيئا على أيدينا فقال ياسيدي أترك ماأنا فيه، وأتفرغ لصحبتك فقلت له : ليس الشأن ذا، ولكن أمكث فيما أقامك اللّه، وماقسم لك على أيدينا هو إليك واصل»(3)

---

1 - الشوكاني، قطر الولي، ص 506.

2 - بولس نويا، ابن عطاء اللّه ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 85.

3 - ابن عطاء اللّه، لطائف المنن، ص 110.

فانظر بعين الإنصاف في هذه الإجابة المنبئة على عمق فهم المرسي للتصوف، ثم يستأنف كلامه: «وهكذا شأن الصديقين لايخرجون من شيء حتى يكون الحق هو الذي يتولى اخراجهم، قال ابن عطاء اللّه فخرجت من عنده وقد غسل اللّه تلك الخواطر من قلبي، وكأنّها ثوب نزعته، ورضيت عن اللّه فيما أقامني اللّه فيه» (1)

فالمرسي لايرتضي فهم أولئك الذين انقطعوا في البراري والشعاب لتحقيق مقام التوكل على أساس أنّ اللّه قد ضمن لهم الرزق، بل يرى أنّ على الإنسان أن يلتمس السنّة العادية التي سنّها لعباده حيث رتّب الأسباب على مسبباتها والنتائج على مقدماتها.

ولاشك أن هذا من تدبير اللّه في خلقه، والعبودية تقتضي أن يترك الإنسان تدبيره، لتدبير اللّه سبحانه وتعالى وتأمل قوله :« وشأن الصديقين لايخرجون من شئ حتى يكون الحق هو الذي يتولى إخراجهم. »(2).

أي فهم أبدا يزاولون عالم الأسباب والمسببات حتى يتولى الحق اخراجهم من ذلك ،والمرسى هنا يفتح لنا مجال للقول بالتجريد كما يعبّر عن ذلك ابن عطاء اللّه ولكنه خاص بطبقة عليا من الأولياء تولى اللّه اخراجها من ذلك - لابنفوسهم - وهم مأذونين في ذلك لعلهم أصحاب الولاية الكبرى كما يسميهم الشاذلي ،أو أهل «الجذبة »كما عند الحكيم الترمذي.

وهذا حتى لانسيء الأدب مع رجال هم في الذروة العليا من الإيمان كإبراهيم الخواص، وأبي سعيد الخراز(3)- رضي اللّه عنهم - الذين بلغوا الغاية في التجرّد والتحقق بمقام التوكل.

وهكذا فإن الأخذ بالكسب حسب النظرّة الشاذلية لايتعارض مع مفهوم التوكل، بل على الإنسان أن يدخل في كل الأسباب وفي هذا المعنى يقول المرسي:

«نحن إذا صحبنا تاجر ما نقول له أترك تجارتك وتعال،أو صاحب صنعة.. أو

1- ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن،ص110.

2 -نفس المرجع والصفحة.

3 - هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز، بغدادي المنشأ، صحب ذاالنون المصري، وسريا السّقطي، كان من المتورعين توفي 297هـ، أنظر في ترجمته : القشيري، الرسالة، ص 22.

طالب علم... ولكنْ نقركل واحدفيما أقامه الله تعالى وماقسمه الله على أيدينا هو واصل إليه». (1)

ثم يستدل المرسي على ذلك بسنّة الرسول - صلى الله عليه وسلّم - وفي هذا المعنى يقول :

«وقد صحب رسول الله- صلى الله عليه وسلّم - صحابته فما قال لتاجر أترك تجارتك، ولا لذي صنعة أترك صنعتك،بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها» (2)

ومن ثم كان المرسي كما يروى ابن عطاء الله يحث مريديه على التسبب ويقول لهم :

«عليكم بالسبب وليجعل أحدكم مكوكه سبحته، أو تحريك أصابعه في الخياطة أو الضفر سبحته» (3)

وهي نظرة استمدّها من شيخه الشاذلي الذي كان كما يقول ابن عطاء الله : «يكره المتعطل ويكره أن يسأل تابعه النّاس...وكان يحث على طرق باب الأسباب والعمل» (4)

لكن المريد المتسبب عند الشاذلي ينبغي أن يجعل همّه هما واحدا ، وهو الانجماع عليه سبحانه، فلا يعتمد على الأسباب، ولاينزعج إليها، ولايتشوّش لها أو كما قال أحمد بن عطاء البغدادي : «ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدّة فاقتك إليها، ولاتزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها» (5) وفي هذا المعنى يقول الشاذلي : **«حق التوكل صرف القلب عن كل شيء سوى الله، وحقيقته نسيان كل شيء سواه، وسرّه وجود الحق دون كل شيء تلقاه، وسر سرّه ملك وتمليك لما يحبّه ويرضاه» (6).**

---

1 -ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 114، 115.

2 - نفس المرجع، ص 115.

3 - نقلا عن: ابن عبّاد، المفاخر العليّة، ص 60.

4 - نقلا عن : علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 125.

5 - نقلا عن : القشيري، الرسالة، ص 76.

6 - نقلا عن : علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 152، 153.

والواقع أن نظرة الشاذلي، وأعلام مدرسته إلى الأسباب متوافقة تماما مع السنّة إذ أنّها تجعل التوكل مقصورا على الثّقة بالله - عزّوجل - وهي حال قلبي، دون ترك للأسباب الظاهرة لأنه - صلّي الله عليه وسلّم - لم يكن من سنّته ذلك، ولقد عبر عن هذه الحقيقة سهل بن عبد الله التستري بقوله : «التوكل حال النبي - صلّى الله عليه وسلّم- والكسب سنته فمن بقي على حاله فلا يتركنّ سنّته»(1) ويقول أبو حامد الغزالي : «ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكليّة طعن في السنّة، وقدح في الشرع»(2) ولفخامة رتبة التوكل لم يجعل الله للمتوكلين من جزاء سوى الجنّة وقد ورد في الحديث الصحيح : «يدخل الجنّة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب قالوا من هم يارسول الله؟! قال : هم الذين لايسترقون، ولايتطيّرون، ولايكتوون وعلى ربّهم يتوكلون» (3)، وفي معنى هذا الحديث يقول الإمام الدهلوي :

إنما وصفهم النبي - صلّى الله عليه وسلّم- بهذا إعلاما بأن أثر التوكل ترك الأسباب، التي نهى الشرع عنها، لاترك الأسباب التي سنّها الله تعالى لعباده، وإنما دخلوا الجنّة من غير حساب لأنه لما استقر في نفوسهم معنى التوكل أورث ذلك معنى ينقض عنها سببيّة الأعمال العاضة عليها من حيث أيقنوا أن لامؤثر في الوجود إلا القدرة الوجوبيّة(4)

وهكذا تزيل« المدرسة الشاذليّة » ذلك التعارض الظاهري بين الكسب والتوكل، فالكسب عمل الأشباح، والتوكل عمل الأرواح، ومدار الشاذليّة على سير القلوب لا على سير الأبدان.

وحاصل القول أن الشاذلي غيّر النظرة القديمة للمقامات والتي تنظر إليها باعتبارها مراحل لابد للمريد أن يجتازها للوصول إلى الله، ولكنه جعلها كلّها مؤدية إلى «الفناء» أو« التوحيد الشهودي» أولم نقل قبل، أن الشاذلي يضع مريديه من أول قدم لهم فيه؟.

---

1 - نقلا عن : القشيري ، الرسالة، ص 77.

2-أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 227.

3- أخرجه مسلم، في الجامع الصحيح،1 كتاب الإيمان، باب الدليل عل دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير حساب ولاعذاب ج1، ص 198.

4- شاه ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، ج2، ص 92.

5 - الكرامات :

وهي خوارق العادات التي يجريها الله على أيدي من أحبّ من عباده خلافا للمعجزة التي خص بها أنبياءه والتي تقترن بدعوى النبوة، وقد أنكر وقوع الكرامات بعض العلماء نذكر منهم العلامة الإسفراييني (1) وعلل الإسفراييني ذلك بقوله :«المعجزات دلالات تصدق الأنبياء، ودليل النبوة لايوجد مع غيرالنبي»(2).

ويفرق ابن فورك (3) بين المعجزات والكرامات وفي هذا المعنى يقول : «إن المعجزات يؤمر الأنبياء بإظهارها، وأما الكرامات فالأولياء مأمورون بسترها واخفائها» (4).

والصوفيّة متفقون جميعا على وقوعها ولكنّهم يختلفون في مدى لزوم الكرامة للولي، وقد صنّف ابن عطاء الله مواقف النّاس من هذا التلازم إلى ثلاثة أقسام :

- قسم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من أظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا له بالتّعظيم.

- قسم يعتقدون أنها خدع لأهل الإرادة، ليقفوا على حدودهم حتى لايلجوا مقاما ليس لهم.

- قسم يعتقدون أن فائدة الكرامة تثبيت اليقين، أو تعريف من شهدها بصحة طريق هذا الولي الذي ظهرت الكرامة على يديه.(5)

ولعل ابن عطاء الله يقصد بالصّنف الأول عامة النّاس، ومن ليس لهم حظ كبير في التصوف، لأن عامة الصوفيّة لايشترطون للولاية الكرامة.

يقول القشيري : «لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدّنيا، لم يقدح عدمها في كونه وليّا» (6).

---

1 - هو الإمام إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني، الإمام المشهور توفي بنيسابور، يوم عاشوراء، سنة 418هـ ونسبته إلى إسفراين بلدة نواحي نيسابور، على منتصف الطريق إلى جرجان أنظر في ترجمته :ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص 209.

2 - نقلا عن القشيري، الرسالة، ص 158.

3 - هو أبو بكر محمد بن الحسن الفوركي، الشهير بابن فورك، الأصبهاني، الفقيه المتكلم، كان إماما عالما، استدعي إلى نيسابور وتخرج به جماعة في الأصول والكلام، وله فيها تصانيف، وكان رجلا صالحا توفي سنة 406م مسموما أنظر في ترجمته : ابن العماد ، شذرات الذهب، ج3،ص 181. 182.

4 - نقلا عن القشيري، الرسالة، ص 158، 159.

5 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 69، 70.

6 - القشيري، الرسالة، ص 159.

وقال سهل لرجل قال له : «إنّي أتوضأ فأجد الماء يسقط من يدي قضبان ذهب وفضّة، فأجابه بقوله : أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة يشتغلون بها»(1)، لذلك يقول ابن عطاء اللّه السّكندري «ربّما رزق الكرامة من لم تكمل الاستقامة» (2)، وهو معنى أكده ابن عجيبة بعده بقوله : «ليس كل من ثبت تخصيصة بالكرامات كمل تخليصه من الحظوظ والشهوات، بل يعطى الكرامة الحسيّة بعض من لم يتخلّص من حظوظه النّفسية»(3) ولن نطيل بذكر النقول عنهم في هذا الشأن لأنه مما استفاض، وتقرر لديهم.

أما القسم الثاني، فقد نقل عن كثير من المشائخ المتقدمين حكايات تدل عليه، ولقد ذكر أن النوري وافي ليلة إلى دجلة، قال فوجدتها وقد التزق الشط بالشط، قال فقلت : وعزتك لاعبرتها إلا في زورق(4) ، وماذلك إلا لخوفه أن يحجب بها عن اللّه.

أما الذي تدل عليه النّظرة الشاذلّية التي تحرص على توجيه همم المريدين إلى معرفة اللّه وعدم الركون إلى غيره،فهو الاستفادة من الكرامة وفي هذا يقول الشاذلي :«فائدة الكرامة تعريف اليقين من اللّه» (5). لذلك لايستعيذ منها في نظرهم إلا من خاف أن يسكن إليها من دون اللّه، أما من لم يفرح بها، ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين الذين علموا« باختلاف الآثار، وتنقلات الأطوار، أن مراده منهم أن يتعرّف إليهم في كل شيء حتّى لايجهلونه في شيء»(6). كما يقول ابن عطاء اللّه السكندري .

وأما القسم الثالث : فهو الذي يكاد يكون مقصود الشاذلية عند اطلاق لفظ الكرامة، وفي هذا المعنى يقول الشاذلي :

> **إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان في الدنيا : كرامة الإيمان بزيادة الإيقان،وشهود العيان، وكرامة العمل بالاقتدا والمتابعة، ومجانبة الدعاوي والمخادعة. فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرها فهو عبد مفتر كذّاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصّواب، كمن أكرم بشهود**

---

1 - ابو نصر السراج الطوسي، اللّمع، ص 400.

2 - بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية ،ص 157.

3 - ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم، ص 208.

4 - ابو نصر السراج الطوسي، اللّمع ص ،401.

5 - نقلا عن : ابن عطاء اللّه السّكندري، لطائف المنن، ص 68.

6 - بولس نويا،المرجع السابق ، ص 213.

الملك على نعت الرضا. فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب، وكل كرامة لايصحبها الرّضا من اللّه. وعن اللّه فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص مثبور» (1).

ذلك لأن الخوارق لم يختص بها الأولياء، بل قد تجري على غيرهم يقول ابن عجيبة: «وأما خرق العوائد الحسيّة، فقد تكون لمن ليست لهم خصوصيّة كالسّحرة، وأرباب الشعوذة»(2)، لهذا لايمكن الاعتماد عليها في معرفة الولي، أو الثقة فيه إلا إذا اجتمعت له مع الاستقامة. وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء اللّه :«والقول الفصل في ذلك أنه لاينبغي أن تطلب أدبا مع اللّه، ومن أظهرت عليه عظم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع اللّه تعالى»(3).

وفي الأخير بقي أن نشير إلى أن «المدرسة الشاذلية» تقسم الكرامة إلى نوعين :

أ - **حسّية** : وقد قدمنا موقفهم منها، ويقصدون بها كما ذكر ابن عجيبة : خرق الحس العادي، كالمشي على الماء، والطيران في الهواء،وطي الأرض، ونبع الماء، وجلب الطعام، والاطلاع على المغيبات، وغير ذلك من خوارق العادات(4)

ب - **معنويّة** : كالمعرفة باللّه، والخشية والإنابة له، ودوام المراقبة والمسارعة لامتثال أمره واجتناب نهيه، والرسوخ في اليقين، والقوة والتمكين، ودوام الثقة به وصدق التوكل عليه.

أما الكرامات الحسيّة فهم لايعولون عليها كثيرا وفي هذا المعنى يقول المرسي:

« ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو في مكة، أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى له صفات نفسه، فإذا هو عند ربّه».(5)

ومع عدم احتفال الشاذلي بالكرامات الحسيّة، فإن اللّه أكرمه بنصيب موفور منها ذكر« اليافعي اليمني» طرفا منها في كتابه «روض الرياحين»(6) ،وتابعه في ذلك «النبهاني »في كتابه«جامع كرامات الأولياء» (7).

---

1 - ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن، ص 69، 70.

2 - ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم، ص 238.

3 - ابن عطاءاللّه السكندري، المرجع السابق ، ص 69، 70.

4 - ابن عجيبة الحسني، المرجع السابق، ص 317.

5 - ابن عطاء اللّه السكندري، المرجع السابق، ص 215.

6 - عبد اللّه اليافعي، روض الرياحين، ط1، القاهرة : المطبعة الميمنية، 1307هـ، ص 143، 144.

7 - يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج2، ص 341- 343.

والشاذلي في نظرته للكرامات التي اشتهر بها المتصوفة قبله، وكلفوا بها متأثر إلى حد بعيد، بآراء النفري صاحب كتاب «المواقف والمخاطبات» كما انتبه إلى ذلك الأستاذ «عمر فروخ» (1)، ونحن لانستبعد ذلك، وبخاصة ونحن نعلم أن أبا الحسن الشاذلي قد تولى شرحه في مجالس وعظه(2).

6 - التأدب بآداب الشريعة :

وهي خاصيّة حرص الصوفيّة على التنبيه إليها لأن الأحوال التي يمر بها السّالك قد تدعوه إلى التفريط في بعض الآداب أو التساهل فيها.

لذلك جعلوا التقيّد بالشريعة علامة على كمال الوليّ فقال بعضهم :«العارف من لايطفيء نور معرفته نور ورعه» (3) وفي هذا المعنى يقول الشاذلي :«إذا لم يواظب الفقير على حضور الخمس في الجماعة، فلا تعبأن به» (4)ويقول أيضا : «لاتؤخر طاعات وقت لوقت آخر، فتعاقب بفواتها أو فوات غيرها، أو مثلها جزاء لما ضيّع من ذلك الوقت، فإن لكل وقت سهما فحق العبّودية يقتضيه الحق منك، بحكم الربوبّة» (5).

فلا مكان في المدرسة الشاذليّة للتساهل بالآداب الشرعيّة، أو القول بإسقاطها وفي هذا المعنى يقول ابن عجيبة الحسني وهو أحد أعلامها : «وقد رأيت كثيرا من الفقراء قصّروا في الشريعة، فخرجوامن الطريقة، وسلبوا نور الحقيقة، ورأيت آخرين طال أمدهم، في صحبة القوم، ولم يظهر عليهم بهجة المحبين، ولاسيما العارفين وماذلك إلا لعدم التحفظ على مراسم الشريعة(6)

ولعل تقيّد المدرسة الشاذليّة هذا بالآداب الشرعيّة، وتمسكها بالكتاب والسنّة، من أهم الأسباب التي جعلتها مدرسة نامية متجددة منذ القرن السابع الهجري إلى العصر الحاضر.

وهذا مايدعونا إلى التعرف على مبادىء، وأصول هذه المدرسة منضما إليها رجالها حتى تتميز هذه المدرسة أكثر عن المدارس المنسوبة إلى غيره من رجال التصوف.

---

1 - عمر فروخ، **التصوّف في الإسلام**، ط1، بيروت : دار الكتاب العربي 1981م. ص 84.

2 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 105.

3 - القشيري، الرسالة البيانيّة، ص 143.

4 - نقلا عن : محمد المدني، الأنوار القدسية في تنزيه طرق القوم العليّة، ص 118.

5 - نقلا عن: عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 6.

6 - ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم، ص 211.

الفصل السابع
مدرسته في التصوّف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد:

إذا كانت كتب التراجم لم تعطنا ترجمة وافية لأبي الحسن الشاذلي فإنها لم تبخل في تبويئ الرجل المكانة التي يستحقها في تاريخ حياتنا الروحيّة، ووصفه بما هو أهله من عبارات التقدير والاجلال.

إلا أننا نعتقد أن التقدير الحقيقي لمكانة أبي الحسن لاتعرف قيمته من بالغ الثناء الموجود في كتب التراجم، بقدر مايعرف من النتائج المثمرة التي حققها في تربية وتهذيب مريديه ،ومدى نجاحه في تأهيل الكثير منهم للقيام بالدعوة، وتزكية النفوس، وتولي مهمة إرشاد الخلق إلى الحق، وتعليم النّاس الخير و الإحسان.

ولقد كتب اللّه أن انتشرت المدرسة الشاذليّة انتشارا واسعا في كل أرجاء العالم الإسلامي، وأنجبت الكثير من أعلام الدعوة وأئمة التربية الذين تتجمل بهم الدّنيا.

وفي هذا أعظم الادلّة على مافي آراء أبي الحسن الشاذلي من فاعلية وخصوبة بحيث بقيت جذوة متقدة يستطيئ بها الكثيرون إلى اليوم. وهو مايعكس لنا صورة حقيقية لمكانة أبي الحسن كصوفي، ومرب من الطراز الممتاز.

لذلك لم نأل جهدا في سبيل الإبانة عن هذه المدرسة المتجددّة المتسعة اعتقادامنّاأنّ هذاأنجع برهان للدلالة على عظمة الشيخ إن لم يكن أعظمها إبانة على شخصيّته.

أولا- أصول المدرسة الشاذلية:

بيّن ابن عطاء الله السكندري الأصول التي بنى عليها الشاذلي طريقته بقوله: «ومبنى طريقته على الجمع على الله وعدم التفرقة،وملازمة الخلوة والذكر،ولكل مريدمنه سبيل، يحمل كل واحد على السبيل الذي يصلح له،وكان لا يحب المريد الذي لا سبب له،وكان يدلّ المريد على الانجماع على حبّه،ولا يلزم المريد أن لا يرى غيره وفي هذا يقول: (اصحبوني ولاأمنعكم أن تصحبوا غيري). »(1)

ولقد جمع الشيخ «أحمد زرّوق »أحد كبار المجددين في المدرسة الشاذلية في الشمال الافريقي مبادئ هذه المدرسة في كتابه الأصول في أصول خمسة وهي:

1-تقوى اللّه في السرّ والعلانية
2-اتباع السنّة في الأقوال والأفعال
3- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار
4 - الرضا عن الله في القليل والكثير
5 - الرجوع إلى الله في السراء والضراء.(2)

---

1 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 145.

2 - أحمد زروق، أصول الطريقة، مخطوط بمكتبة المسجد العتيق بشلغوم العيد، ص 4.

ثم يفصل لنا زروق كيفية التحقق بهذه الأصول فيقول:« وتحقيق التقوى بالورع والاستقامة، وتحقيق السنة بالتحفظ وحسن الخلق، وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكل، وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر في السراء واللجأ إليه في الضراء»(1).

ونستطيع أن نجد مع «ابن عطاء الله السكندري» و«زروق »إجمالا للأسس والمباديء التي تقوم عليها المدرسة الشاذلية في عشر نقاط:

- طلب العلم للقيام بالأمر
- كثرة الذكر مع الحضور
- الخلوة والعزلة للمبتدئين
- صحبة المشائخ للتبصر
- محبة الله ورسوله مع التعظيم
- العمل بالشريعة ومتابعة السنة
- دوام الافتقار والاضطرار إلى الله وهو المعبر عنه (بإسقاط التدبير)
- علو الهمة ومضاء العزيمة
- قطع النظر عن الخلق
- إتهام النفس وعدم الرضا عنها في كل حال.

ثانيا-أعلام المدرسة الشاذلية:

وهذه تراجم لأهم مشاهير خلفائه، وأصحابهم، مع نبذ يسيرة أفردناها لعلماء أجلّة انتفعوا بصحبته مع بعض التوسع في حياتي خليفته الكبير أبي العبّاس المرسي وتلميذه ابن عطاءالله صاحبي الفضل الأكبر في توسيع نطاق المدرسة الشاذليّة.

وهذا ثبت لمشاهير أصحابه.

1 - ابراهيم المزوغي، 2 -إسحاق إبراهيم الزواوي، 3 - اسماعيل الهنتاتي، 4 - أمين لدين جبريل، 5 - تاج الدين الصنهاجي، 6 - حسن السيجومي، 7 - أبو الحسن علي بن مخلوف، 8 - أبو الحسن علي الحطاب، 9 - أبو الحسن علي القرجاني، 10 - أبو حفص عمر الجاموس، 11 - أبو حفص عمر النبي، 12 - خلف المسروقي، 13 - أبو سالم البرقي، 14 - سالم التباسي، 15 - سعدون الأسمر، 16 - سفيان الباجي، -17 الشرف البوني، 18 - أبو عبد الله محمد الفاسي، 19 - أبو عبد الله محمد القرطبي، 20 - أبو عبد الله محمد الرّبيعي، 21 - أبو عبد الله عرف القطاع، 22 - أبو عبد الله محمد الجباس، 23- أبو عبد الله محمد الشريف، 24 - أبو عبد الله محمد القرافي، 27 - أبو عبد الله

---

1 -أحمد زروق،أصول الطريقة، ص 4.

القرطبي القرشي، 28 - عبد الملك الزعزاع، 29 - أبو عبد الله الصمعي، 30 - أبو عبد الله محمد الصابوني، 31 - أبو عبد الله سالم المزاتي، 32 - أبو عبد الرحيم الشفني، 33 - الشيخ عبد الوهاب، 34 - أبو القاسم الدبّاغ، 35 - أبو زيان الداودي، 36 -أبو العبّاس أحمد الغرابلي، 37 - أبو القاسم القرطبي، 38 - عبد المغيث عرف الطنجي، 39 -عطيّة المسروقي، 40 - أبو زيد عبد الرحمن الصقلي، 41 - أبو العباس أحمد اليمني، 42 - أبو عبد الله محمد الحبيبي،43 - عبد العزيز الزيتوني، 44 - أبو العزائم ماضي بن سلطان، 45 - يوسف البغدادي، 46 - علي بن مخلوف، 47 - أبو عبد الله المسروقي، 48 - هلال المسروقي، 49 - أبو عبد الله محمد بن سلطان، 50 - عز الدين بن عبد السلام، 51 - عبد الله اللّقاني، 52 - عبد الحليم اللّقاني، 53 - مكين الدين الأسمر، 54 -عثمان التوريجي، 55 - يحي البلبيسي، 56 - أبو عبد الله الشاطبي.(1)

1 - الشيخ عز الدين بن عبد السلام : (2)

هو عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام، كان مولده في دمشق سنة 578هـ تلقى العلم عن عدد من مشاهير العلماء، منهم فخر الدين بن عساكر، والقاضي جمال ابن الخر ستاني وأبو الحسن الآمدي.

صحب أبا الحسن الشاذلي واستفاد منه فوائد في العلم والتزكية، قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني :«إن العز كان من أشد المنكرين على الصوفيّة في بدايةأمره فلما اجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي وتتلمذ له صار يمدح طريق القوم ويقول إنّ هؤلاء القوم تعدواعلى قواعد الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم» (3).

تصدر للوعظ في الجامع الأموي، بعد أن تولى التدريس بزاوية الغزالي، كما أسندت إليه خطة القضاء إلا أنه عزل نفسه منها، اشتهر بمواقفه في الأمر بالمعروف، والنهي عن

---

1 - أخذنا أسماء هؤلاء التلاميذ من عند : الأستاذ البهى النيّال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 82؛ ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 91، محمد بوذينة ،أبو الحسن الشاذلي ،ص82.

2 -أنظر في ترجمته : اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 152 158-؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص 301، 302.

3 - عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفيّة، ج2، ص 36.

المنكر. كانت له هيبة وجلالة عند سلاطين المماليك ويروى أن أحد سلاطين المماليك لما سمع بخبر موته قال :«لم يستقر ملكي إلا الساعة لأنه لو أمر النّاس في بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره»توفي رحمه اللّه سنة 660هـ.

والعز متعدد نواحي الشخصيّة فهو مفسّر وفقيه، وأصولي، ومتكلم يقال عنه أنه بلغ رتبة الاجتهاد كما أنه متصوف راض نفسه بالمجاهدات فدان له الكثير من الصوفيّة بالاحترام.

من كتبه : «التفسير الكبير»،« القواعد الكبرى»، «مختصر النهاية»،«شجرة الأخلاق الرضيّة والأفعال المرضية»، «الإمام في أدله الأحكام»، «مختصر الرعاية»، وغيرها من الكتب النافعة. قيل عنه بأن علمه أكثر من تصانيفه(1).

2 - ابن سراقة الشاطبي : (2)

هو أبو عبد اللّه محيي الدين أبو بكر محمد بن محمد بن ابراهيم الأنصاري، المعروف بابن سراقة، ولد سنة 592 هـ بشاطبة.

وتلقى العلم من قاضي الجماعة بقرطبة أبي القاسم أحمد بن بقي، وبالعراق من أبي علي بن الجواليقي وطبقته.

استوطن الشام مدة، ثم عاد إلى القاهرة وتولى بها التدريس في دار الحديث الكاملية إلى أن توفي.

صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي إبّان إقامته في مصر ويذكر أنه كان يترضى عن الشيخ في كل ليلة(3).

ترك عدة مؤلفات في التصوف ضاعت ويالأسف كما ترك الكثير من الشعر على طريق المتصوفة.

3 - مكين الدين الأسمر : (4)

هو عبد اللّه بن منصور الاسكندراني، المعروف بمكين الدين الأسمر، شيخ القراء بالأسكندرية، أخذ القراءات عن أبي القاسم الصفراوي، واقرأ الناس مدة قال اليافعي عنه في ترجمته : «هو الشيخ الكبير صاحب القلب المستنير، العارف باللّه الخبير

---

1 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 152 - 158.

2 - أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 310، 311؛ اليافعي اليمني ،مرآة الجنان، ج4، ص 160؛ الذهبي، العبر، ج5، ص 270.

3 -راجع ابن الصباغ، درة الأسرار ص 154.

4 - أنظر في ترجمته : اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 221، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ج5، ص 421.

الذي شاع في الناس فضله»(1)

صحب أبا الحسن الشاذلي لما قدم إلى الإسكندرية ولما اجتمع به قال :

«مكثت أربعين سنة يشكل عليّ الأمر في طريق القوم فلا أجد من يتكلم عليه، ويزيل عنّي إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال عنّي كل شيء أشكل عليّ(2)

شهد له شيخه أبو الحسن الشاذلي بالنور والاطلاع وبتحققه بمقام البدليّة، كما أثنى عليه العارف بالله ابن عطاء الله السكندري في كتابه لطائف المنن.(3)

توفي الشيخ مكين الدين الأسمر سنة 692هـ، ودفن بجوار قبر أبي العبّاس المرسي في الاسكندرية - رحمهما الله-

4 - الشيخ أبو العباس المرسي : (4)

هو الشيخ العارف بالله الكبير أبو العباس المرسي ، الركن الثاني في المدرسة الشاذليّة، حيث أكمل رفع منار الطريقة فبث أنوارها ، وأبدى أسرارها من غير كلل أو ملل، إلى أن توفي رحمه الله.

4 . 1 - اسمه ولقبه : هو أحمد بن عمر الأنصاري المعروف بأبي العبّاس المرسي، كان موطنه الأصيل مرسيه حيث ولد سنة 616هـ ،وإليها نسب.تلقى علومه الأولى فيها، وحفظ القرآن، ودرس مبادىء الكتابة والحساب.وفي الرابعة والعشرين من عمره سافر مع والديه وأخيه لأداء فريضة الحج. لكن المركب غرق بهم في بونة - عنابة حاليا - فهلك والداه ونجا مع أخيه فدخلا تونس وأقاما فيها مدة من الزّمن(5).

وفي تونس اجتمع أبو العبّاس المرسى بالشيخ أبي الحسن الشاذلي ،وقد أضفى المترجمون على هذا الحادث صبغة أسطورية فذكروا أن أبا الحسن الشاذلي كان ينتظر مقدم الشاب أكثر من عشر سنين، ويروى أن أبا الحسن لما عاد من رحلته الأولى من المشرق قال «**ماردني لتونس إلا هذا الشاب** »ويشير إلى أبي العبّاس المرسي(6).

لازم أبو العباس المرسي عند إقامته بتونس حضور مجالس الشيخ أبي الحسن

---

1 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 221.

2 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 90.

3 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 221.

4 - أنظر في ترجمته : ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 94، 107، عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 12 - 18، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 271. جمال الدين الشيال، أعلام الاسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة : دار المعارف، 1965م. ص 192 - 212.

5 - المرجع نفسه ص 192 - 194.

6 - ابن الصباغ، درة الأسرار، ص 13.

الشاذلي، وسلك على يديه الطريق، وسافر معه إلى الإسكندريّة عام 642هـ وانتفع بصحبته له كثيرا حتى أوصى له الشيخ بالخلافة قبيل وفاته يقول الشاذلي في وصيته لمريديه : «إذا أنا متّ فعليكم بأبي العبّاس المرسي، فإنه الخليفة من بعدي وسيكون له بينكم مقام عظيم»(1).

وقال عنه صاحب «نفح الطيّب» : «أبو العباس ولي الله العارف به، الشيخ الشهير الكرامات الكبير المقامات» (2)

وعرف به تلميذه ابن عطاء الله به في كتاب أفرده له ولشيخه أبي الحسن وهو المسمى «لطائف المنن».

4. 2 - مكانته العلميّة :

كان أبو العبّاس المرسي ملما بكثير من العلوم الإسلامية لاسيّما التفسير والحديث كما يقول ابن عطاء الله :« وكان رحمه الله لايتحدث في علم من العلوم إلا ويظن السامع أنه لايحسن غيره. »(3).

ويروى عنه أنه كان يقول :«شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه» (4) وكان يشتغل بدراسة عدة كتب درسا وتدريسا منها :«الإرشاد في أصول الدين»، و«المصابيح »في الحديث، و«التهذيب» و«الرسالة »في الفقه و«المحرر الوجيز» لابن عطيّة في التفسير، أما في التصوف فقد درس «المواقف والمخاطبات »للنفري، و«ختم الأولياء »للحكيم الترمذي، على يد شيخه الشاذلي ودرّس أبو العباس في مجالس تذكيره «الإحياء »للغزالي، و«قوت القلوب »لأبي طالب المكي، و«نوادر الأصول» للحكيم الترمذي.(5)

ويذكر مترجموه أنه كانت له مجالس عظيمة في الحقائق، والمعارف، والرقائق (6) إلا أنّه مع سعة معارفه، وتقدمه في أنواع من العلوم فإنّه مع ذلك لم يضع كتبا في علوم التصوّف ذلك لأنه يرى : «أن علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لاتتحملها عقول عموم الخلق» (7).

---

1 - ابن الصباغ، درّة الأسرار، ص 135.

2 - المقري التلمساني، نفح الطّيب في غصن أندلس الرّطيب، ج2، ص 389 - 393.

3 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص 122.

4 - نفس المرجع والصفحة.

5 - نفس المرجع والصفحة.

6 - محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، ج1، ص 188.

7 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 12.

غير أن ابن عطاء اللّه حفظ لنا بعضا من أقواله في موضوعات متعددة في السلوك والتفسير. وبعض الأدعية، ومن أقواله التي تشهد لمؤلفها بعلو كعبه في المعارف الذوقيّة، والمواجيد الصحيحة قوله : «الفقيه من أنفقأ الحجاب عن عيني قلبه»

ومن كلامه : « أعبد اللّه بشرط العلم، ولاترض عن نفسك أبداً »

ومن أقواله أيضا : «من علامة حبّ الدنيا : خوف المذمّة، وحبّ الثناء، فلو زهد ماخاف ولاأحبّ».

وقال : « مارأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق».

وقال - رحمه اللّه - في الإخلاص : «قليل العمل مع شهود المنّه من اللّه تعالى، خير من كثير العمل مع شهود التقصير من النّفس».(1)

وللمرسي نظم رقيق لطيف المعاني أهمه القصيدة التي تحدث فيها عن علاقة الروح بالبدن وهي شبيهة بعينية ابن سينا يقول فيها :

إن كنت سائلنا عن خالص المنن *** وعن تألف ذات النّفس بالبدن
وعن بواعثها بالطّبع مائلة *** تهوي بشهوتها في ظلمة الشجن
وعن تنزلها في ملكها ولها *** علم يفرّقها في القبح والحسن
وعن حقيقتها في أصل معدنها *** لاينثني وصفها منها إلى وثن
تطور النّفس سرّ لايحيط به *** عقل تقيّد بالأوهام والدرن
والروح بين ترق في معارفها *** وهي الثواقب للتعريف بالمنن
مثالها في العلا مرآة معدنها *** ألطافها خفيت كالسّر في العلن(2)

وبالجملة فإن المتأمل في أقوال المرسي يشعر أن أبا العبّاس المرسي قد بلغ الذروة العليا في علوم التصوّف ومعارفه ولهذا كان يقول عن نفسه :« واللّه مانطالع كلام أهل الطريق إلا لنرى فضل اللّه علينا » (3).

ولعل أكبر دليل على علو كعبه في المعارف الإلهيّة، ورسوخ قدمه فيها أن الشيخين« شمس الدين الأصفهاني »(4)،

---

1 - راجع هذه الأقوال وكثير غيرها عند عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 12 - 18.

2 - ابن الصبّاغ، درّة الأسرار، ص 155.

3 - ابن عطاء اللّه، لطائف المنن، ص 106.

4 - هو شمس الدين الأصفهاني، أصولي متلكم، ولي قضاء قوص نيابة عن القاضي تاج بن بنت الأعز،و له عدة مؤلفات منها : شرح المحصول، الفوائد في العلوم الأربعة الأصلين والخلاف والمنطق وله في المنطق كتاب مستقل عنوانه غاية المطلب في المنطق توفي عام 688 هـ أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 406، 407؛ اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 208.

« وشمس الدين الأيكي»(1) كانا يحضران مجالس وعظه وتذكيره، ويستفيدان منه فوائد في العلم والتزكيّة.

4 . 3 - زهده وورعه :

ومما يتصف به العارفون بالله، والعاملون بالسنّة المطهرة، هو الزهد والورع، وقد بسط ابن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن» الكثير من أخبار زهده في الدنيا وورعه عنها وازدرائه لها إلى أن مات رحمه الله وماوضع حجرا على حجر ولا اتخذ بستانا ولاخلف وراءه رزقا(2) وماذاك إلا لتحققه بالمعرفة الصحيحة بالله، والاتصال به، فأورثه ذلك غنى في القلب جعله يبتعد عن الملوك والأمراء وأصحاب الرئاسات، ويذكر ابن عطاء الله أن أبا العبّاس مكث في الإسكندرية ستا وثلاثين سنة ومارأى وجه متوليها ولاأرسل إليه حتى أنّ نائب الإسكندرية طلب أن يجتمع به ليأخذ بيده ويكون شيخه فقال :«لست ممن يلعب به ولم يجتمع به حتى مات، وكان إذا نام في بلد في السفر وعرف أن كبيرها يريد الاجتماع به يسافر منها ليلا قبل الفجر»(3)

أما ورعه - رحمه الله- فقد بلغ شأوا لايدرك ويروى عنه أنّه قال : « والله مادخل بطني حرام قط» (4)

ولما أراد أن يختبره إنسان بطعام فيه شبهة للإمتحان، أعرض عنه ثم التفت إلى صاحب الطعام، وقال إن كان الحارث المحاسبي في اصبعه عرق إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه فأنا في يديّ ستون عرقا تتحرك(5).

4 . 5 - وفاته :

ظل أبو العبّاس المرسي مثابرا في دعوته وجهاده وتربيته لنفوس مريديه حتى وافاه الأجل المحتوم في الإسكندرية عام 686 هـ. ويذكر أن أهل الإسكندرية لهم فيه اعتقاد عظيم لايزال إلى يوم الناس هذا (6).

---

1 - هو شمس الأيكي، الفارسي الشافعي. كان فقيها صوفيًا وإماما في الأصلين، ولي في مصر مشيخه الشيوخ فتكلم فيه الصوفيّة توفي عام 697 هـ أنظر ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 499.

2 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 124.

3 - نفس المرجع والصفحة، 124.

4 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 125.

5 - نفس المرجع ، ص 105.

6 - ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 418.

4 . 6 - تلاميذه وخلفاؤه :

أخذ عنه جماعة كبيرة من التلاميذ، والمريدين، والجلّة من العلماء منهم : ابن ناشي، ونجم الدين الأصفهاني، وأبو الحسن المرسي، وأحمد ابن عرام حفيد الشاذلي، والشرف البوصيري، وزكي الدين الأسواني كما أكمل عنده كل من أبي العزائم ماضي بن سلطان وشقيقه أبي عبد الله محمد تربيتهما وتهذيبهما الباطني. إلا أن أجل أصحابه وخليفتيه الكبيرين هما : ياقوت العرشي، وأحمد بن عطاء الله السكندري، ولو لم يربّ غيرهما لكفيا في التعريف به وبعلو شأنه في التربية والتسليك لذلك فسنفصل القول فيهما بعض التفصيل لأنهما صاحبا الفضل الأكبر في توسيع نطاق المدرسة الشاذلية، كما كانا وراء بقائها وخلودها إلى الآن.

والمنعم النظر في سلاسل المدرسة الشاذليّة على كثرتها يجدها كلها راجعة إليهما.نفعل ذلك بعد أن نذكر نبذا مختصرة عن حياة علماء أعلام تتلمذوا على يديه،

5 - أحمد بن بكر بن عرام (1):

هو حفيد أبي الحسن الشاذلي ولد عام 664 هـ في مدينة أسوان انتقل إلى الإسكندرية منذ صغره، وأقام فيها، تلقى العلم من عدة مشائخ منهم شمس الدين الأصفهاني، والعلم العراقي، وبهاء الدين النّحاس، ومحمد بن طرخان.

صحب أبا العباس المرسي وسلك على يديه في طريق الإرادة، وانتفع به كثيرا. توفي في القاهرة عام 720هـ مخلفا وراءه ابنه محمد بن عرام في المشيخة.

6 - الشرف البوصيري (2)

هو الشيخ شرف الدين محمد بن سعيد بن حمّاد، مغربي الأصل، مصري المنشأ، والولادة عرف بالبوصيري نسبة إلى بوصير (بلدة والده) ولد شرف الدين بدلاص إحدى قرى مصر عام 606هـ، ويذكر مترجموه أنه استوطن عدّة مدن منها القدس، والمدينة، ومكّة، ثم عاد إلى مصر وسكن القاهرة وأنشأ فيها كتّابا لتعليم القرآن. وفي هذه الأثناء تعرف على أبي العبّاس المرسي في الإسكندرية فكان كثيرا مايتردد عليه.

---

1 - أنظر في ترجمته : ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. حققه وقدّم له محمد سيّد جاد الحق، ط2، القاهرة : دار الكتب الحديث 1966م ج1، ص 119، ابن الملّقن، طبقات الأولياء، ص 514.

2 - أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 432؛ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص 673 ، 680.

ويبدو أن البوصيري كان يكنّ في قلبه احتراما وإجلالا لشيخه أبي العبّاس وشيخه أبي الحسن مما دعاه إلى نظم قصيدة بلغت حوالي (118 بيتا) يمدح فيها المرسي ويعزيه عن شيخه الشاذلي وتعرف هذه القصيدة بالدالية افتتحها بقوله :

«كتب المشيب بأبيض في أسود *** بقضاء مابيني وبين الخرد» (1).

إلى أن يقول :

«أما الإمام الشاذلي فطريقه *** في الفضل واضحة لعين المهتدي

فانقل ولو قدما على آثاره *** فإذا فعلت فذاك أخذ باليـد(2)

وشهرة البوصيري في العالم الإسلامي ترجع لقصيدتيه في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم- بخاصة البردة التي تقع في (182 بيتا) وقد طبعت مئات الطبعات بل أكثر، وعليها شروح كثيرة. كما ترجمت إلى عدة لغات أجنبيّة شرقيّة وغربيّة، وتليها الهمزيّة وهي في سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم - وتقع في حوالي (418 بيتا).

توفي البوصيري في الإسكندرية عام 694 هـ ودفن بجوار شيخه أبي العباس المرسي.(3).

7 - نجم الدين الأصفهاني (4) :

هو الشيخ العارف الكبير نجم الدين عبد الرحمن بن يوسف الأصفهاني، أصله من بلاد العجم، قدم مصر بحثا عن مرشد روحي، فسمع بأبي العبّاس المرسي فذهب إليه لحسن اعتقاده فيه لأشياء رآها منه (5) ولازمه وداوم على صحبته روحيًا.

ولد سنة 647 هـ وسمع الحديث عن جماعة، وتفقه، وقرأ الفرائض، والأصول، والعربية، والجبر والمقابلة، وقرأ القراءات.

من مؤلفاته : «مختصر الروضة».قال عنه اليافعي : «كان حسن الأخلاق، سليم الباطن، مشهورا بالصلاح وكثرة المحاسن وحسن الاعتقاد» (6).

توفي رحمه الله سنة 750 هـ بالحرم المكي.(7)

---

1 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 432.

2 - ابن عبّاد، المفاخر العليّة، ص 9، 10.

3 - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي، ج3، ص 674.

4 - أنظر في ترجمته : اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 334، 335؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 167.

5 - أنظر في ذلك القصة التي رواها ابن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن» ص 100.

6 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 334.

7 - نفس المرجع والصفحة.

8 - ياقوت العرشي (1) :

هو الشيخ العارف بالله، الولي الكبير ياقوت الحبشي أحد كبار خلفاء أبي العبّاس المرسي بشّر به أبو العباس وهو في أرض الحبشة حينما ولد سنة 651 هـ تقريبا.(2).

كان عبدا رقيقا أهدي إلى أبي العبّاس المرسي فأعتقه وأخذ عنه الطريقة حتى وصل إلى مرتبة عالية في التصوف.

قال عنه اليافعي :«هو صاحب الأوصاف الحميدة ، والكرامات العديدة، والأحوال السنيّة، والمقامات العليّة، والأنفاس الصادقة» (3) وأثنى عليه الشعراني وقال عنه : «كان إماما في المعارف، عابدا، زاهدا وهو من أجلّ من أخذ عن أبي العبّاس المرسي»(4).

كانت طريقته في التربية أن يعلم الخلق «بلا إله إلا الله» مات -رحمه الله - سنة 732هـ. بالإسكندرية، ودفن قرب شيخه أبي العباس المرسي - رحمهما الله - وأسكنهما فسيح جنانه(5).

ومن أشهر من أخذ عنه الطريق صهره العلاّمة شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد اللّبان المصري، وخليفته الأجل في التربية فتح الله العجمي.

9 - شمس الدين اللّبان(6) :

هو الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد عبد المؤمن اللّبان المصري الشافعي ولد سنة 658هـ، سمع الحديث بدمشق والقاهرة عن الجلّة من العلماء، منهم ناصر الدين بن الفراس، والخطيب شرف الدين الغزاوي. وأخذ الفقه عن جمال الدين السريشي، ونجم الدين بن الرفعة وكمال الدين الزملكاني، وصدر الدين بن الوكيل وأذنوا له بالفتيا كان في أول أمره شديد الانكار على الصوفيّة إلا أنّه لما صحب الشيخ الكبير أبا الدر ياقوت زال انكاره وصار معظما لهم.

---

1 - أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص 103؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص 408؛ عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 19؛ اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 284؛ يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج2، ص 518. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 478.

2 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 19.

3 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 284.

4 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 18، 19.

5 - د. جمال الدين الشيّال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص 210.

6 - أنظر في ترجمته : اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 333، 334، ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص 164. ومنهما إقتبسنا هذه الترجمة.

توفي في شوال سنة 743هـ ودفن بجوار زوجته ابنة ياقوت العرشي.

ترك عدة مؤلفات نذكر منها : «ترتيب الأم» على مسائل الروضة واختصارها، وكتاب في الحديث جمع فيه بين ابن الصلاح والنووي، وألفيّة في النحو ضمنها «التسهيل» و«المعرب» قيل لم يصنف مثله في العربيّة، وله كتاب في متشابه القرآن والحديث. تكلّم فيه على طريقة الصوفيّة اسمه «إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات» وله تفسير للقرآن لم يكمل.

أثنى عليه الأسنوي وقال فيه : «كان عارفا بالفقه، والأصلين، والعربيّة أديبا شاعرا ذكيّا فصيحا ذا همّة» (1) وقال فيه الحافظ العراقي : «أنه أحد العلماء الجامعين بين العلم والعمل»(2)..وترجم له اليافعي اليمني وقال عنه : «الإمام العلامة الفريد الصوفي المتكلّم على لسان الحقيقة ودليل الطريقة ... كان نهاية في علوم القرآن والأصلين والجدل وإمامته في الفقه مشهورة وبراعته في العلوم مذكورة» (3)

10 - فتح الله العجمي (4) :

هو خليفة ياقوت العرشي، كان أحد العلماء العارفين بالله، ويذكر مترجموه أنه كان على اطلاع بالأصول، والفقه، وعلم الكلام، أما التصوف فقطب رحاه دخل المغرب سنة 819هـ، ثم أقام بتونس إلى أن توفي بها سنة 847 هـ وقد قارب الثمانين من عمره، كان -رحمه الله- متجملا كريما ترد عليه الملوك والقضاة ولا يرد عليهم.

من أشهر خلفائه في الطريقة عبد المعطي نزيل مكة وأحمد بن عروس.

11 - أحمد بن عروس (5) وخلفاؤه :

هو الشيخ أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عروس الهواري انتهت إليه رئاسة تربية السالكين بمحروسة تونس في زمنه.

ولد رحمه الله بضواحي المزاتين بوادي الرمل قرب تونس في حوالي سنة 778هـ. وتلقى العلم في العاصمة، وأخذ الطريقة الشاذليّة على يد فتح الله العجمي. وكان فتحه على يديه.

---

1 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص 164.

2 - نفس المرجع والصفحة.

3 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 333، 334.

4 - أنظر في ترجمته: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، بيروت: مكتبة الحياة، [د.ت.ا]، ج6، ص 167؛ أحمد حامد عبد الكريم، الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ط1، القاهرة : مكتبة الزهران، 1989م، ص 60.

5 - أنظر في ترجمته عمر بن علي الراشدي، ابتسام العروس ووشي الطروس في مناقب أحمد بن عروس، تونس : المطبعة الرسميّة في الأخبار التونسيّة، ج3، ص 74 - 90؛ أحمد حامد عبد الكريم، الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ص 64، 66؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص 259؛ عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ط1، فاس: المطبعة الجديدة، 1936م، ج2، ص 18 - 21؛ محمد مخلوف، مواهب الرحيم في ترجمة مولانا عبد السلام بن مشيش، ط1، طرابلس، مكتبة النجاح، سنة 1325هـ، ص 320، 321.

كان الغالب عليه رحمه الله حال الجذب لذلك ظهرت عليه خرق عوائد كثيرة غير ذلك لم يمنعه من تربية المريدين وتهذيب السالكين فأخذ عنه خلق كثير وخلفه أعلام من المربين منهم :أبو الحسن علي التفاتي، وأبو عبد الله محمد شوشو، وأبو عبد الله محمد القلعي، وأحمد بن مخلوف، وأبو راوي الفحل، غير أن الأخيرين هما اللذان حفظا طريقته من الاندثار حيث بقيت إلى عصرنا الحاضر. فقد استطاع أحمد بن مخلوف لحسن تصرفه في الطريقة العروسيّة أن يؤسس فرعا جانبيا عرف «بالشابيّة» امتد تأثيره إلى الجزائر وليبيا.

كما رزق فرع طريقة أبي راوي بداعية كبير هو عبد السلام الأسمر الذي تمكن من تأسيس فرع جانبي عرف «بالفيتورية» كان له حضور قوي في ليبيا كما امتد إشعاعه إلى مصر وسنتحدث عن هذين الفرعين فيما يأتي. توفي الشيخ الجليل أحمد بن عروس يوم السبت 8 صفر سنة 868 في يوم مشهود (1).

12 - أحمد بن مخلوف الشابي(2) وتلاميذه :

هو الشيخ العارف الكبير أحمد بن مخلوف الشابي أحد كبار المجددين في المدرسة الشاذليّة في تلك الفترة.

ولد سنة (835هـ) ببلدة الشابة بالساحل الشرقي في رأس قبودية قرب المهديّة وصفاقس. نشأ أحمد بن مخلوف ببلدته، وحفظ فيها القرآن ثم انتقل بعدها إلى تونس العاصمة طلبا للعلم فقضى فيها أعواما كان خلالها يتردد كثيرا على الشيخ أحمد بن عروس الذي أخذ عنه الطريقة الشاذليّة، وبقي في صحبته إلى أن غادر تونس بعد صفعه لجندي من جنود السلطان ليتصل بعدها بالشيخ علي المزوغي (3) المعروف بالمحجوب فلازمه إلى أن أذن له بالتربية والتسليك الباطني. عندئذ اتجه نحو القيروان فظهر فيها أمره، وانتشرت طريقته، وكثر أتباعه.

وتصوف الشابي يقوم على التصوف السنّي الذي عرفت به الطريقة الشاذليّة ممزوجا ببعض الأنظار الفلسفيّة - إن صح هذا التعبير - على طريقة ابن عربي، فالشيخ إذن أكبري المشرب.

---

1 - عمر بن علي الراشدي، ابتسام العروس ووشي الطروس، صفحة 235.

2 - أنظر في ترجمته : محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1984م، ج3، ص 105؛ سميع عاطف زين، الصوفيّة في نظر الإسلام، ط3، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1985م، ص 553، 554.؛ وانظر أيضا : د. علي الشابي، مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية، المجلة التاريخية المغربية، عدد 13، 14 تونس، جانفي 1979م، ص 55 - 8!.

3 - هو الشيخ أبو الحسن علي المزوغي من أولاد طاهر المزوغي السافي من تلاميذ أبي مدين الغوث تصدر للفتوى في جميع العلوم ولد سنة 677 هـ أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكيّة، ج1، ص 211.

ولما توفي الشيخ أحمد بن مخلوف سنة (898هـ) خلفه في الدعوة والارشاد ابنه الشيخ عرفه (879هـ 948هـ)(1) والشيخ أحمد التبّاسي (ت 930هـ) (2) وعن هذين الشيخين تلقى علي بن ميمون الغماري المغربي تربيته الروحيّة، وكان علي بن ميمون من أجلّة مشائخ هذا الفرع كما كان صاحب صلة قويّة بالله ورزق قبولا عظيما في المشرق والمغرب وطبق صيته الآفاق، واستطاع بحسن تصرفه في الطريقة الشابيّة أن يؤسس طريقة جانبية دعيت لكثير من خصائصها الإجتهادية «بالميمونية» كما عرفت باسم آخر هو «الخواضرية» وهو ماسنوضحه في المبحث الموالي.

13 - علي بن ميمون المغربي (3) :

هو الشيخ المربي القدوة علي بن ميمون الهاشمي، أحد كبار مشائخ الشاذليّة.

ولد ونشأ في غمارة، ثم انتقل إلى فاس وتلقى العلم على يد شيوخها، وتصدر فيه ثم ولي القضاء. أخذ الطريقة الشاذلية على يد عرفه القيرواني، ثم لازم أحمد التباسي مدة من الزمن حتى كمل تهذيبه الباطني.

كان هذا الشيخ لايخالف السنّة السنية قدر شعرة لا في الأقوال، ولا في الأعمال ومما يشهد على تعظيمه لها قوله : « لو أتاني السلطان أبو يزيد بن عثمان لا أعامله إلى بالسنّة» (4).

أخذ عنه جم غفير من الخلق، نالوا عنه التربية، والتزكية من بينهم عبد رب النبي شيخ المالكيّة، والشيخ شمس الدين بن رمضان شيخ الحنفية إلا أن أجل خلفائه هو الشيخ محمد بن عرّاق.

ويبدو أن الشيخ كان شديد الميل إلى آراء ابن عربي والانتصار له إذ قد ألّف رسالة في الدفاع عنه سماها «تنزيه الصديق عن وصف الزنديق» ولعلّه متأثر في ذلك بالشيخ أحمد بن مخلوف مؤسس فرع الشابيّة.

---

1 - أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 277، 278؛ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، ص 126، 127؛ نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 191.

2 - هو أحمد بن محمد المغربي التونسي، توفي بنفزاوة من الجناح الأخضر من المغرب، سنة 930 هـ أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 171. نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج1، ص 128، 129.

3 - أنظر في ترجمته : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص 81 - 84، نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج1، ص 271 - 278.

4 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 82.

وللشيخ علي بن ميمون حسن تصرف في طريقة الشاذلي إذ كان - رحمه الله - لايقول بالخرقة ولا بإلباسها، كما كان لايقول بالخلوة ولايرى حاجة إليها في طريقته، كما لايبعد أن يكون سبب تسميتهم «بالخواطرية» نتيجة اعتناء الشيخ الشديد بمعرفة الخواطر والكلام عليها وللشيخ ابن ميمون كتب متعددة في الحقائق، والمعارف، وآداب الصوفية نذكر منها :« شرح الأجروميّة على طريقة الصوفية». والظاهر أن ابن عجيبة حذا حذوه في كتابه « الفتوحات القدسية في شرح المقدمة الأجروميّة»، «غربه الإسلام في مصر والشام وماوالاهما من بلاد الروم والأعجام»، «تذكرة السّالكين»، «بيان فضل خيار الناس والكشف عن مكر الوسواس»،« تذكير المريد المنيب بأخلاق أصحاب الحبيب».

مات يوم الإثنين 11 عشر جمادي الآخرة سنة 917هـ بمجدل معوش قرب بيروت ودفن بها (1).

14 - محمد بن عراق(2) :

هو الإمام العلاّمة شمس الدين أبو علي بن عبد الرحمن الشهير بابن عراق الدمشقي نزيل المدينة المنوّرة.

ولد سنة 878هـ. وعاش جل عمره في رغد من العيش غير أنّه لما صحب العارف بالله علي بن ميمون تجرد عن ماله كله، فقال عنه الشيخ يونس العيشاوي بسبب ذلك.« مارأينا من كان مقبلا على الدنيا ثم تركها حقيقة، وأعرض عنها إعراضا كليّا، ثم لم يعد إليها، ولم يكن ليعرّج عليها حتى لقي الله تعالى إلا الشيخ محمد بن عراق»(3).

انتفع به جم غفير من الناس كما أخذ عنه جماعة من العلماء، والصلحاء كالشيخ علي الكردي، وإسماعيل المهبلي، ومحمد بن قيصر، وأحمد السائحي(4)...

من مؤلفاته : « النفحات المكيّة»، «مواهب الرحمن في كشف عورات الشيطان»، «السفينة العراقيّة»، و«سفينة النجاة لمن إلى الله إلتجاه»، و«حزب الإشراق» الذي قال فيه :

«إلهي كلما أذنبت دعتني سابقة نعمتك إلى التوبة، وكلما تبت جذبتني أزمّة قدرتك إلى المعصية، فلا التوبة تدوم ولا المعصية تنصرف عني وما أدري بماذا يختم لي غير أنّ سابقة الحسنى منك أوجبت لي حسن الظن بك [...] إلهي أنوار تجلّياتك الوجوديّة أشرقت فلا يزاحم وجود ليل سواها لاحاطة شمولها في مراتب ظهورها، فحققني بذلك تحقيقا محفوفا بلزوم مواطن مراضيك مع البقاء بعد الفناء فيك.(5)

---

1 - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص 84.
2 - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص 196؛ نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص59 - 68.
3 - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 62.
4 - نفس المرجع، ج1، ص 63.
5 - نفس المرجع، ج1، ص 66.

ومن كلامه : «الخمول نعمة وكل أحد يأباه، وأرى الظهور نقمة وكل أحد يتمناه، ألا في الظهور قسم الظهور» (1)

توفي في مكة المكرمة يوم الثلاثاء 14 صفر سنة 933هـ ودفن بباب المعلى(2).

15 - أبو راوي الفحل (3):

الشيخ العارف أبو راوي بن أبي الفتح، أجل من أخذ عن الشيخ أحمد بن عروس، بشر به وهو في بطن أمّه، وهو الذي سماه بأبي راوي ويقال أنّ في ليلة ولادته أمطرت بلاده بالأمطار النافعة فسمي لذلك بأبي راوي.

أخذ الطريقة الشاذليّة عن أحمد بن عروس بمسجد الزيتونة ويذكر مترجموه أنه كان شديد المحافظة على صلاة الجماعة حتى تكاد لم تفارقه قط، وأما ورعه فقد بلغ فيه غاية لاتدرك وتشير المصادر التي ترجمت له أنه لم ينظر في وجه امرأة غير محرمه، كما كان من عاداته أن لايأكل من طعام اليهود، ولاينظر إليهم، ولايأكل إلا من عمل يده، ويتصدق بالباقي.

ومع كون الشيخ أميّا لايقرأ، ولايكتب فإنه كان يتكلم على معاني القرآن والسنّة بكلام نفيس تحيّر فيه العلماء، ومن قرأ «الأبريز» لعبد العزيز الدباغ الذي دونه تلميذه أحمد بن المبارك، أو «اليواقيت والدرر» للشيخ الخواص الذي جمعه عبد الوهاب الشعراني لايعجب من ذلك .أما كراماته وفراساته فلا تسأل عن ذلك.

مات سنة 931هـ بسوسة التونسيّة مخلفا وراءه في رئاسة الطريق خليفته أحمد أبا تليس (4) الذي خلفه فتح الله أبو راس(5) الذي كان كما يشير مترجموه يتكلم في اثني عشر علما وكان يفتي على مذهب الإمام مالك، وأبي حنيفة، وشغل مفتيا بالقيروان. خلفه في تربيته وإرشاده العلامة الكبير عبد الواحد الدكالي (6) الذي رزق خليفته الشيخ عبد السلام الأسمر (871هـ -981هـ) قبولا عظيما، وطبق صيته الآفاق، وهو مايدعونا للتوسع في ترجمته أكثر.

---

1 - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 65.

2 -ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 199.

3 -أنظر في ترجمته : أحمد حامد عبد الكريم الشريف، الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ص 62 - 64؛ محمد مخلوف، مواهب الرحيم، ص 234، 235.

4 - هو أحمد بن تليس، كان من السادات الأحرار والصلحاء الأخيار، مات بالقيروان أنظر في ترجمته : محمد مخلوف ، مواهب الرحيم، ص 234؛ أحمد عبد الكريم، الطبقات العروسيّة، ص 61، 62.

5 -أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، مواهب الرحيم، ص 323، 324؛ أحمد حامد عبد الكريم، الطبقات العروسية، ص 60، 61.

6 - هو الشيخ الصالح عبد الواحد الدكالي، مغربي الأصل، كان أوحد زمانه علما وعملا وحالا، أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، مواهب الرحيم، ص 321 - 323، أحمد حامد عبد الكريم الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ص 58، 59.

16 - عبد السلام بن سليم الأسمر(1) :

الشيخ العارف بالله عبد السلام الأسمر الهاشمي المولود سنة 871هـ ببزليتن تلقى العلم الشرعي بها في صغره كعادة المغاربة، ثم أخذ الطريقة العروسيّة الشاذليّة على يد الشيخ عبد الواحد الدوكالي المغربي وداوم على صحبته روحيًا وانتفع به كثيرا إلى أن تأهل للتربية والإرشاد وقدر الله أن انتشرت سلسلته وامتد اشعاعها إلى مصر وتونس ولايزال لها اتباع فيهما لحد الآن.

أخذ عنه جلّة من العلماء منهم : سالم السنهوري (2) (ت 1015هـ)، والإمام صالح بن مبارك الغيثي (3) (ت 989هـ)، والعالم الزاهد محمد بن عبد رب النبي الجبالي (4) (ت 998هـ)، وأبو حميدة ابن عبد الرحمن السقفي (5) (ت 999هـ) وأشهرهم العلامة الكبير الفقيه المحدث نزيل مكة كريم الدين البرموني (6) مؤلف «روضة الأزهار ومنبة السادات الأبرار» الذي اختصره ونقحه العلامة محمد مخلوف صاحب كتاب «شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية» أما خليفته الأجل فهو عمر بن محمد بن حمودة الطرابلسي(7) الذي استطاع أن ينشر الطريقة الفيتوريّة في الآفاق بعد وفاة مؤسسها.

وللشيخ عبد السلام الأسمر مؤلفات نذكر منها : 1 - «التحفة القدسيّة لمن أراد الطريقة العروسيّة». 2 - «النصيحة الكبرى المسماة نصيحة المريدين في الأولياء والصالحين»، 3 - «وأربع نصائح أخرى سماها نصائح التقريب». 4 - «الأنوار السنيّة لمن أراد الطريقة العروسيّة». توفي هذا الشيخ الجليل سنة 981 هـ ودفن بزاويته ببزليتن بليبيا.

---

1 - أنظر في ترجمته : أحمد حامد عبد الكريم، الطبقات العروسيّة الشاذليّة ومناقب القطب سيدي عبد السّلام الأسمر، ص 9 - 39، وأوفى ترجمة عن حياته هي التي كتبها محمد مخلوف، مواهب الرحيم في ترجمة عبد السلام بن سليم.

2 - أ نظر في ترجمته : أحمد حامد عبد الكريم، الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ص 78، 79.

3 - نفس المرجع، ص 80.

4 - نفس المرجع، ص 80، محمد مخلوف، مواهب الرحيم، ص 332، 333.

5 - نفس المرجع، ص 80، محمد مخلوف، مواهب الرحيم، ص 333.

6 - نفس المرجع، ص 90، 91؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 281.

7 - هو العارف بالله عمر بن محمد بن حمودة الطرابلسي المعروف بابن جحا ولد في محرم سنة 902 هـ وتوفي سنة 999هـ بالمنستير التونسيّة أنظر في ترجمته : أحمد حامد عبد الكريم، الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ص 79، محمد مخلوف، مواهب الرحيم، ص332.

17 - ابن عطاء الله السكندري : (1)

كان الخليفة الثاني في التربية والتسليك الباطني للشيخ أبي العباس المرسي العلامة ابن عطاء الله السكندري، وهو الذي استطاع أن ينشر الطريقة على النطاق العالمي الواسع.

مولده ونشأته:

هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عيسى بن الحسين ابن عطاء الله ويلقب بأبي الفضل تاج الدين.

ولد ابن عطاء الله في مدينة الإسكندرية سنة 658هـ في أسرة اشتهرت بالتفقه في الدين، فحفظ القرآن الكريم في صغره وسمع الحديث عن الأبرقوهي وقرأ النحو على الماروتي وشارك في الفقه، والأدب، وصحب أبا العباس المرسي بعد أن كان من أشد المنكرين عليه وداوم على الاتصال به روحيًا وانتفع بصحبته كثيرا.

مكانته العلميّة :

إنتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في الأزهر الشريف، كما كان المتكلم على لسان الصوفيّة في زمانه قال عنه اليافعي :«الشيخ الكبير العارف بالله الخبير، إمام الفريقين وموضح الطريقتين، ودليل الطريقة، ولسان الحقيقة، ركن الشريعة المطهرة، تاج الدين بن عطاء الله»(2).

وقال عنه الإمام الذهبي «كانت له خلال عجيبة، ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل، ثم قال ورأيت الشيخ تاج الدين الفارقي لما رجع من مصر معظما لوعظه، وإشارته كان يتكلم بالجامع الأزهر يمزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم»(3)

لذلك تهافت النّاس عليه تهافت الفراش على النّور، وأقبلوا عليه من كل حدب وصوب، حتى صار علما مفردا في الديار المصريّة، فطبق صيته الآفاق، ورزق من

---

1 - أنظر في ترجمته: ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص 19، 20؛ اليافعي اليمني مرآة الجنان، ج4، ص 246، 247، عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 19، محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، ج1، ص 204، الشوكاني، البدر الطالع ج1، ص 107، 108؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 421؛ ابن فرحون ،الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب ، ط1، القاهرة : مكتبة شقرون 1359هـ، ص 70، 71؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص 213؛ البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص 103.

2 - اليافعي اليمني، مرآة الجنان، ج4، ص 246، 247.

3 - نقلا عن الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج1، ص 107.

حسن القبول مالم يرزق أحد من مشائخ عصره، فتضوعت بروحانيته وطهارة أنفاسه مصر ولاسيّما القاهرة منها ويعد ابن عطاء الله بحق أحد أعمدة المدرسة الشاذليّة الكبار، بل يعتبر واضعها في صورتها الكاملة بعد أن قام الشاذلي والمرسي بدور التأسيس.

والواقع أن ابن عطاء الله هو الموسع الحقيقي لنطاق المدرسة الشاذليّة والجامع لكلام الشاذلي والمرسي، فحفظ لنا بذلك تراث الطريقة الشاذليّة من الضياع وإلى جانب ذلك يعتبر المنظّر الحقيقي لفكر المدرسة الشاذليّة بحيث صيّر لها مذهبا كاملا في التربية والتهذيب.ولمؤلفات ابن عطاء الله قيمتها الخاصة عند الصوفيّة عامة خصوصا حكمه، ومن تأملها عرف مكانته، ولعل أبرز ماأضافه ابن عطاء الله للمدرسة الشاذليّة ،بل للتصوف تعميقه للمبدأ الذي بنت عليه المدرسة ممارستها التحقيقيّة - نعني به القول بإسقاط التدبير - حيث لم يكتف ابن عطاء الله بتلك الشذرات التي نقلت عن هذين الإمامين حتّى أفرد له رسالة كاملة سماها «التنوير في إسقاط التدبير».

مؤلفاته :

ترك ابن عطاء الله العديد من المؤلفات نذكر منها :

1 - «الحكم»، 2 - «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، 3 - «القصد المجرد». 4 - «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح»؛ 5 -« المرقى إلى القدس الأبقى»، 6 - «لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه أبي الحسن»، 7 - «التنوير في إسقاط التدبير»، 8 - «مختصر تهذيب المدونة.»(1).

وأكثر كتبه شهرة وأهميّة في الإبانة عن مذهبه هما :«التنوير في إسقاط التدبير»، و«الحكم العطائية» التي حظيت بقبول كبير في أواسط العلماء فتلقوها بالشرح والتعليق كما ترجمت إلى عدة لغات أجنبيّة شرقيّة وغربيّة. وكتبه كلها -رحمه الله -مشتملة على أسرار، ومعارف، وحكم ولطائف نثرا ونظما وهي في غاية الجمال والجودة.(2)

وفي يوم 16 جمادى الأولى من سنة 709 هـ انتقل ابن عطاء الله إلى جوار ربّه (3) مخلفا وراءه كثيرا من العلماء والمريدين.

---

1 - د. جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية، ص 222.

2 - د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص 700.

3 - نفس المرجع و الصفحة.

مشاهير خلفائه :

18 - تقي الدين السّبكي (1) :

هو شيخ الإسلام أبو الحسن علي ولد سنة 683هـ، أخذ العلم في القاهرة على يد جماعة من العلماء وسلك طريق الإرادة على يد ابن عطاء الله (2) اشتغل بالتدريس، والإفادة طيلة حياته وولي الإفتاء، والقضاء بالقاهرة ودمشق، كما أسندت إليه مهمة الخطابة بالمسجد الأموي، توفي سنة 756 هـ .وله أكثر من 150 مصنفا وهو والد تاج الدين السبكي مؤلف «طبقات الشافعية.»

19 - داود بن عمر الإسكندراني (3):

هو داود بن عمر بن إبراهيم الشاذلي المالكي الصوفي توفي بالإسكندرية سنة 732هـ .له عدة مؤلفات نذكر منها :

1 - «إيضاح السالك على المشهور من مذهب مالك».2 - «الرسالة المرضية في شرح دعاء الشاذليّة.»3 - «شرح مختصر التلقين »في الفروع للقاضي عبد الوهاب.

وإذا كان هذان العالمان قد عرفا بالعلم، ولم يشتهرا بالتربية فإن خليفتيه أحمد بن الميلق، وداود بن باخلا قد تألقت بهما المدرسة الشاذليّة وازدادت بهاء ونورا.

20 - أحمد بن الميلق(4) :

فهو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الميلق، نبغ أحد أحفاده في فن التربية، واشتهر ذكره في الآفاق، وهو الشيخ ناصر الدين(5) المعروف بابن بنت الميلق الذي تولى مهمة التربية و الإرشاد بعد وفاة جده لأمه، وعمل وسعه من أجل تدعيم صلة الكثيرين بالله، وتقوية إيمانهم إلى أن توفي سنة 797هـ ،مخلفا ورا ه الإمامين الجليلين «شمس الدين الحنفي»، و«علي بن عمر بن إبراهيم القرشي» اليمني اللذين رزقا قبولا عظيما في عصرهما.

---

1 - أنظر في ترجمته : دائرة المعارف الإسلاميّة، ج11، ص 260؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص 181.

2 - التعريف بأبي الحسن الشاذلي، مخطوط لمؤلف مجهول، لدى الباحث نسخة منه.

3 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 204.

4 - لم نقف بعد على ترجمة مفصلة له في الكتب التي بين أيدينا من كتب التراجم إلا أن صاحب كتاب التعريف بأبي الحسن الشاذلي وصفه بالمحقق الأصولي، صاحب المناقب والكرامات، ونعتقد أنه توفي في منتصف القرن الثامن الهجري.

5 - أنظر في ترجمته، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 351؛ يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج2، ص 124.

21 - علي بن ابراهيم القرشي(1) :

هو الشيخ أبو الحسن علي بن عمر بن ابراهيم القرشي، الذي كان له الفضل الأكبر في نشر الطريقة الشاذليّة باليمن، وبث علومها، حتى غدت في تلك الديار أشهر من نار على علم بما حباه الله من مواهب، وظفها في الدعوة إلى الله، وتزكيّة الأنفس، وإصلاح القلوب، والوصول بالكثير إلى مقام الإحسان وتعليم سبلها، وتربية الرجال الصادقين.

تلقى هذا الشيخ علومه الأولى في اليمن، حيث درس العلوم الشرعيّة وأتقنها لكن همته أبت عليه أن يقنع بذلك، فشدّ الرحال إلى الحجاز والشام ومصر بحثا عن مرشد روحي يعرفه الطريق إلى الله ليسلكها فلقي في رحلته هذه الكثير من العلماء وأرباب السلوك، لكنّه آثر أن يصحب ناصر الدين بن بنت الميلق فداوم على الاتصال به روحيًا فانتفع به كثيرا وفتح الله له على يديه. ولما كمل تهذيبه الباطني رحل إلى الحبشة فوقعت له واقعات كثيرة فيها أوجبت اعتقاده. فصحبه هناك جمع كثير .

و تشير بعض المصادر التاريخيّة(2) أن سلطانها سعد الدين المجاهد، حسن اعتقاده فيه وصحبه، لكن شوقه إلى بلاده دفعه أن يفكر في العودة إليها فعاد ليستقر بالمخا، فكثر اتباعه، وأحيا الله به قلوبا ميتة نفخ فيها جمرة الحب، والحنين والشوق إلى الله،

وبقي في جهاده هذا إلى أن توفي عام 821هـ مخلفا وراءه ذريّة صالحة حملوا دعوته، وساروا على هديه نفع الله بهم كثيرا من الخلق تابوا على أيديهم، وصلحت أحوالهم ببركتهم،.

22 - شمس الدين الحنفي (3) :

هو الشيخ العارف الولي الكبير محمد بن الحسن الحنفي المعروف بشمس الدين أحد كبار مشائخ الشاذليّة يقال أن أبا الحسن الشاذلي بشّر به أصحابه في رؤية رآها.(4)

---

1 - أنظر في ترجمته : أبو العباس أحمد بن أحمد الزبيدي، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ط1، اليمن : الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ص 233.

2 - نفس المرجع، ص 233.

3 - أنظر في ترجمته : عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2. ص 281.

4 -ابن عباد ،المفاخر العليّة وص21 .

ولد شمس الدين سنة 775 هـ . وأخذ الطريقة عن ناصرالدين بن بنت الميلق ولازمه سبعة سنين فانتفع بصحبته كثيرا.

أخذ عنه كثير من العلماء والصلحاء اعترفوا بفضله وأقروا بمكانته، وتذكر المصادر التي ترجمت له أن شيخ المالكية البساطي(1) والعيني(2) الحنفي، كانوا يحضرون مجالس وعظه ويستفيدون منه فوائد في العلم والتزكية.

قال عنه الشعراني : «هو أحد أركان هذا الطريق، وصدور أوتادها وأكابر أئمتها، وأعيان علمائها علما ،وحالا ،وقالا ، وزهدا ، وتحقيقا. ومهابة» (3)

ويذكر الشعراني أنه كان مهيب الجانب، تخشى الملوك صولته، بلغ من تعظيم لطريق التصوف الغاية، حتى أنه لأجل ذلك كان لايقوم لأحد من الملوك ،ولا الأمراء، ولامن القضاة الأربع إعزازا لها(4).

جمع رحمه الله بين التدريس والتسليك، وترك عدة مؤلفات نذكر منها :

1 - «الروض النشيق في علم الطريق».

2 -« ديوان من الشعر»

كما خلف جماعة من أعلام الرجال نخص منهم ثلاثة :

- أبو مدين الأشموني من ذريّة الولي الصالح شعيب أبي مدين.

- شمس الدين كتيلة المحلّي.

- أبو العباس السرسي خليفته من بعده في مشيخة الطريق.

توفي رحمه الله سنة 847هـ ودفن بالقاهرة ويشير الشعراني أن المؤرخ البتنوني ألف كتابا في مناقبه وكراماته (5).

---

1 - هو شمس الدين محمد البساطي المالكي، تولى القضاء في الديار المصريّة، توفي عام 842هـ أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 245. محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 241، 242.

2 - هو بدر الدين العيني، شيخ الحنفيّة في وقته توفي سنة 855هـ أنظر في ترجمته : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 286.

3 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 81.

4 - نفس المرجع، ج2، ص 85.

5 - نفس المرجع ، ج2، ص 92.

23 - أبو العباس السرسي(1) :

الشيخ العلامة أحمد بن محمد بن عبد الغني السّرسي الحنفي، قال عنه المناوي كان من أفراد الصلحاء المسلكين بالقاهرة ، عالي الرتبة جدا... تفقه على المذاهب الأربعة وله كرامات ومكاشفات» (2) أجل من أخذ عنه الطريق العارف بالله محمد المغربي.

توفي سنة 861هـ بالقاهرة ودفن بالقرافة على نحو ثمانين سنة.

24 - محمد المغربي (3) :

الشيخ الدال على الله العالم الزاهد المربّي، كان الغالب عليه الاستغراق في ذكر الله، قليل الكلام في حقائق التصوف، كريم النّفس يعطي السائل الألف كأنه لم يعطه شيئا ويذكر مترجموه أنه لما دخل عليه السلطان قايتباي يزوره ورسم له بألف دينار فردّها عليه ولما طلب منه تفريقها على المحبين قال له : « من تعب في تحصيلها هو أولى بتفرقتها » (4)

ومن أقواله : «السالكون ثلاثة : جلالي وهو إلى الشريعة أميل، وجمالي وهو إلى الحقيقة أميل، وكما لي جامع لهما، على حد سواء، وهو منهما أكمل وأفضل»(5).

مات سنة 911 هـ بمنزله بقنطرة سنقر ودفن قريبا من باب القرافة. من تلاميذه إبراهيم المواهبي الذي أكمل تربيته الصوفية عند محمد بن أحمد المعروف بأبي المواهب التونسي الذي ستأتي ترجمته بعد قليل، والشيخ عبد الوهاب الشعراني(6).

---

1 - أنظر في ترجمته : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص 297، 298.

2 - نقلا عن ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 297.

3 - أنظر في ترجمته : نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 78، 79، عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 115.

4 - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 79.

5 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 115.

6 - نفس المرجع ، ج2، ص 117.

25 – عبد الوهاب الشعراني : (1)

هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي الشعراني ويقال أيضا الشعراوي ولد سنة 898هـ، أخذ عن الجلّة من العلماء كجلال الدين السيوطي وزكريا الأنصاري، وناصر الدين اللّقاني وأخذ الطريقة الصوفيّة على مشاهير المربين كعلي الخوّاص، وعلى المرصفي، وإبراهيم المتبولي، ومحمد الشناوي ومحمد المغربي اشتهر عبد الوهاب الشعراني بغزارة الإنتاج، إذ ألف عدة كتب نذكر منها : 1 - «الطبقات الكبرى»، 2 - «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»، 3 - «تنبيه المغترين»، 4 - «لطائف المنن» وهو عبارة عن ترجمة ذاتية له، 5 - «الجواهر والدرر»، 6 - «لوائح الأنوار القدسيّة»، 8 - «كشف الغمة عن جميع الأمّة». 9 - «درر الغوّاص على فتاوي سيد على الخوّاص»، 10 - «الأخلاق المتبوليّة».

وبالجملة فقد كان رحمه الله آية من آيات الله في العلم والتصوف توفي رحمه الله سنة 973هـ تقريبا بالقاهرة.

26 - دواد بن باخلا (2) :

الشيخ العارف بالله داود بن عمر الكهاري الإسكندري، المالكي صحب تاج الدين بن عطاء الله وانتفع به كثيرا، حتى وصل إلى مقام عال في التصوف، استأهل به أن يكون من المجددين في المدرسة الشاذليّة أخذ عنه خلق كثير لايحصون إلا أن أجل من أخذ عنه الطريق هو الشيخ محمد وفا صاحب كتاب «عيون الحقائق» (3) ومع كون الشيخ داود أميًا فإنه ترك لنا شرحا على «حزب البحر» للشاذلي توفي رحمه الله سنة 733هـ(4).

27 – محمد وفا : (5)

الشيخ العارف بالله والدال عليه، محمد وفا، ولد سنة 702 هـ بالإسكندرية ونشأ بها ثم أخذ الطريقة الشاذليّة عن الشيخ داود بن باخلا المتقدم الذكر، وداوم

---

1 - البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص 641، 642، الزركلي، الأعلام، ج4، ص 180، 181؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج6، ص 218؛ نجم الدين الغزي الكواكب السائرة، ج3، ص 176، 177؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص 372 - 374.

2 - أنظر في ترجمته : ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 517، 518؛ يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج2، ص66، محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 204.

3 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 204.

4 - علي سالم عمّار، أبو الحسن الشاذلي، ج1، ص 20.

5 - أنظر في ترجمته : ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص 206، عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 19، 20؛ الزركلي، الأعلام، ج7، ص 37، 38.

على صحبته روحيًا فانتفع به كثيرا، إلى أن كمل تهذيبه الباطني أذن له الشيخ داود بالتربية والإرشاد عندئذ رحل إلى أخميم وتزوج هناك، فكثر اتباعه بعدها انتقل إلى القاهرة، فحصل له قبول عظيم حتى أذعن له الوجهاء وأعيان الدولة، ولم يزل أمره يشتهر وذكره ينتشر مع جميل الطريقة وحسن السيرة إلى أن توفي عام 765هـ.(1) تاركا وراءه عدة مؤلفات منها :

1 - «ترجمان الأشواق وروضة العشاق»،

2 - «ديوان من الشعر».

3 -« شعائر العرفان في ألواح الكتمان»

4 - « عيون الحقائق».

5 - «تأصيل الزمان وتفضيل الأكوان»(2)

ولما توفي رحمه الله خلفه في الدعوة والإرشاد ابنه علي الذي استضاءت به ربوع مصر وأنحائها

28- علي وفا (3) :

العارف بالله ابن الشيخ محمد وفا وخليفته من بعده في مشيخه الطريق. ولد عام 759 هـ ويستفاد من قول الشعراني : « أنه كان شيخا جليل القدر عديم النظير أعطي لسان الفرق والتفصيل زيادة على الجمع»(4)

كان رحمه شديد التأنق في ملبسه ومأكله حتى أن بعض الوزراء قد أنكروا عليه بسبب ذلك.له تآليف عدة منها :

1 - «تفسير للقرآن».

2 - «الباعث على الخلاص في أقوال الخواص» .

3 -« الكوثر المترع في الأبحر الأربع في الفقه».

4 -«وديوان من الشعر»(5)

---

1 - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 206.

2 - عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج11، ص 279. البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص 161.

3 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 72-70؛ يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج2، ص 258، 259؛ عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص21؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 240.

4 - عبد الوهاب الشعراني، ج2، ص 21.

5 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 71.

توفي عام 807هـ. مخلفا وراءه في مشيخة الطريق شقيقه أحمد (ت 812هـ)(1)، الذي رزقه الله بأبناء بررة ساروا على نهجه لاسيما ابنه أبو الفتح محمد (ت 852هـ) (2) الذي خلفه من بعده في التربية والإرشاد شقيقه يحي المعروف بأبي السعادات.(3)

أما الخليفة الثاني لعلي وفا فهو يحي الشريف القادري (4) كما تثبت ذلك جميع سلاسل الطرق التي تنسب للشيخ زروق. ولعل أشهر من أخذ عن الشريف القادري علامة اليمن أحمد بن عقبة الحضرمي نزيل القاهرة المتوفى سنة 895هـ(5) الذي عمر مصر وأنارها بروحانيته، وباتباعه للشريعة المطهرة، وخلفه في مشيخة الطريق أحمد زروق الفاسي الذي لو لم يربّ غيره لكفى في التعريف به وبمأثرته التربوية كيف لا وهو الرجل الذي أحيا الله به «المدرسة الشاذليّة» في بلاد المغرب العربي بعد أن كادت تندرس ولاعجب إن وجدت سلاسل الطريقة الشاذليّة تقريبا في شمال أفريقيا تنسب له وترجع إليه.

29 - يحي وفا : (6)

هو يحي أحمد بن محمد المدعو وفا الفاضل المعتقد أبو السعادات بن شهاب أحمد السكندري، ولد سنة 798 هـ، وجلس بعد موت أخيه أبي الفتح محمد في سنة 852هـ، فنفع به خلقا لايحصون استفادوا منه فوائد في العلم والتزكية، ورزق القبول التام غير أنه لم تطل مدته، بل توفي في يوم الأربعاء سنة 875 هـ. ودفن بالقرافة وأجل من أخذ عنه الطريق العارف بالله محمد بن أحمد المعروف بأبي المواه التونسي،

30 – أبو المواهب التونسي (7):

هو الشيخ الكبير الإمام المدقق محمد بن أحمد المعروف بأبي المواهب أحد ك مشائخ الشاذليّة في عصره ولد بتونس سنة 820هـ ثم ارتحل إلى مصر ليتولى ف

---

1 -ابن العماد ، شذرات الذهب، ج7، ص 96، 97.

2 - السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص 221.

3 - نفس المرجع، والصفحة.

4 - لم نقف على ترجمته في المراجع المتوفرة بين أيدينا.

5 - راجع السخاوي، نفس المرجع، ج2، ص 5.

6 - أنظر في ترجمته : نفس المرجع . ج10، ص 221.

7 - أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 257. 258.؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 335. 336؛ نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 30.

رواق المغاربة بالأزهر الشريف، ذكره الشعراني في طبقاته وأثنى عليه الثناء الحسن وقال عنه : «كان من الظرفاء الأجلاء الأخيار، والعلماء الراسخين الأبرار» (1).

وللشيخ أبي المواهب كلام نفيس في التصوف ذكر الشعراني بعضه في كتابه «الطبقات» كما أورد بعضا من إجاباته التي حل فيها ما أشكل من كلام بعض أرباب الصوفية. ومن كلامه الدال على عظم مكانته قوله : «لاتطلب الأكوان فإنها ماخلقت بالإصالة إلا لك، وأنت خلقت لربك، فإن طلبت ماخلق لك وتركت ما أنت مطلوب له انعكس بك السير، وإن أقبلت على ربك طلبتك الأكوان بنفسها وخدمت كل شيء» (2)

ومن ذلك قوله : «أعلى زهد الرجل في المقامات العلية والأحوال السنية» (3).

وللشيخ عدة مؤلفات نذكر منها :« قوانين حكم الإشراق »،«شرح على حكم ابن عطاء الله»، «السلاح الوفائية بثغر الإسكندرية»،« قرع الأسماع برخص السماع»، «بغية السؤال على مراتب الكمال»، «معارف الوصول إلى حكم الرسول» - صلى الله عليه وسلم -، وديوانا من الشعر سماه «مواهب المعارف» (4).

خلف وراءه بعد موته عددا من الأعلام نخص منهم :

أحمد المغربي، وإبراهيم المواهبي،

مات سنة 901 بالقاهرة ودفن بها (5).

31 - أحمد المغربي(6):

هو العالم الناصح شهاب الدين أبو العباس المغربي القسطنطيني ثم القاهري أحد جماعة الشيخ أبي المواهب وخلفه بعده في التصدر للتربية والإرشاد توفي ليلة الأحد سنة 918هـ بالقاهرة.

---

1 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص62.

2 - نفس المرجع، ج2، ص 64.

3- نفس المرجع، ج2، ص 71.

4- البغدادي، إيضاح المكنون، ج2، ص 244، وأنظر أيضا البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص 209.

5 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 10.

6 - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 151.

32 - إبراهيم الشاذلي : (1)

هو إبراهيم بن محمود بن أحمد المواهبي، سلك الطريقة الشاذليّة على الشيخ محمد المغربي أولا ثم على الشيخ أبي المواهب ثانيا غير أنه نسب إلى الأخير.

كان رحمه الله ينفق نفقة الملوك ويلبس ملابسهم، ألف عدة كتب منها :

1 - «إحكام الحكم في شرح الحكم» لابن عطاء الله، 2 -« التفريد بضوابط قواعد التوحيد»، 3 - «ديوان شعر»، 4 -« شرح الرسالة السنوسيّة». توفي رحمه الله سنة 914هـ بالقاهرة (2) وكان الشيخ أبو بكر العيدروسي من أجلّة خلفائه.

33 - أبو بكر العيدروسي : (3)

الشيخ الكبير، والولي الشهير أبو بكر بن عبد الله العيدروسي ولد بتريم قرية في حضر موت سنة 851هـ. قرأ العلم على عمّه الشيخ علي، وعلى الفقيه أحمد بافضل، وأخذ الطريقة الشاذليّة على إبراهيم الشاذلي وانتفع بصحبته كثيرا.

وتشير المصادر التي ترجمت له أنه بلغ في التصوف درجة عالية لم يصل إليها أحد في زمانه.

كان - رحمه الله - شديد التمسك بالكتاب والسنّة، مع الجد والإجتهاد والمثابرة إلى أن توفي رحمه الله ولم يخلفه بعده مثله ترك كتابا سماه «الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف» وديوانا من الشعر وثلاثة أوراد.

ونحب أن نشير أن الشيخ جمال الدين بحرق الحضرمي ألف كتابا في مناقبه وكراماته سماه : «مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس». توفي هذا الشيخ يوم الثلاثاء 14 شوال سنة 914هـ.

34 - أحمد زروق : (4) :

العالم الكبير والولي الشهير الشيخ أحمد زروق البرنسي المولود سنة 846هـ وهو أحد كبار مشائخ الشاذلية.

---

1 - أنظر في ترجمته : نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 110، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص62، حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص 426 خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص 73.

2 - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 110.

3 - محيي الدين عبد القادر، تاريخ النور السافر، (ط. خالية من كل بيان)، ص 81، 90، نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 113، 114، ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 62، 64.

4 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 267، 268، الزركلي، الأعلام، ج1، ص 91، كحالة، معجم المؤلفين، ج1، ص 155. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 363، 364. السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص 222.

أخذ علومه الشرعيّة عن جلّة من العلماء منهم عبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ)، والسنوسي (ت 895هـ)، والرصّاع (ت 894هـ)، وشمس الدين محمد السخاوي (ت 913هـ) وأخذ الطريقة الشاذليّة على يد الشيخ أحمد بن عقيبة الحضرمي (ت 895هـ).

طاف بلادا كثيرة من العالم الإسلامي منها : المغرب والجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، الحجاز، واستقر به المقام في مصراته الليبية.

جمع رحمه الله بين التدريس والتسليك بحيث يتعذر نظيره في الصوفيّة المتأخرين. كما انتهت إليه رئاسة العلم الشرعي والتصوف في زمانه في بلاد المغرب العربي.

بلغ هذا الشيخ من اتباع السنّة ومجانبة البدعة درجة عظيمة، وألف عدة كتب في التشنيع على المبتدعين من مؤلفاته :

1 - «تعليق على صحيح البخاري»، 2 - تسعة وعشرون شرحا على«الحكم العطائية»،3 - «شرح على الحزب الكبير»، 4 - «شرح على حزب البحر»، 5 - «شرح على رسالة أبي زيد القيرواني»، 6 - «قواعد التصوف»، 7 -« شرح على نونيّة الششتري»، 8 - «أصول الطريقة»، 9 - «الإنابة »أو كتاب التوبة، 10 - «العمدة» ،11 - «النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية» ،12 -« شرح الوغلبسيّة، 13 - «شرح على القرطبية» ،14 -« شرح على دلائل الخيرات» وغيرها من الكتب النافعة التي تشهد لمؤلفها بغزارة العلم، وعظم القدر وهي مليئة بالنكت اللطيفة والتحقيقات التي لايوفق لها ولايخص بها إلا الفحول عبر القرون والأجيال.(1)

أخذ عنه خلق كثير تقاطروا عليه من كل حدب وصوب، وخلفه في الدعوة والإرشاد أعلام من مشاهير المربين نذكر منهم شمس الدين اللقاني (ت 935هـ) وأبا عبد الله الخروبي 963 هـ والمربي الكبير أحمد بن يوسف الملياني (931هـ) والمربي إبراهيم أقحام وبالجملة فقدره فوق مايذكر، وهو آخر أئمة الصوفيّة المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة.

توفي هذا الشيخ سنة 899 هـ بمصراته بليبيا ودفن بها، وأقيم على ضريحه مسجد كبير يحمل اسمه.

---

1 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 267.

35 - محمد بن علي الخروبي (1) :

ومن مشاهير العلماء الذين استفادوا من الشيخ زروق فوائد في العلم والتزكية محمد بن علي الخروبي.

حاز هذا العالم شهرة كبيرة بمؤلفاته في التصوف وآداب الطريقة الشاذليّة خاصة، حيث ظلّت شروحه على «الحكم العطائية»، و«الصلاة المشيشيّة» مرجعا للمنتسبين لهذه المدرسة فترة طويلة واستطاع بقلمه السيّال وخطبه البليغة أن ينشر مبادىء الطريقة الشاذليّة في الجزائر بشكل لم يحصل من قبل. توفي هذا الشيخ بالجزائر عام 963هـ.

36 - شمس الدين اللّقاني (2) :

أبو عبد الله محمد بن حسن اللّقاني الحافظ للمذهب المحقق له مكاشفات كثيرة، أخذ عن الشيخ أحمد زروق ولازمه وانتفع به كثيرا. أخذ عنه من لايعد كثرة من العلماء وتزاحموا عليه، وعم النفع به في الفتوى وغيرها توفي سنة (935هـ).

37 - أحمد بن يوسف الملياني : (3)

الشيخ الكبير والولي الشهير أحمد بن يوسف الملياني (836هـ - 931هـ) حفظ القرآن الكريم في صغره، كما تلقى العلوم الشرعيّة على عدد من المشائخ، ثم انتقل بعدها إلى بجاية ليلتقى فيها بالشيخ أحمد زروق ويتم عنده تحصيل العلوم الشرعيّة، كما أخذ عنه الطريقة الشاذليّة وهو من أجلّ من أخذ عنه الطريقة وخلفه في التربية والإرشاد. انتشرت طريقة أحمد بن يوسف في الجزائر أثناء حياته، وامتد نفوذها حتى المغرب الأقصى. فأخذ عنه خلق كثير استفادوا منه حظا وافرا من العلم والمعرفة.

---

1 - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، بيروت : مؤسسة الرسالة 1982م، ج2، ص 450 - 489؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 284.

2 - أنظر في ترجمته: محمد مخلوف ، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 271؛ أحمد حامد عبد الكريم، الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ص 76.

3 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 502 - 504، محمد صادق، ملياتة ولّيها سيدي أحمد بن يوسف، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية 1989م. أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص 103 - 106.

وللشيخ أحمد بن يوسف مواقف سياسيّة تعرض بسببها هو وأتباعه للاضطهاد سواء من طرف سلطان فاس «عبد الله الغالب»، أو سلطان تلمسان «عبد الله الثابتي» الذي حكم على الشيخ بالإعدام لكن عناية الله حالت دون وقوعه(1).

لم يترك الشيخ كتبا اقتداء بالشيخ أبي الحسن الشاذلي و خليفته أبي العباس المرسي لكن تنسب إليه مجموعة حكم منها قوله : « خديم الدنيا أسير ، وخديم الآخرة أجير، وخديم الحق أمير »(2)

وقال أيضا : «الحق لايخفى إلا على من عميت بصيرته، وخسرت سريرته، وأضمحلت خليقته» (3)

ألفت عدة كتب في مناقبه منها كتاب تلميذه محمد الصباغ القلعي المسمى «بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار»(4) ولما توفي خلفه في التربية والإرشاد أعلام منهم :

1 - أبو الحسن علي بن القاسم الغازي، 2 - محمد بن عبد الرحمن السهيلي، 3 - أبو الحسن علي بن عبد الله الفيلالي، 4 - أحمد بن موسى الحسني، 5 - عبد الله بن حسين الرّقي. (5) وكان لهؤلاء الربانيين أصحاب ومريدون أخذوا عنهم.

38 - محمد بن عبد الرحمن السهيلي (6)

ومن تلاميذ أحمد يوسف المشهورين محمد بن عبد الرحمن السهيلي الذي استقر بعد الدراسة عند أحمد بن يوسف، ثم بجبل السهول في «تافيلالت» حوالي سنة 936هـ، حيث بنى زاويته هناك واستطاع بحذقه أن يؤسس طريقة جانبية عرفت باسم السهيليّة.(7)

---

1 - محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص 102.

2 - نفس المرجع، ص 88.

3 - نفس المرجع، ص 85.

4 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 502.

5 - محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص 97. 98.

6 - نفس المرجع، ص 97.

7 - نفس المرجع والصفحة

39 - أحمد بن موسى الحسني (1) :

العارف بالله أحمد بن موسى الحسني ولد سنة 907 هـ وطلب العلم الشرعي في صغره في مسقط رأسه، ثم أخذ الطريقة الشاذليّة على يد الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، ولما كمل تهذيبه الباطني تفرغ للتربية والإفادة «بكرزاز» في الجنوب الغربي من «فيجيج» على رأس «الطريقة الكرزازيّة» التي كان لها انتشار واسع في بلاد قورارة. كانت وفاته سنة 1016هـ - رحمه الله - تعالى.

40 - محمد بن ناصر الدرعي (2) :

وقدر الله عز وجلّ أن تنتشر طريقة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، بالشيخ محمد بن ناصر الدرعي (1015 هـ - 1085هـ) الذي يعتبر أحد كبار المجددين في الطريقة الشاذلية.

أخذ التصوف عن الشيخ أبي عبد الله بن حسين الرّقي، الذي أخذ عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني (3).

استطاع هذا الشيخ بحذقه في علوم القوم، أن يجمع حوله مجموعة كبيرة من المريدين كانوا كالشامة بين النّاس شهد لهم بذلك معاصروهم كالشيخ محمد بن المؤقت صاحب «الرحلة المراكشيّة» المعروف بمواقفه ضد أهل الأهواء والبدع حيث قال عن اتباعه : «بأنهم أبعد الطوائف عن البدع»(4)

رزق هذا الشيخ قبولا عظيما، وصيتا بعيد الأثر في حياته حيث انتشرت طريقته في الآفاق، ولما توفي خلفه في التربية والإرشاد ابنه أحمد (5) الوارث لسره والخليفة بعده، كما تخرج على يديه أعلام كالشيخ اليوسي، والشيخ النوري الصفاقسي، والشيخ أبي سالم العيّاشي الفقيه المشهور(6).

وبقيت هذه الطريقة في تجدد إلى آخر مربّ فيها وهو الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام بن ناصر الدرعي المتوفى سنة 1239هـ(7).

---

1 -محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص 98.

2 - أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة الزكيّة، ج1، ص 813. محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيّدي أحمد بن يوسف، ص 97.

3 - راجع أبو عبد الله الطالب الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق إبراهيم الكتاني بالإشتراك مع محمد حجي، بيروت : دار الغرب الإسلامي. 1981م، ص 206.

4 - محمد بن المؤقت، الرحلة المراكشيّة، ط1، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1351هـ، ج1، ص 152.

5 - أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 332.

6 - نفس المرجع، ج1، ص 313.

7 - محمد حاج صادق. مليانة ووليها سيّدي أحمد بن يوسف، ص 97.

41 - إبراهيم أفحام (1) :

وكان من خلفاء الشيخ أحمد زروق ، في التربية والإفاضة، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم المعروف بأفحام الزرهوني الذي يستفاد من أقوال مترجميه بأنه كان شيخا قوي الجذب وصاحب صلة قوية بالرسول - صلّى الله عليه وسلّم- (2) .كان من خلفائه الشيخ علي الصنهاجي الذي لم يعرف عن الشيخ إبراهيم سواه ويشير مترجموه بأنه كان عظيم الجذب، قوي الغيبة في التوحيد ولم يتصف بذلك غيره (3)

خلفه في الدعوة والإرشاد الشيخ عبد الرحمن بن عياد الدكالي الشهير بالمجذوب،(ت 976هـ) (4) الذي خلفه العلاّمة العارف أبو المحاسن يوسف الفاسي الذي رزق قبولا عظيما، وطبق صيته الآفاق وأحيا الله به «الطريقة الشاذليّة» بعد أن كادت تندرس في بلاد المغرب.

42 - أبو المحاسن يوسف الفاسي (5)

هو العلاّمة العارف بالله يوسف بن محمد القصري الفاسي، ولد ونشأ في القصر الكبير وانتقل إلى مواطن أسلافه (فاس) واشتهر بعلوم العربيّة والفقه.

أخذ الطريقة الشاذليّة على يد الشيخ عبد الرحمن المجذوب. مما زاد ذلك في شهرته. كان رحمه الله من العلماء الراسخين، والمشائخ المربين الكبار، الذين تضوعت بحرارة أنفاسهم بلاد المغرب من أقواله : «ليس الطريق بكثرة القيل والقال، ولابكثرة الأعمال، وإنما هي فراغ القلب مما سوى الربّ».

وقال أيضا :«من انزرعت محبّة الله في قلبه، لم يتتبع عورات النّاس».

خلف هذا الشيخ آلاف المريدين، غير أن أجل خلفائه شقيقه عبد الرحمن الفاسي الذي خلفه في سجادة الإرشاد. وابنه محمد العربي الذي ألف كتابا في مناقبه سماه « مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن» توفي رحمه الله تعالى سنة 1013هـ.

---

1 - أبو محمد عبد السلام بن الطيّب القادري، المقصد الأحمر في التعريف بسيّدنا عبد الله أحمد، الطبعة الحجريّة المغربيّة، ص 299.

2 - نفس المرجع، ص 291.

3 - نفس المرجع والصفحة.

4 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 284، 285.

5 - أنظر في ترجمته : الزركلي، الأعلام، ج8، ص 252، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 295، 296، أبو عبد الله الطالب محمد البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص 218، 219.

43 - عبد الرحمن بن محمد الفاسي (1) :

هو الإمام الشهير العالم الكبير ولد سنة 973 هـ بالقصر الكبير ثم انتقل إلى فاس مع أخيه لأبيه أبي المحاسن يوسف الفاسي.

أخذ في طلب العلم وتحصيله عن جلّة علماء تلك المنطقة ومهز في جميع العلوم العقليّة والنقليّة، خصوصا علم الحديث والتفسير. تلقى تربيته الروحيّة على يد شقيقه أبي المحاسن. ثم تصدر للمشيخة بعد وفاته سنة 1013هـ.

مات يوم الثلاثاء في شهر ربيع الأول عام 1036م.

44 - محمد بن عبد الله معن (2) :

العارف الكامل والمربي الواصل محمد بن عبد الله معن ولد سنة 978هـ، تلقى تهذيبه الباطني على يد الشيخ أبي المحاسن أولا ثم أكمل تربيته على يد شقيقه عبد الرحمن الفاسي، الذي أذن له في تربية المريدين وتهذيب السالكين.

أخذ عنه خلائق لايحصون استفادوا منه فوائد في العلم والتزكية منهم الشيخ قاسم الخصاصي وهو خليفته بعده، وابنه الشيخ أحمد.

مات سنة 1062هـ.

45 - قاسم الخصاصي : (3)

العارف بالله والدال عليه بحالة ومقاله السيّد الخصاصي أصله من الأندلس ولد سنة 1002 هـ صحب في طريق الله أولا الشيخ عبد الرحمن الفاسي ولما توفي سنة 1036هـ أكمل تهذيبه الباطنيّ عند خليفته الكبير محمد بن عبد الله معن، ولازمه واختص به،

ويذكر مترجموه أنه رحمه الله كان مؤثرا للعزلة، شديد الفرار من الخلق، مرفوع الهمة عنهم إلى الله تعالى.

ولما مات الشيخ محمد بن عبد الله عام 1062 هـ تولى بعده تربية المريدين إلى أن انتقل إلى جوار ربّه سنة 1083هـ.

---

1 - أنظر في ترجمته : أبا محمد عبد السلام بن الطيّب القادري، كتاب المقصد الأحمر في التعريف بسيّدنا ابن عبد الله أحمد، ص 280 - 283، محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 299.

2 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 308. 309.

3 - أنظر في ترجمته : أبا محمد عبد السلام بن الطيب القادري، كتاب المقصد الأحمر في التعريف بسيّدنا ابن عبد الله أحمد، ص 266 - 276؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، ج1، ص 312.

ونحب أن نشير في الأخير إلى أن الفقيه عبد السلام بن الطيب القادري ألف كتابا في مناقبه سماه «الزهر الباسم في أخبار الشيخ سيدي قاسم»(1).

46 - أحمد بن عبد الله (2)

الشيخ العارف الولّي الكبير، ولد سنة 1043 هـ، أخذ الطريقة الشاذليّة عن والده وبعد وفاته سنة 1062هـ صحب الشيخ قاسم الخصاصي وارث سر أبيه حيث نال منه وافرا من المعرفة.

أفرد له أبو محمد عبد السلام بن الطيّب القادري ترجمة وافية في كتابه «المقصد الأحمر في التعريف بسيّدنا أحمد بن عبد اللهّ».

توفي رحمه الله سنة 1120 وخلفه في التربية والإرشاد ابنه العربي الذي خلف من بعده في سجادة التهذيب الباطني المربي الكبير علي الجمل.

47 - علي الجمل (3):

هو العلاّمة الكبير «أبو الحسن علّي» بن عبد الرحمن الحسني الإدريسي.

أخذ طريق التصوف أولا عن الطيّب الوزاني، ثم لزم العارف الكبير الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله، واستفاد منه فوائد في العلم والمعرفة، حتى صار بحرا زاخرا بالعرفان، أخذ عنه خلائق لايحصون إلا أن أجلّهم مجدد المدرسة الشاذليّة في شمال إفريقيا الشيخ محمد العربي الدرقاوي الذي لو لم يرب غيره لكفى في التعريف به وبمأثرته التجديديّة وللشيخ علي الجمل كتابا في الجمع بين الشريعة والحقيقة لازال مخطوطا(4).

مات رحمه الله سنة 1194هـ.

48 - الشيخ العربي الدرقاوي (5)

ومن أشهر فروع الشاذليّة في المغرب العربي الدرقاوية، وينسب هذا الفرع إلى العارف بالله، والدال عليه الولي الكبير الشيخ أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد

---

1 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 278.

2 - أنظر في ترجمته : أبا محمد عبد السلام بن الطيّب القادري، المقصد الأحمر في التعريف بسيّدنا ابن عبد الله، أحمد، محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 331.

3 - محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 358.

4 علي الجمل ، الجمع بين الشريعة والحقيقة، مخطوط، بمكتبة الزاوية الحملاوية، التلاغمة.

5 - أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 381.

وانظر أيضا : GENERAL. P. JANDRE; CONTRIBUTION A L ETUDE DES CENF FRERIES RELIGIEUSES MUSULMANES; ED LA MAISON DU LIVRE, ALGER 1956. P. 246.

في هذه المدرسة العظيمة نشأ بقرية «بني زروال» قرب فاس وأخذ الطريقة الشاذليّة، على يد العارف باللّه والعلامة الكبير علي بن عبد الرحمن الجمل العمراني أحد خلفاء الشيخ العربي الفاسي.

عرف الشيخ العربي الدرقاوي، بالاستقامة على الشريعة والطريقة، وبالجد وعلو الهمة، حتى وصل إلى رتبة يتقاصر دونها الفحول من الأعلام.

ذاعت طريقة الدرقاوي في حياته واتسعت حلقته في التربية والإفادة، فانتفع به خلق كثير تابوا على يديه، وجدد صلتهم باللّه وامتد تأثيره الواسع إلى كل من تونس والجزائر بل حتى بلدان الحجاز.

ولاتزال الدرقاوية واسعة الانتشار لحد الآن في المغرب العربي إذ عنده تلتقي الطرق الموصلة بسندها إلى الشاذلي تقريبا استطاع الشيخ بحذقه ومهارته في علوم التصوف أن يلفت أنظار معاصريه ومن بعدهم، كما أكسبه إخلاصه وتفانيه في الدعوة إلى اللّه، وتشبثه بالسنّة وتشييد تصوفه على الشريعة تقديرا ومكانة مرموقة عند العلماء.

ولقد كان هدف الشيخ العربي الدرقاوي الذي نذر حياته له تجديد الشاذلية، وايصال مبادئها لجميع الطبقات الشعبيّة. وتصوفه يقوم على الزهد في متاع الحياة الفانية، وترك التعلق بالدنيا، والابتعاد عن أهل الجاه والرئاسة.

كما كان كثيرا مايوصي مريديه بذكر اللّه، والعزلة، والصبر عند الإبتلاءات، والتواضع والسمع والطاعة للمشائخ.(1)

وللشيخ العربي الدقاوي مؤلفات نذكر منها :

1 - «جواهر القرطاس»، 2 - «مناقب الشيخ علي الجمل»، 3 - «مجموعة الرسائل» وهي التي شرحها الشيخ محمد بن محمد ظافر المدني وسمى شرحه عليها بأقرب الوسائل في شرح منتخبات الرسائل.

ويجب أن نشير في الأخير أن الطريقة الدرقاوية كانت لها مواقف في الحياة السياسيّة في المغرب العربي.

رزق هذا الشيخ قبولا عظيما في قلوب الخلق، وأتباعا كثيرين وهذه حقيقة تؤكدها كثرة الفروع التي تفرعت عن الطريقة الدرقاوية كالبدوية، والعمرية، والمهدوية، والفركليّة، والسوسيّة، والفتحيّة. (2) إلا أن أشهر فروع الطريقة الدرقاوية : المدنيّة، والبوزيديّة، والحراقيّة.

توفي الشيخ العربي الدرقاوي سنة 1239هـ.

1-G.P. G. ANDRE CONFRERIES RELIGIEUSES MUSULMANES P. 248.

2 - محمد بن محمد بن عبد الله المؤقت، الرحلة المراكشيّة، ج1، ص 157، 158.

السلسلة الدرقاوية الشاذليّة ومشاهير أعلامها :

قدر الله عزّ وجلّ أن انتشرت الطريقة الدرقاويّة في كامل أرجاء العالم الإسلامي على يد ثلاثة من كبار خلفاء الشيخ العربي وهم : الشيخ البوزيدي، والشيخ محمد الحراق، والشيخ محمد حسن بن حمزة ظافر المدني صاحب الفضل الأكبر في توسيع دائرة هذه الطريقة.

49 - الشيخ محمد البوزيدي (1) :

كان الخليفة الأجل للشيخ محمد العربي الدرقاوي، الشيخ محمد البوزيدي الغماري السلماني، ويبدو من الشذرات المنقولة إلينا عنه أنه كان رجلا موسرا أنفق كل ماله في خدمة ونشر الطريقة الدرقاوية، مما أكسبه احتراما عند شيخه العربي الدرقاوي،

غير أن شهرته الحقيقيّة، ومكانته الكبيرة في التصوف، اكتسبها من شهرة تلميذه العلامة أحمد بن عجيبة الحسني أحد كبار رجالات المدرسة الشاذليّة العظام.

50 - أحمد بن عجيبة (2):

هو الفقيه الصالح، العلامة الزاهد و العارف الكبير أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني ولد سنة 1160هـ بقبيلة أنجره بالمغرب وتلقى علومه الأولى بها، ثم انتقل إلى فاس ليأخذ من مشاهير علمائها. ولما طالع الحكم العطائية تاقت نفسه إلى التصوف فأخذ «الطريقة الشاذليّة» على يد العارف بالله الكبير الشيخ محمد البوزيدي.

له من التآليف المفيدة أكثر من ثلاثين كتابا أهمها :

1 - تفسيز القرآن الكريم واسمه «البحر المديد في تفسيز القرآن المجيد».

2 - «أزهار البستان في طبقات الأعيان».

3 - «اللوائح القدسيّة في شرح الوظيفة الزروقيّة».

4 - «شرح الحزب الكبير للشاذلي».

5 - «شرح نونية الششتري»

6 -« شرح الصلاة المشيشية»

7 - «معراج التصوف»،

8 - «الفتوحات الإلهيّة في شرح المباحث الأصليّة».

---

1 - محمد داود، تاريخ تطوان، ق 2، مج6، ج17، ص 213.

2 - أنظر في ترجمته : الزركلي، الأعلام، ج1، ص 245، محمد مخلوف، شجرة النورالزكية، ج1. ص 400، كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص 163.

9 - « إيقاظ الهمم على شرح الحكم العطائية » وهو عماد شهرته

توفي- رحمه الله- بدار شيخه محمد البوزيدي بغمارة زائرا سنة 1224هـ وهو الصحيح وقيل سنة 1266 هـ (1) ثم نقل جثمانه بعد مدة إلى أنجره ودفن هناك.

51 - الشيخ محمد الحراق (2)

وكان الخليفة الثاني الكبير للشيخ محمد العربي الدرقاوي، هو الشيخ محمد الحراق الذي انصرف بعد وفاة شيخه للتربية والإفادة انصرافا تاما.

ولد سنة 1188 هـ بمدينة شفشاون، ويتصل نسبه بنسب الشيخ عبد السلام بن مشيش شيخ الشاذلي.

ترجم له الشيخ داود في تاريخه ووصفه بقوله : «العلامة الأديب الشيخ الجليل، المربي الكبير »

ويعتبر الشيخ محمد الحراق من كبار شيوخ التصوف، ورجال التربية المشاهير في العصور المتأخرة، ورسائله إلى أصحابه، وأشعاره تنضح بالحقائق والرقائق، دالة على علو كعبه في المعارف الإلهية من آثاره رحمه الله :

1 - «شرح الصلاة المشيشية».

2 - «ديوان شعر» فية تواشيح وأزجال

3 - «مجموعة من الرسائل».

من أجل خلفاء الشيخ محمد الحراق تلميذه محمد العربي الرباطي.

52 – محمد العربي الرباطي (3):

هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن العربي الدلائي الرباطي، استوطن مدينة الدار البيضاء وأسس فيها زاويته التي استضاءت بها ربوع تلك المنطقة، وبقيت عامرة بحلق الذكر، ودروس العلم إلى أن توفي رحمه الله يوم الجمعة في السادس عشر من شهر شوال 1285هـ. ودفن بزاويته.

من مؤلفاته : «النور اللامع البراق في ترجمة الشيخ الحراق» خلفه في التربية والإرشاد بعد وفاته العلامة الكبير الشيخ عبد القادر بن عبد الكريم الورديغي الشفشاوني، نزيل مصر والمتوفى سنة 1313هـ. صاحب الكتاب المعروف والمسمى «بغية المشتاق لأصول الديانة والمعارف والأذواق ونهاية سير السباق إلى حضرة الملك

J L MICHON LE SAUFI MQROCAIN AHMED IBN AGIB A ET SON MIRAGE PARIS - 1 LIBRAIRIE PHILOSOPHIQUE, J.VRIN,1979 P 32.

2 - أنظر تفصيل ترجمته : داود، تاريخ تطوان، ج18، ص 369. محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 377. الزركلي، الأعلام، ج6، ص 265 ج7. ص 73. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج11، ص 206.

3 - داود، تاريخ تطوان، ج17، ص 326.

الخلاق » وقد ترجم فيه لشيخه محمد العربي الرباطي، ولشيخه محمد الحراق، وذكر بعضا من أشعاره وتوشيحاته، ورسائله كما ترجم فيه إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي(1).

53 - أبو عبد الله محمدّ حسن بن حمزة ظافر المدني (2):

هو العلامة الشهير أبو عبد الله محمد حسن ظافر المدني، تلقى علومه الشرعية الأولى في المدينة المنورة، ثم تاقت نفسه إلى طريق التصوف فساح لأجل ذلك في الأرض عساه يجد مرشدا روحيا يعرفه الطريق إلى الله تعالى، فانتهت به سياحاته إلى المغرب الأقصى، حيث أخذ الطريقة على يد جماعة من المربين منهم : مختار القادري، والشيخ أحمد التجاني، كما أخذ الطريقة الناصرية الشاذلية، لكنه ماليث أن تعرف على الشيخ محمد العربي الدرقاوي،الذي داوم على الإتصال به روحيًا وتربويًا حتى وفاة الشيخ العربي الدقاوي سنة (1239هـ)،حيث خلفه على سجادة الإرشاد، والتسليك الباطني، إلى أن وافاه أجله المحتوم سنة(1268هـ) بالمدينة المنورة.

وكان من خلفائه ابنه الشيخ محمد (1244هـ - 1325هـ)(3) الذي استقر في القسطنطينيّة حيث صار مرشدا للسّالكين، ومجمعا للمريدين، وتأسست على يديه تلك الزاوية العامرة التي أصبحت في عهد «السلطان عبد الحميد الثاني» (4)- الذي كان بدوره منتسبا للطريقة الشاذليّة - مركزا روحيًا كبيرا للتربية والإفادة، واستضاءت بربوعها تركيا، والبلاد الشاميّة، أما الخليفة الثاني للشيخ «محمد المدني» فهو العارف الكبير الشيخ «محمد الفاسي» (5)، الذي تلقى الأمير «عبد القادر الجزائري» (1222هـ - 1300هـ)(6)، تربيته الروحية على يديه، ويذكر أنّه

---

1 - أنظر عبد الكريم الوردیغي، بغية المشتاق لأصول الديانة والمعارف والأذواق ونهاية سير السباق إلى حضرة الملك الخلاق، ط1. القاهرة : مطبعة التقدم 1330هـ.

2 - أنظر في ترجمته : محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 383.

3 - أنظر في ترجمته : الزركلي، الأعلام، ج7، ص 76؛ كحالة معجم المؤلفين، ج11، ص 207. محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ج1، ص 411.

4 - أنظر: سعيد الأفغاني، سبب خلع السلطان عبد الحميد، مجلة العربي الكويتيّة، العدد 159، كانون الأول 1972م، ص 154، 156.

5 - أنظر : النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج1، ص 372.

6 - أنظر في ترجمته : عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط2، بيروت : مؤسسة نويهض الثقافية 1980م، ص103، 104.

مدحه في قصيدة طويلة (1)، والشيخ «يوسف النبهاني»(2) (1266هـ - 1350هـ) العلامّة الشهير صاحب المصنّفات الكثيرة، والشيخ «محمود الوفائي» شيخ السّيد محمود أبو الفيض المنوفي(3) أحد رواد الإصلاح الديني والإجتماعي في مصر، والشيخ «حسنين الحصافي»، الذي استطاع أن يؤسس فرعا جانبيا دعي لكثير من خصائصه الإجتهاديّة «بالحصافيّة»، وهو الفرع الذي انتمى إليه الشيخ «حسن البنا» (ت 1949م) مؤسس جماعة «الإخوان المسلمون» حيث مارس البنا أذكارها، وأورادها وكان لها الفضل الأكبر في تربيته الروحيّة(4).

ومن هذه النماذج التي سقناها لأعلام المدرسة الشاذليّة عبر العصور، بالإضافة إلى الملامح التي تكونت لدينا عن واقع حياة مؤسسها ونشاطه العلمي والصوفي، نستطيع أن نجمل هذه الملامح التي تميزّت بها هذه المدرسة فيما يأتي :

1 - أنها كانت دعوة عامة للنّاس جميعا، وجدت : في تونس وفي مصر وفي الجزائر، وفي المغرب، وفي تركيا، وفي اليمن، وفي الحجاز، كما أنها حركة دينيّة شاملة تدعوا إلى نشر التصوف في جميع مرافق الحياة.

2 - أن المدرسة الشاذليّة لم تعن بالتنظير الفكري بقدر ماعنيت بالأفكار من حيث : تطبيقاتها في الحياة العمليّة.

3 - إن الدعوة الشاذليّة، لم تكن دعوة للإنقطاع إلى العبادة، أو الإنغمار في حياة الربط والتكايا، وإنما كانت دعوة إلى العبادة والعمل المنتج معا.

4 - إن منهج الشاذلي وأعلام مدرسته في التربية، يبدأ من الفناء بحيث يصل المتقّرب إلى درّجة الحبّ الإلهي، لكن ميزة «الشاذليين» أنهم اتجهوا إلى كتم علوم الحقائق عن غير مستحقيها فسلموا بموقفهم هذا من الإنتقاد.

5 - إن المدرسة الشاذليّة تمتاز عن سائر المدارس الصوفيّة الأخرى، بإبتعادها عن المجاهدات الشّاقة لقهر متطلبات الجسد بدعوى الزهد والتقشّف، كما أنها لاتعرف الشطح والطّامات باسم الوجد والوصول، كما أن ليس فيها ترك للأسباب التي سنّها الشارع باسم التجرّد والتوكل، ولعل أخص ميزة تتميّز بها هذه المدرسة هو اعتدالها في كل شيء.

---

1 - أنظر : الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج3، ص 1393 ومابعدها.

2 - أنظر : الزركلي، الأعلام، ج8، ص 218؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج13، ص 275، 276.

3 - أنظر : عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفيّة، ص 316 - 318.

4 - أنظر : أبا الحسن الندوي، ربانيّة لا رهبانيّة، ص 127.

6 - الدعوة للعمل بالشريعة ومتابعة السنّة المحمديّة، ومجانبة البدع المحدثة في الدين، وبهذا المنهج الخاص نرى الشاذلي يلزم أتباعه بالمحافظة على الصلوات الخمس في المساجد وفي هذا يقول : «إذا لم يواظب الفقير على الصلوات الخمس في الجماعة، فلا تعبأن» (1)، ويقول أيضا : «كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل إليه النّفس، وتلذ به الطبيعة، فارم به وإن كان حقا، وخذ بالكتاب والسنّة» (2).

ولعل هذه الخصائص كانت وراء سرعة انتشار الدعوة الشاذليّة في كامل أرجاء العالم الإسلامي، وبقاءها حيّة متقدّة منذ وفاة مؤسسها إلى العصر الحاضر، وفي هذا - ولاشك - أعظم الأدلّة على عظمة شخصية أبي الحسن الشاذلي.

وأعتقد أن هذا القدر يكفي في التعريف به وبمدرسته الصوفيّة التي أنجبت أعلاما تجملت بهم الدنيا، وكتب التاريخ.

أقلّوا من اللّوم لا أبا لأبيكم

أو سدّوا المكان الذي سدّوا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1 - نقلا عن : محمد بن محمد ظافر المدني، الأنوار القدسيّة، ص 118.

2 - نقلا عن : عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج2، ص 4.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ البحث المتقصّي لأبي الحسن الشاذلي، يسفر عن أنّ هذا الرجل يعد في الحقيقة شخصية هامة في تاريخ التصوف الإسلامي، وترجع هذه الأهميّة إلى مميزات شخصيته من جهة، وإلى خصوبة آرائه وحيويتها من جهة ثانية.

وأول مايلفت النّظر في شخصية الشاذلي هو واقعيته، وقد برزت هذه الواقعيّة عنده في الإطار الواسع الذي أحاط به التصوّف، اذ استطاع الشاذلي أن ينزل التصوف من الزوايا والتكايا إلى الحياة العملية والفرديّة والإجتماعية، فلقد ساهم مع أتباعه المساهمة الفعلية في صدّ الحملات الصليبيّة التي كانت تجتاز العالم الإسلامي، وهو مايؤدي بنا إلى القول أن التصوّف الشاذلي ليس عزلة، وليس هروبا من الواقع بل هو علم وعمل.

وممّا يلاحظ على شخصيّة الشاذلي هو هذه الثورة التي عرف بها في آرائه من أجل إصلاح الفكر الصوفي، والتي جاءت معبّرة عن واقع المجتمع الإسلامي الذي سئم الاضطرابات السياسيّة والاجتماعيّة. وهي ثورة يمكن أن توصف بالجذريّة بالنظر إلى المحيط الذي سبق ظهور دعوة الشاذلي، ويمكن تلخيص مميزات هذه «الثورة الشاذليّة» في النتائج الآتية :

أ - محاولة الشاذلي الابتعاد عن التصوف الفلسفي ونظريّاته في تفسير الوجود، ودعوته إلى «التوحيد الشهودي» بدلا عن «وحدة الوجود» الفلسفيّة، وهو مايجعلنا نقول باطمئنان : أن التصوف الإسلامي لم يخرج كلّه عن حدود الكتاب والسنّة.

ب - عدم احتفال الشاذلي بالكرامات وخوارق العادات في طريقته، وابتعاده عن المغالاة في التجريد عدوّ كل تطور ثقافي أو علمي، وهو مايؤكد لنا أن التصوف الحقيقي لايتعارض مع الحياة وأسبابها.

جـ - ثورة الشاذلي عن المعاني السطحية للزهد والتقشف والتوكّل، حيث بيّن الشاذلي أن اصلاح الباطن لايتناقض مع اصلاح الظاهر، وبأن التصوف الحق لايتعارض مع التمتع بطيّبات الحياة الدنيا بخاصة إذا رافقه الشكر.

د - دعوة الشاذلي إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، وتغليب حالة الصحو على السكر والبقاء على الفناء، وفي هذا الضمان الكافي لتحمل المسؤوليات والتبعات الأخلاقيّة، وهو بهذا العمل الفذ يزيل ذلك العداء التقليدي بين الفقهاء والصوفيّة، ويثبت أن لاتعارض بين التصوف الحق وعلوم الدين.

هـ - انصراف الشاذلي عن قاعدة «التخلية ،التحليّة» التي يقوم عليها التصوف القديم، والتي تعنى تتبع عيوب النّفس والاستغراق في البحث عن آفاتها بغرض تصفيتها وتنقيتها إلى شيء أسمى وأجل، وهو الإلتفات إلى الله والنّظر إلى منّته، وفي هذا أساس «طريقة الشكر» التي أتى بها الشاذلي في تصوفه المجدّد.

ولقد اظهرت لنا هذه الدراسة أن الشاذلي يعلي من قدر الحريّة الإنسانيّة، وهي في نظره تتمثل في صدق العبوديّة لله، بحيث يتخلّص المرء من أشياء الدنيا وقيمها الأرضيّة، ولن يصل المتقرّب إلى صريح هذه الحريّة إلا إذا استوفى حقوق الله كاملة، وحرّر قلبه من جميع ماسوى الله، وفي هذا يقول : « **ولن يصل العبد إلى الله، وباق معه شهوة من شهواته، أو مشيئة من مشيئاته** »(1).

كما بيّنت لنا الدراسة إلى أي حد استطاع الشاذلي أن يحوّل قضايا علم العقيدة كأفعال العباد، إلى حقائق صوفيّة ذوقيّة، بدلا من أن تكون قضيّة عقلية جافّة لاروح فيها ولاحياة.

وقد تمكنا من خلال هذه الدراسة أن نحدّد منهج الشاذلي الصوفي للوصول إلى معرفة الله، وهو منهج يقوم على سلوك معيّن، يبدأ بالإرادة الذاتيّة للمتقرّب، وينتهي بالتحقق بوصف العبوديّة الخالصة لله، ومن أخص مميزات هذا المنهج سهولته ويسره وواقعيته، بالإضافة إلى أن هذا المنهج مستمد من الشريعة المطهّرة، وبهذا يكون الشاذلي قد أصّل منظومته الصوفيّة من جهة، وجدّد فيها من جهة أخرى، ثم حددنا في الأخير نوعيّة هذا المنهج، وذلك بمقارنته بمختلف مناهج المدارس الصوفيّة الأخرى.

مما أدى بنا إلى اكتشاف الشبه الكبير بين منهج الشاذلي والحكيم الترمذي، والإختلاف الواقع بين هذا المنهج ومنهج الغزالي.

وأحسب أن الجهد الذي بذلناه في تتبع المتناثر من أقوال الشاذلي وآرائه من جميع المصادر، وماقمنا به من عمل من أجل ترتيب وتصنيف هذه الأفكار في وحدات متناسقة يسلّم بعضها إلى البعض الآخر، قد أوصلنا إلى استنباط مذهب يكاد يكون متكاملا في فكر الشاذلي الصوفي.

وآخر نتيجة لهذه الدراسة هي أنّ معرفة الله تعالى، أو الوصول إلى التولية ، يتم عن طريق «تجربة المحبّة» التي في صميمها «تجربة عرفان»، وإن مجال هذه «التجربة الحبّة» في المعرفة مجال حقيقي، لايقل عن أي مجال آخر من مجالات «التجربة الإنسانية»، لذلك فإنّ تجاهل هذه الناحية من الإدراك، واعتبارها من الأوهام المحضة والخيالات الفاسدة لخلوها من دعامة «التجربة الحسيّة»، يجلل صاحبها بعار الجهل وفضيحته، ولايؤدي في الأخير إلا إلى نجزئة الحقيقة.

هذا وإن أتينا بالكثير من نصوص الشاذلي في ثنايا هذه الرسالة فما ذلك الا محاولة منّا في زيادة التعريف بهذه الشخصيّة، يضاف إلى ذلك أن إيراد النصوص بألفاظها يضفي على البحث صفة الموضوعيّة التي هي سبيل الباحث لكشف الحقيقة لذاتها.

---

1 - نقلا عن : محمد بن محمد ظافر المدني، الأنوار القدسيّة، ص 130.

ونعتقد من صميم قلوبنا أن شخصيّة الشاذلي ثريّة وعميقة، تغري كل باحث بالدراسة والإستقصاء، فنظريته في الولاية في حاجة إلى بحث مستفيض، وآراؤه العقديّة والأخلاقيّة لاتزال مواضيع بكر تستحق البحث والتنقيب.

ونحب في الأخير أن نشير إلى أن هذه الدراسة ماهي إلا مساهمة متواضعة للتحسيس بأهميّة التراث الصوفي، وآفاق الإستفادة منه في عصرنا الرّاهن.

وأحسب أن المسلمين اليوم في أمسّ الحاجة إلى إعادة الاعتبار لهذا العلم، وتأسيس صياغة جديدة له، تستجيب للتحديات المحيطة بهم فكريًا وعمليًا وحضاريًا، وتحقق لهم تكاملا ماديًا وروحيًا مقوما لفطرة الإنسان، للوقوف في وجه هذه الحضارة الفاتنة الخلابّة، وكبح جماحنا عن الإنزلاق إليها.

ولعلّ بحثنا يساهم في هذا كلّه، وهذا ماجعلنا نقبل على دراسة أبي الحسن الشاذلي غير متهيبين من الصعوبات التي كانت تواجهنا في دراسته.

وأتمنى من سويداء الفؤاد أن تدرس هذه الرسالة دراسة مستوعبة ليدرك المسلمون من خلالها أن التصوف الإيجابي، يوقظ الأمة من غفوتها ، وينتشلها من كبوتها، وأن التصوف ماهو إلا كمال الإيمان.

هذا مبلغ جهدي في دراسة الشاذلي وتقويم آرائه في التصوّف، ويشهد الله، أنني لم آل جهدا في سبيل إضافة جادّة نخدم بها أبناء أمّتنا الإسلاميّة، وإني لأرجو أن أكون عند حسن الظن، والله الهادي إلى الصّواب.

وآخر دعوانا أن الحمدلله ربّ العالمين.

الفهارس العامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

1 - الكتب العربيّة المطبوعة

أ - القرآن الكريم:

آبادي (لأبي الطيب محمد شمس الحق، ت 1892م)

1 - عون المعبود : عبد الرحمان محمد عثمان، المدينة المنّورة : المطبعة السلفيّة 1969م.

ابن الآبّار (محمد بن عبد الله القضاعي البلسني، ت 658هـ).

2 - التكملة لكتاب الصّلة، تحـ: الفردبل ومحمد بن أبي شنب، ط1، الجزائر : المطبعة الشرقيّة 1920م.

ابلاغ (عنّاية الله الأفغاني)

3 - جلال الدين الرّومي بين الصوفيّة وعلماء الكلام، ط1، القاهرة : الدار المصريّة اللّبنانيّة 1987م.

الألوسي (نعمان خير الدين، ت 1899م).

4 - جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، القاهرة : مطبعة المدني 1981م.

أمين (أحمد، ت 1954م).

5 - ظهر الإسلام، بيروت : دار الكتاب العربي

البجاوي (ابراهيم)

6 - شرح جوهرة التوحيد، نسّقه وخرّج أحاديثه محمد أديب الكيلاني مع عبد الكريم تتّان، (دون ذكر للنّاشر وبلده) 1972م.

البخاري (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن إسماعيل، ت 256هـ).

7 - الجامع الصحيح، القاهرة : دار الفكر العربي

بدوي (عبد الرحمان).

8 - موسوعة الفلسفة، ط1، بيروت : المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر 1984م.

البستاني (بطرس بن سليمان، المعلم، ت 1969م).

9 - دائرة المعارف وهو قاموس عام لكل مطلب، طهران : مؤسسة مطبوعات إسماعيليان.

بسيوني (الدكتور إبراهيم)

10 - الإمام القشيري - سيرته - آثاره - مذهبه في التصوّف، ط1، بيروت : منشورات المكتبة العصريّة.

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي، ت 799هـ)
11 - تحفة النظّار في غرائب الأمصار (المعروف برحلة ابن بطوطة)، ط القاهرة: المكتبة التجاريّة 1958م
البغدادي (إسماعيل باشا)
12 - إيضاح المكنون، ط3، طهران : المكتب الجعفري 1947م.
13 - هديّة العارفين، ط1، استانبول 1951م.
بوذينة (محمد)
14 - أبو الحسن الشاذلي، ط1، تونس : دار التركي للنشر 1989م .
بلا ثيوس (أسين)
15 - ابن عربي حياته ومذهبه، تر : عبد الرحمان بدوي، بيروت : دار القلم 1979م.
التادلي (أبو يعقوب يوسف)
16 - التشوّف إلى رجال التصوّف، ط1، الدار البيضاء : دار النجاح الجديدة 1984م
ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت 874هـ).
17 - النجوم الزاهرةفي أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة : دار الثقافة ودار الإرشاد القومي.
الترمذي (الحكيم محمد بن علي، ت 320).
18 - نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحـ : مصطفى بن إسماعيل الدمشقي، طبع استانبول 1393هـ.
19 - ختم الأولياء، تحـ : عثمان يحي، ط1، بيروت : المطبعة الكاثوليكيّة
الترمذي (أبو عيسى محمد بن سورة، ت 279هـ).
20 - الجامع الصحيح = السنن، تحـ : عبد الرحمان محمد عثمان، بيروت : دار الفكر العربي 1983م.
التفتازاني (أبو الوفاء الغنيمي).
21 - ابن سبعين وفلسفته الصوفيّة، ط1، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1979م.
التنبكتي (أبو العبّاس أحمد بابا، ت 1036هـ).
22 - نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، ط1، القاهرة : مطبعة السعادة 1329هـ.

ابن تومرت (أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت 524هـ).
23 - أعز مايطلب ، تحـ : عمّار الطالبي، ط1، الجزائر : المؤسسة الوطنيّة الكتاب 1985م.
ابن تيميّة (أحمد بن عبد الحليم، ت 728هـ).
24 - مجموع الفتاوي جمع وترتيب عبد الرحمان محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، ط الرباط : مكتبة المعارف.
25 - مجموعة الرسائل والمسائل، تحـ : محمد رشيد رضا، مكة المكرّمة : دار البار للنّشر والتوزيع.
26 - العبوديّة، ط1، باتنة : دار الشهاب 1988م.
27 - الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان، لاهور : إدارة ترجمان السنّة 1977م.
الجابري (محمد عابد).
28 - بنية العقل العربي، ط3، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربيّة 1990م.
الجرجاني (على بن محمد السيد الشريف، ت 816هـ).
29 - كتاب التعريفات، بيروت : مكتبة لبنان 1978م.
الجزائري (الأمير عبد القادر، ت 1300هـ).
30 - المواقف في الوعظ والإرشاد، ط2، دمشق : دار اليقظة العربيّة 1967م.
الجيلي (عبد الكريم، ت 811هـ)
31 - الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، القاهرة : دار الطباعة 1293هـ.
الجيّوشي (محمد إبراهيم).
32 - بين التصوّف والأدب، ط1، القاهرة : المكتبة الأنجلو مصريّة.
33 - الحكيم الترمذي دراسة لآثاره وأفكاره، القاهرة : دار النهضة العربيّة 1980م.
حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله، ت 1067هـ).
34 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط3، طهران : المكتبة الإسلاميّة.
ابن حجر (أحمد بن علي، ت 852هـ).
35 -فتح الباري، ط2، بيروت : دار إحياء التراث العربي 1402هـ.

36 - لسان الميزان، ط2، بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1971م.
37 - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح : محمد سيّد جاد الحق، ط2، القاهرة : دار الكتب الحديثة 1966م.
حسن (إبراهيم حسن)
38 - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. ط1. بيروت : دار الأندلس 1967م.
الحفناوي (محمد بن أبي القاسم بن إبراهيم، ت 1361هـ).
39 - تعريف الخلف برجال السلف، ط1، تونس : المكتبة العتيقة 1982م.
الحفني (عبد المنعم).
40 - معجم مصطلحات الصوفيّة، ط1، بيروت : دار المسيرة 1980م.
41 - الموسوعة الصوفيّة، ط1، بيروت : دار الرشيد 1992م.
ابن حنبل (أحمد بن محمد أبو عبد الله الشيباني، ت 240هـ).
42 - المسند، ط بيروت : دار الفكر العربي.
الخطيب (أبو بكر أحمد بن علي البغدادي، ت 463هـ).
43 - تاريخ بغداد، بيروت : دار الكتاب العربي
ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن سعيد السّلماني لسان الدين، ت 776هـ).
44 - روضة التعريف بالحبّ الشريف، تح : محمد الكتاني، ط1، الدار البيضاء : دار الثقافة 1970م.
ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد، ت 808هـ)
45 - المقدّمة، ط2، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1979م.
46 - العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1983م.
47 - شفاء السائل لتهذيب المسائل، تح : الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، ط1، بيروت : المطبعة الكاثوليكيّة 1959م.
ابن خلكان (أبو العبّاس أحمد بن محمد، شمس الدين، ت 681هـ).
48 - وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تح : إحسان عبّاس، ط 7، بيروت: دار الثقافة.
أبو داود (سليمان بن الأشعث بن سليمان الأزدي، ت 275هـ).
49 - السنن، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت : دار الفكر العربي.
داود (محمد).
50 - تاريخ تطوان، ط2، تطوان: مكتبة كريما دسيس.

الدباغ (عبد العزيز بن مسعود، ت 1130هـ).
51 - الأبريز، جمع ابن المبارك، ط القاهرة : مكتبة محمد علي صبيح و ولاده.
الدردير (أحمد، ت 1201هـ).
52 - شرح الخريدة البهيّة، ط1. القاهرة : المطبعة الميمنيّة 1313هـ.
الدميري (كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى، ت 808هـ).
53 - حياة الحيوان الكبرى، بيروت : دار إحياء التراث العربي.
الدهلوي (أحمد بن عبد الرحيم العمري، ت 1776هـ).
54 - حجة الله البالغة، بيروت : دار الثقافة.
الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين، ت 748هـ)
55 - سير أعلام النبلاء، تحـ : شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط1، بيروت : مؤسسة الرسالة 1981م.
56 - العبر في أخبار من غبر، ط1، الكويت : مطبعة الحكومة 1966م.
57 - ميزان الإعتدال في نقد الرجال، تحـ : على محمد البجاوي، ط2. حلب : دار إحياء الكتب العربيّة 1963م.
الذهبي (محمد حسين، ت 1396هـ).
58 - التفسير والمفسرون، ط2، بيروت : دار إحياء التراث العربي 1976م.
الراشدي (عمر بن علي، ت 868هـ).
59 - ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب أحمد بن عروس، ط1. تونس: المطبعة الرسميّة ستة 1303هـ.
الزبيدي (أبو العباس أحمد بن أحمد)
60 - طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ط1، الدار اليمنيّة للنشر والتوزيع.
الزبيدي (أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، ت 1205هـ).
61 - إتحاف السّادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين (ط خالية من كل بيان).
62 -تاج العروس من شرح جواهر القاموس، تحـ : على هلالي، الكويت : مطبعة الحكومة 1966م .
الزركلي (خير الدين).
63 - الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، ط6، بيروت : دار العلم للملايين 1986م.

زروق (أحمد، ت 899 هـ).
64 - قواعد التصوّف وأصوله، مراجعة محمد زهدي النّجار، ط2، القاهرة : مكتبة الكليّات الأزهريّة 1976م.
أبو زهرة (محمد).
65 - ابن تيميّة حياته وعصره وآراؤه الفقهيّة، القاهرة : دار الفكر العربي.
66 - تاريخ المذاهب الإسلاميّة، القاهرة : دار الفكر العربي.
الزين (سميح عاطف).
67 - الصوفيّة في نظر الإسلام، ط3، بيروت : دار الكتاب العربي 1985م
السّخاوي (محمد بن عبد الرحمان شمس الدين، ت 902هـ).
68 - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت : مكتبة الحياة .
السرّاج(محمد بن محمد الأندلسي، ت 1149هـ).
69 - الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة، تح : محمد الحبيب الهيلة (سلسلة نفائس المخطوطات)، ط1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي 1985م.
السرّاج (أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي، ت 378هـ).
70 - اللّمع، تح : عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقي سرّور، ط1، القاهرة، دار الكتب الحديثة 1969م.
سركيس (يوسف أليان، ت 1351هـ)
71 - معجم المطبوعات العربيّة والمعربة، ط1، لبنان 1919م.
سعد الله (أبو القاسم).
72 - تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981م.
السلاوي (أبو العبّاس أحمد بن خالد الناصري، ت 1897م).
73 - الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ط1، القاهرة : المطبعة البهيّة المصريّة 1312هـ.
السّلمي (أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين بن موسى، ت 412 هـ).
74 - طبقات الصوفيّة، تح : نور الدين شريبة ، ط3، القاهرة : مكتبة الخانجي1986م.
السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمان، ت 911هـ).
75 - تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذليّة، ط1، القاهرة : المكتبة الإسلاميّة 1934م.

الشبلنجي (مؤمن بن حسن مؤمن).
76 - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، ط1، القاهرة : دار الطباعة الأزهريّة 1928م.
الششتري (أبو الحسن علي، ت 668هـ).
77 - الدّيوان، تحـ : علي سامي النّشار، ط1، الإسكندريّة : مكتبة المعارف 1960م.
الشعراني (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي، ت 973هـ).
78 - الأنوار القدسيّة في معرفة قواعد الصوفيّة، ط2، بيروت : مكتبة المعارف 1978م.
79 - الطبقات الكبرى، القاهرة : دار الفكر العربي 1952م.
شكري (محمد فؤاد).
80 - السنوسيّة دين ودولة، ط1، بيروت : دار الفكر العربي 1948م.
شلبي (أحمد).
81 - موسوعة التاريخ الإسلامي، ط7، القاهرة : دار النهضة المصريّة 1984م.
الشوكاني (محمد بن علي بن محمد، ت 1250هـ)
82 - فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، ط2، القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1964م.
83 - قطر الولي على حديث الوليّ، تحـ : إبراهيم إبراهيم هلال، القاهرة : مطبعة المدني 1969م.
84 - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط1، القاهرة مطبعة السّعادة 1348هـ.
الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، ت 548هـ).
85 - الملل والنحل، تحـ : محمد سيد كيلاني، بيروت : دار المعرفة.
الشيّال (جمال الدين).
86 - أعلام الإسكندريّة في العصر الإسلامي، ط1، القاهرة : دار المعارف 1963م
الشيبي (مصطفى كامل).
87 - الصّلة بين التصوّف والتشيّع، القاهرة : دار المعارف 1964م.

صادق (محمد حاج).
88 - مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعيّة 1989م.
ابن الصبّاغ (محمد بن أبي القاسم الحميري، ت 755هـ).
89 - درّة الأسرار وتحفة الأبرار، ط1، تونس : المطبعة الرسميّة 1304هـ.
صبحي (أحمد محمود)
90 - الفلسفة الأخلاقيّة في الفكر الإسلامي، ط2، القاهرة : دار المعارف 1983م.
أبو طالب (عمرو بن عثمان المكي، ت 291هـ).
91 - قوت القلوب، بيروت : دار صادر.
الطبري (محمد بن جرير، ت 310هـ)
92 - جامع البيان في تفسير آي القرآن، القاهرة : المطبعة الميمنيّة.
ابن طملوس (أبو الحجاج يوسف بن محمد، ت 620هـ).
93 - المدخل لصناعة المنطق، تحـ : أسين بلاثيوس، ط1، مدريد : مطبعة الأبيرقة 1916م.
ابن عاشور (الفاضل).
94 - أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، تونس : مكتبة النّجاح.
ابن عاشور (محمد الطاهر، ت 1284هـ).
95 - تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنّة، تونس : الشركة التونسيّة للنّشر والتوزيع 1985م.
العافيّة (عبد القادر).
96 - الحياة السيّاسية والاجتماعية والفكريّة بشفشاون وأحوازها، ط1، المحمديّة : مطبعة فضالة 1981م.
ابن عبّاد (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الرّندي، ت 792هـ).
97 - الرسائل الصغرى، تحـ : الأب بولس نويا، ط2، بيروت : دار المشرق 1974م.
98 - غيث المواهب العليّة، تحـ : عبد الحليم محمود، ط1، القاهرة : دار الكتب الحديثة 1970م.

عبد الباقي (محمد فؤاد، ت 1968م).
99 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت : دار إحياء التراث العربي 1945م.
عبد القادر (محيي الدين).
100 - تاريخ النور السافر، (ط.خالية من كل بيان).
عبد الكريم (أحمد حامد).
101 - الأسرار العليّة في أحزاب وأوراد وأذكار الطريقة الشاذليّة، القاهرة : المكتبة المحمودية التجاريّة.
102 - الطبقات العروسيّة الشاذليّة، ط1، القاهرة : مكتبة الزهران 1989م.
عبد الوهاب (حسن حسني).
103 - خلاصة تاريخ تونس، ط2، تونس : المطبعة التونسيّة 1924م.
العجلوني (إسماعيل بن محمد، ت 1162هـ).
104 -كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهرت من الأحاديث على ألسنة الناس، تحـ : أحمد القلاش، ط1، بيروت : مؤسسة الرسالة 1985م.
ابن عجيبة (أحمد الحسني، ت 1224هـ).
105 - إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ط1، بيروت : المكتبة الثقافيّة.
ابن عذاري (أبو العبّاس أحمد بن عمر المراكشي، ت، بعد 712هـ).
106 - البيان المغرب في ذكرى بلاد إفريقيّة والمغرب، بيروت : دار الثقافة.
ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، ت 543هـ)
107 - عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ط1، دمشق : دار العلم للجميع.
108 - العواصم من القواصم، مراجعة عبد الحميد بن باديس ط1، الجزائر : المطبعة الجزائرية الإسلاميّة 1926م
ابن العربي (أبو عبد الله محمد بن علي ت 638هـ)
109 - الفتوحات المكيّة، بيروت : دار صادر،
110 - فصوص الحكم، تحـ : الدكتور أبو العلاء عفيفي، بيروت : دار الكتاب اللبناني.
111 - روح القدس في محاسبة النّفس، تحـ : عزّة حصريّة، دمشق : مكتبة العلم للجميع 1970م.
112 - مجموعة رسائل ابن العربي، ط بيروت : دار إحياء التراث العربي.
113 - اصطلاحات الصوفيّة الواردة في الفتوحات المكيّة بآخر تعريفات الجرجاني، بيروت : مكتبة لبنان 1978م.

ابن عطاء الله (أبو الفضل تاج الدين أحمد السكندري، ت 709هـ).
114 - لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الشاذلي أبي الحسن، ط القاهرة : مكتبة القاهرة، 1979م.
115 - التنوير في إسقاط التدبير، ط1، القاهرة : المطبعة المحمديّة المصريّة، 1901م.
116 -مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، ط1، القاهرة : مطبعة محمد علي صبيح وأولاده 1950م.
ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد العسكري، ت 1089هـ)
117 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط بيروت : دار الآفاق الجديدة.
عمار (علي سالم).
118 - أبو الحسن الشاذلي، ج1، ط1، القاهرة : مطبعة دار التأليف 1951م.
عنان (محمد عبد الله)
119 - عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ط1، القاهرة : لجنة التأليف والنشر 1964م.
عيّاد (أحمد توفيق).
120 - التصوّف تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره، القاهرة : مكتبة الأنجلو مصريّة، سنة 1970م.
عيّاد (أحمد بن محمد، ت بعد 1031هـ)
121 - المفاخر العليّة في المآثر الشاذليّة، ط القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي 1961م.
العيّاشي (أبو سالم، ت 1090هـ).
122 - رحلة العياشي، ط1، الطبعة الحجريّة المغربيّة.
الغبريني (أبو العباس أحمد بن محمد، ت 704هـ)
123 - عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحـ : رابح بونار، ط2، الجزائر : الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع 1981م.
غربال (محمد شفيق).
124 - الموسوعة العربيّة الميّسرة، بيروت : دار النهضة 1980م.

الغزالي (أبو حامد بن محمد، ت 505هـ).
125 - إحياء علوم الدين، ط3، بيروت : دار القلم .
126 - المنقذ عن الضلال، تحـ : عبد الحليم محمود، ط2، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1985م.
الغزالي (محمد)
127 - خطبة في شؤون الدنيا والحياة، مراجعة محمد عاشور، الجزائر : مكتبة رحاب.
الغزي (نجم الدين).
128 - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحـ : جبرائيل سليمان جبّور، ط2، بيروت : دار الآفاق الجديدة 1978م.
غني (قاسم)
129 - تاريخ التصوف في الإسلام تر:صادق نشأت، ط1 القاهرة مكتبة النهضة المصريّة 1980م.
ابن الفارض (عمر، ت 632هـ).
130 - ديوان ابن الفارض.، بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر 1983م.
الفاسي (أحمد).
131 - شرح رائية الشريشي، ط1، القاهرة : المطبعة العامريّة 1316 هـ
ابن فرحون (إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري برهان الدين ، ت 794هـ).
132 - الديباج المذهب في أعيان المذهب، ط1، القاهرة : مكتبة ثقفون 1351هـ.
الفرد (بل).
133 - الفرق الإسلاميّة في الشمال الأفريقي، تر: عبد الرحمان بدوي، ط2، بيروت : دار الغرب الإسلامي 1981م.
فروخ (عمر).
134 - تاريخ الأدب العربي، ط1، بيروت : دار العلم للملايين 1983م.
135 - التصوّف في الإسلام، ط1، بيروت : دار الكتاب العربي 1981م
الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد، ت 817هـ).
136 - القاموس المحيط، ط1، بيروت : دار إحياء التراث العربي.

القادري (أبو محمد عبد السلام بن الطيّب).
137 - المقصد الأحمر في التعريف بسيّدنا عبد الله أحمد، ط1، المطبعة الحجريّة المغربيّة 1351هـ
القاشاني (كمال الدين عبد الرزاق، ت 751هـ).
138 - اصطلاحات الصوفيّة، تحـ : د. محمد كمال جعفر، القاهرة : الهيئة المصريّة العامة للكتاب 1981م.
القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، ت 465هـ).
139 - الرسالة القشيريّة في علم التصوّف، بيروت : دار الكتاب العربي.
قطب (سيّد، ت 1967م).
140 - في ظلال القرآن، ط7، بيروت : دار الشروق 1978م.
قنسنك وآخرون.
141 - دائرة المعارف الإسلاميّة، ترجمة ثابت الفندي وآخرين، ط1 ،مطبعة مصر 1933م.
ابن قنفد (أبو العبّاس أحمد بن الحسين بن علي، ت 810هـ)
142 - أنس الفقير وعز الحقير، تحـ : محمد الفاسي وأدولف فور، ط1، المغرب: المركز الجامعي للبحث العلمي 1965م.
143 - الوفيات، تحـ : عادل نويهض، ط1، بيروت : منشورات المكتب التجاري 1971م.
القونوي(صدر الدين، ت 672 هـ)
144 - شرح الأربعين حديثا، تحـ : حسن كامل بيلماز، ط1، استانبول : منشورات كليّة الإلهيات.
ابن قيّم (شمس الدين محمد بن الجوزيّة، ت 751هـ).
145 - مدارج السّالكين، تحـ : محمد حامد الفقي، بيروت : دار الكتاب العربي.
ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل الحافظ، ت 747هـ).
146 -البداية والنهاية : ط7، بيروت : مكتبة المعارف 1988م.
كحالة (عمر رضا)
147 - معجم المؤلفين، بيروت : دار إحياء التراث العربي.

الكمشخانوي (ضياء الدين أحمد بن مصطفى النقشبندي، ت 1311هـ)
148 - جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأوصافهم، ط1، القاهرة : دار الطباعة الأزهريّة 1331هـ.
الكلاباذي (أبو بكر محمد، ت 380هـ) .
149 - التعرّف لمذهب أهل التصوف، تحـ : محمد أمين النواري، ط2.القاهرة : مكتبة الكليّات الأزهريّة 1980م.
ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي، ت 273هـ)
150 - السّنن، تحـ : محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت : دار الفكر العربي.
مبارك (زكي بن عبد السلام، ت 1952م).
151 - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، بيروت : منشورات المكتبة العصريّة.
محفوظ (محمد).
152 - تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت : دار الغرب الإسلامي.
محمود (عبد الحليم، ت 1978م).
153 - المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن، القاهرة : دار الكتب الحديثة.
154 - أبو الحسن الشاذلي، بيروت : المكتبة العصريّة.
155 - قضيّة التصوّف والمدرسة الشاذليّة، ط2، القاهرة : دار المعارف 1988.
156 - شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، بيروت : منشورات المكتبة العصريّة.
محمود (د. عبد القادر).
157 - الفلسفة الصوفيّة في الإسلام مصادرها ونظرياتها ومكانتها من الدين، ط1، بيروت : دار الفكر العربي 1966م.
مخلوف (محمد بن محمد، ت 1355 هـ).
158 - شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1349هـ.
159 - مواهب الرحيم في ترجمة مولانا عبد السلام بن سليم، ط1، طرابلس : مكتبة النّجاح 1925م.
المدني (محمد بن محمد، ت 1325هـ).
160 - الأنوار القدسيّة في تنزيه طرق القوم العليّة، ط3، استانبول : مكتبة الصنائع 1883م.

المدني (مصطفى).
161 - النّصرة النبويّة لأهل الطريقة الشاذليّة الفاسيّة الدرقاويّة المدنيّة، ط1، القاهرة : المطبعة الشرقيّة 1316هـ.
أبو مدين (شعيب بن الحسين، ت 594هـ).
162 - الديوان جمع العربي الشّوار، دمشق : مطبعة الترقي 1938م.
المراكشي (عباس بن ابراهيم) .
163 - الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ط1، فاس : المطبعة الجديدة 1936م.
مسلم (الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت 261هـ).
164 - الجامع الصحيح، تحـ : محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت : دار إحياء التراث العربي.
ابن مريم (أبو عبد الله بن محمد المليتي، ت بعد 1014هـ).
165 - البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحـ : محمد بن أبي الشنب، ط1، المطبعة الثعالبيّة 1908م.
المقري (أبو العبّاس أحمد بن محمد التلمساني، ت 1041هـ).
166 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحـ : إحسان عبّاس، ط بيروت: دار صادر 1968م.
المقريزي (أبو العبّاس أحمد بن علي، تقي الدين، ت 845هـ).
167 - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاؤه.
168 - السلوك لمعرفة دول الملوك، ط1، القاهرة : دار الكتب المصريّة 1934م.
ابن الملّقن (سراج أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري، ت 804هـ)
169 - طبقات الأولياء، تحـ : نور الدين شريبة، القاهرة : مكتبة الخانجي 1973م
ابن منظور (زبو الفضل جمال الدين محمد مكي، ت 711هـ)
170 - لسان العرب، ط1، بولاق : المطبعة الميريّة بمصر 1300هـ
ابن المؤقت (محمد المراكشي).
171 - الرحلة المراكشية، ط1، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1351هـ.

النبهاني (يوسف بن إسماعيل، ت 1350هـ)
172 - جامع كرامات الأولياء، تحـ : إبراهيم عطوة عوض، ط2، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر 1974م.
173 - المهدي بن تومرت، ط1، بيروت : دار الغرب الإسلامي 1988م.
النّدوي (أبو الحسن على الحسني).
174 - أحمد السّرهندي، الكويت : دار القلم 1983م.
175 - الإمام الدهلوي، ط1، الكويت دار القلم 1985م.
176 - ربانيّة لا رهبانيّة، ط4، بيروت : مؤسسة الرسالة 1986م.
نصر (عاطف جودة).
177 - عمر بن الفارض، ط1، بيروت : دار الأندلس 1982م.
أبو نعيم (الحافظ أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ت 430 هـ).
178 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط1، القاهرة : مطبعة السعادة 1938هـ.
نويا (بولس).
179 -ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، بيروت: دار المشرق 1986م.
نويهض (عادل).
180 - معجم أعلام الجزائر، ط2، بيروت : مؤسسة نويهض الثقافية 1980م.
النيفر (محمد).
181 - عنوان الأريب، ط1، تونس : المطبعة التونسيّة
النيّال (محمد البهي، ت 1968م).
182 - الحقيقة التاريخيّة للتصوف الإسلامي، ط1، تونس : نشر وتوزيع مكتبة النّجاح 1965م.
الورديغي (عبد الكريم الشفشاوني، ت 1313هـ).
183 -بغية المشتاق لأصول الديانة والمعارف والأذواق ونهاية سير السباق إلى حضرة الملك الخلاق، ط1، القاهرة : مطبعة التقدّم 1330هـ.
الولاتي (أبو عبد الله الطالب).
184 - فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحـ : إبراهيم الكتاني بالإشتراك مع محمد حجي، ط1. بيروت : دار الغرب الإسلامي 1981م.
الهجويري (أبو الحسن علي، ت 465هـ).
185 - كشف المحجوب، تر : إسعاد عبد الهادي قنديل، بيروت دار النهضة العربيّة 1980م.

هلال (إبراهيم إبراهيم).
186 - نظريّة المعرفة الإشرافيّة وأثرها في النّظرة إلى النبوّة، ط1، القاهرة : دار النهضة العربيّة 1977م.
هويدي (يحي).
187 - تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقيّة، القاهرة: دار النهضة المصريّة 1966م.
وينسك (الدكتور، أ، ي).
188 - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ليدن : مكتبة بريل 1936م.
اليافعي (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، ت 768هـ)
189 - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان، ط1. بيروت : مؤسسة الأعملمي للمطبوعات (مصورة عن طبعه حيدر آباد الدكن) 1339هـ.
190 - روض الرياحين، ط1، القاهرة : المطبعة الميمنيّة 1307هـ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 - المقالات والدوريّات

الأفغاني (سعيد).
191- سبب خلع السلطان عبد الحميد، مجلة العربي، العدد 159، (الكويت) كانون الأول 1972م .
جعفر (محمد كمال)
192 - الركائز الأساسيّة للتصوف الإسلامي ومدى أصالتها محاضرة ألقيت في ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين (معسكر) 1987م.
السليماني (الحسن).
193 - أبو الحسن الشاذلي حياته وآثاره، محاضرة ألقيت في ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين (معسكر) 1987م.
الشابي (الدكتور علي).
194 - مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابيّة، المجلة التاريخيّة العربيّة عدد 13 - 14 (تونس). جامفي 1979م.
الشيّال (جمال الدين)
195 - أبو الحسن الشاذلي وخليفته أبو العبّاس المرسي، مجلة العربي، العددين 68، 69. (الكويت) جويلية وأوت 1964م.
المهدي (عبد العليم).
196 - أبو الحسن الشاذلي، مجلة منبر الإسلام، العدد 12. (مصر) فبراير 1969م

3 - المخطوطات العربيّة

ابن باخلا (داود، ت 733هـ)
197 - اللطيفة المرضية في شرح دعاء الشاذليّة، المكتبة الوطنيّة بالجزائر: رقم 2307.
(محمد بن علي الخروبي، ت 963هـ).
198 - شرح تصلية ابن مشيش، خزانة الرباط. رقم د/245.
الجمل (علي، ت 1194هـ).
199 - الجمع بين الطريقة والحقيقة، مكتبة الزاوية الحملاوية بالتلاغمة.
الشاذلي (أبو الحسن علي، ت 656هـ).
200 - حزب البحر، المكتبة الوطنية بالجزائر: رقم 2039.
زرّوق (أحمد الحسني، ت 1224هـ).
201 - رسالةأصول الطريقة، مكتبة المسجد العتيق بشلغوم العيد.
ابن عجيبة (أحمد الحسني، ت 1224هـ).
202 - شرح تصليّة ابن مشيش، المكتبة الوطنية بالجزائر: رقم 2026.
المناوي (محمد عبد الرؤوف، ت 1031هـ).
203 - الكواكب الدريّة في تراجم السّادة الصوفيّة. المكتبة الوطنية بالجزائر: رقم 2037.
204 - مناقب أبي الحسن الشاذلي، لمؤلف مجهول، لدى الباحث نسخة منه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4 - المراجع باللغة الأجنبية

205- AFLAKI, LES SAINTS DES DERVHCHES TOURNEURS, (Manaqib ul - arifin)trad du persan par clèment huart, paris, sind bad, 1978.
206- ANDRE, General P.G, contribution a l'étude des confrèries religieusee musulmanes éd, la maison du livre, Alger 1956.
207- Dermenghem; emile, vies de saints musulmans, paris sind bad, 1983.
208 - Encyclopèdie de l'islam, éd, du paris 1913.
209 - Hallaj, husayn, Mansur, KITAB AL - Tawassin, Traduit, par; louis,MASSIGNON, Guethner, 1913.
210- Junayde, Enseignement spirituel, traduction, par deladrière, sindbad; 1983.
211- Michon, J. L. le soufi marocain Amed IBN Agiba et son mirage, paris, librairie philosophique, j vrin 1979.
212- NWYIA, Paul, IBN ATA ALLAH et la naissance de la confrérie Šâḏilite,ED - par él - M achreq, Beyrouth, 1986.
213- NWYIA, paul, IBN ABBAD DE RONDA, éd, coll recherches beyrouth 1961.
214 -RINN, Louis, Marabouts et khouan, Alger, 1884.
215- SADOK, Mohamed Hadj, Millyana et son patron sayyidi AHMED BEN YUSUF, O.P.U, Alger 1989.

فهرس الآيات القرآنية

1 - سورة الفاتحة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين	1 - 4	67

(2) سورة البقرة

- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم..... 146..... 134
- إن الله مع الصابرين..... 153..... 159
- يحبونهم كحبّ الله ..... 165..... 130
- الله لاإله إلا هو الحيّ القيوم ..... 255..... 67
- الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ..... 262 - 263..... 157

(3) سورة آل عمران

- يختص برحمته من يشاء..... 74..... 138
- ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة..... 123..... 158
- وما النصر إلا من عند الله ..... 126..... 148
- حسبنا الله ونعم الوكيل..... 173..... 71

(4) سورة النساء

- فلا وربّك لايؤمنون حتى يحكموك..... 65..... 145
- ماأصابك من حسنة فمن الله..... 79..... 154
- وكان الله بكل شيء محيطا ..... 126..... 89
إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله... 146..... 75

(5) سورة المائدة

- يحبّهم ويحبّونه ..... 54..... 130
- إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا..... 55..... 169
- ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا..... 56..... 138 - 139 - 172

(6) - سورة الأنعام

ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ..... 43 - 43..... 159

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(7) سورة الأعراف

- الحمد لله الذي هدانا لهذا..... 43 68

- استعينوا بالله واصبروا..... 128.....159

- وهو يتولى الصالحين..... 196.....138 - 139 - 169 - 72

خذ العفو وأمر بالعرف ..... 199.....161

(8) سورة الأنفال

- فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم 17 152

- ومارميت، إذ رميت ولكن الله رمى..... 17.....148 - 151

(9) سورة التوبة

- إنّما الصدقات للفقراء والمساكين..... 60.....158

- إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ..111.....66 - 151

- ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار..123.....183

(10) سورة يونس

- وإذا مسّ الإنسان الضّر دعانا لجنبه أو قاعدا أوقائما.. 12.....158

- قل بفضل الله وبرحمته .....58.....123 - 154

- وماتكون في شأن وماتتلوا منه من قرآن ..... 61.....88

-ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون..... 62.....169 - 171

(12) سورة يوسف

- وقد أحسن بي إذ أخرجني من السّجن..... 100.....107

(13) سورة الرّعد

- إنّ الله لايغيّر مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم.....11.....85

(17) سورة الإسراء

- ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض..... 55.....182

-وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا..... 111.....68

(118) سورة الكهف

- وعلّمناه من لدنّا علما..... 65.....180

- هنالك الولاية لله الحق..... 44.....171

21- سورة الأنبياء

- لايسأل عمايفعل وهم يسألون.....23.....141

(22) سورة الحج

- ماأرسلنا قبلك من رسول ولانبي إلا إذا تمنّى..... 52.....176

(23) سورة المؤمنون

- ادفع بالتي هي أحسن.....96.....161

(24) سورة النّور

- اللّه نور السّموات والأرض ..... 35.....87 - 129

(25) سورة الفرقان

فأولئك يبدّل اللّه سيئاتهم حسنات..... 70.....180

(26) سورة الشعراء

- فإنهم عدولي إلا ربّ العالمين.....77.....152

(27) سورة النّمل

- أمّن يجيب المضطر إذا دعاه.....62..... .. 158

- قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا اللّه..65.....187

(28) سورة القصص

- إن قارون كان من قوم موسى..... 76 - 78.....151

(29) سورة العنكبوت

-بل هو آيات في صدور الذين أوتو العلم .....49.....162

- والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا..... 69.....138 - 188

(31) سورة لقمان

- واتبع سبيل من أناب..... 15.....162

(32) سورة السّجدة

- وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا..... 24.....63 - 82 - 193

33- سورة الأحزاب

وكان أمراللّه قدرا مقدورا.....38 179

(35) سورة فاطر

- ياأيها النّاس أنتم الفقراء إلى اللّه.....15.....174

(37) سورة الصآفات

- إنّهم ألفوا آباءهم ضالين..... 69 - 70.....167

(42) سورة الشورى

- اللّه يجتبي إليه من يشاء ويهدي إلى من ينيب.....13.....138 - 172

(47) سورة محمد

- ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم ..... 09.....182

(48) سورة الفتح

- إن الذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّه ..... 10.....151

- هو الذي كف أيديهم عنكم وأيدكم عنهم..... 24.....107

(50) سورة ق

- ونحن أقرب إليه من حبل الوريد..... 16.....89

(51) سورة الذاريات

- وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ..... 56.....85

(53) سورة النّجم

- فاعرض عن من تولّي عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا..29.....58

- وأنّ إلى ربّك المنتهى..... 42....185 - 189

(57) سورة الحديد

- هو الأول والآخر والظاهر والباطن ..... 03.....101

- وهو معكم أين ماكنتم..... 04.....88

- لكيلا تاسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم.....23.....149

(58) سورة المجادلة

- ألم تر أن اللّه يعلم مافي السّموات وما في الأرض ...07.....89

(59) سورة الحشر

- ربّنا اغفر لنا ولا خواننا الذين سبقونا بالإيمان..... 10.....99

- هو اللّه الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس..... 23.....68

(62) سورة الجمعة

- هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته. 02.....83

(65) سورة الطلاق

- ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه..... 03.....153

(72) سورة الجّن
- عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد..... 26 - 27.....186 - 187
(76) سورة الإنسان
- وماتشاؤون إلا أن يشاء الله ..... 30.....148
(110) سورة النّصر
- إذا جاء نصر الله.....01.....107
(112) سورة الإخلاص
- قل هو الله أحد الله الصّمد.....01 - 02.....67 - 148

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث النبويّة

الحديث رقم الصفحة

- أ -

- إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ..... 60 - 188
- أزهد في الدّنيا يحبك الله.....58....149
- إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس مائة سنة من يجدد.....119

- ت -

- تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار.....144

- ج -

- جددوا إيمانكم قيل يارسول الله، وكيف نجدد إيماننا ؟.....85

- ح -

- حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعاء ين من العلم ..95

- ر -

- الراحمون يرحمهم الرحمن.....88

- ق -

- قد كان في الأمم قبلكم محدثون.....188

- ل -

- لاإله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه.....86
- لاحول ولاقوة إلا بالله كنز من كنوز الجنّة.....151
- لكل نبي رهبانيّة، ورهبانيّة هذه الأمة الجهاد.....89
- اللّهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا.....87
- اللّهم أقسم لنا من خشيتك مايحول بيننا وبين معاصيك.....109
- اللهم بك أصول، وبك أصول.....151
- اللّهم ماأصبح بي من نعمة، أو بأحد من خلقك.....151

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- م -

- من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب.....86 - 121 - 129 - 133 - 149 - 152 - 169 - 175 - 179 - 186

- من عرف نفسه فقد عرف ربّه.....137

- ن -

- نور أني أراه.....87

- ي -

- يدخل الجنّة من أمتيّ سبعون ألفا بغير حساب.....197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

المقدمة ..... (1 - 6)

الفصل الأول: عصر أبي الحسن الشاذلي ..... (7 - 31)

تمهيد 8

أولا- الأوضاع السياسية والاجتماعيّة في عصر الشاذلي 8

1-الوضع السياسي 8

1 .1 - الوضع السياسي بالمغرب العربي 8

2.1-الوضع السياسي في مصر 11

2-الوضع الاجتماعي 12

1.2- أجناس وطبقات الشعب 12

2.2- الخلافات المذهبية 17

3.2- الاخلاق العامة 18

ثانيا- الاوضاع الفكرية والروحية في عصر الشاذلي 19

1 - الوضع الفكري 19

1.1- الوضع الفكري بالمغرب العربي 19

2.1- الوضع الفكري في مصر 22

2- الوضع الروحي 24

1.2- الوضع الروحي بالمغرب الاسلامي والاندلس 24

2.2- الوضع الر و حي في المشرق 28

الفصل الثاني: نشأته و حياته ..... (32 - 54)

تمهيد 33

أولا-اسمه ولقبه ونسبه وأسرته 35

1- الاسم واللقب 35

2- النّسب 35

3- الاسرة 38
ثانيا- مولده 38
1- المكان..... 38
2- الزمان..... 39
ثالثا- أطوار حياة الشاذلي: 40
الطورالاول :نشأته العلميّة وسلوكه الصوفي..... 41
الطور الثاني: ارتحاله من غمارة الى شاذلة وتونس..... 46
الطورالثالث: أبوالحسن الشاذلي في الاسكندرية..... 49
رابعا- أبناؤه الأمثال.....53
خامسا- دنو أجل الشاذلي والاستعداد له..... 53
الفصل الثالث : شخصيته وآثاره ..... (55 - 80)
أولا- شخصية أبي الحسن الشاذلي..... 56
1- التحصيل العلمي..... 56
2- الاخلاص..... 57
1.2- جهاده في الدعوة..... 57
2.2- جهاده في معركة المنصورة..... 57
3.2- زهده في الدنيا 58
4.2- تذوقه للعبادة..... 59
3- قوة الفراسة..... 60
4- الهيبة..... 61
5- الاعتدال..... 62
6- صفات أخرى..... 63
ثانيا- آثار الشاذلي..... 64
1- ثبت آثاره..... 65
2- مصنفات منحولة..... 70

3- خصائص هذه الاثار..... 72
ثالثا- مكانة الشاذلي عندخصومه وأنصاره.....73
1- الشاذلي عند مخالفيه.....73
2- الشاذلي عند أنصاره..... 75
الفصل الرابع : تجديده في التصوف..... (81- 123)
تمهيد..... 82
أولا- انزال التصوف الى مستوى الجماهير.....83
ثانيا- تجديد الإيمان والثقة بالرسالة المحمديّة..... 85.
ثالثا- تجديده في ميدان العمل الاجتماعي..... 89
رابعا- الشاذلي ومسألة الجمع بين الشريعة والحقيقة..... 92
1 - تقييد منطقة الكشف..... 93
2 - ابتعاد الشاذلي عن التصوف الفلسفي ودعوته للتوحيد الشهودي..94
1.2-وحدة الوجود..... 96
2.2 - وحدة الشهود..... 99
3 - إشادة الشاذلي بحالة «الصحووالبقاء»على حالة«السكروالفناء»..104
خامسا-الشاذلي وتجربة خرق العوائد..... .109.
سادسا-الشاذلي وطريقة الشكر.....112
سابعا-تقريب الشاذلي لمنهج الممارسة العرفانيّة..... .. 119
ثامنا-دعوة الشاذلي الانسانيّة..... 122
الفصل الخامس: منهجه في الممارسة التحقيقيّة....(124 - 167)
أولا-منهج الصوفيّة في الوصول إلى معرفة الله.....125
ثانيا- منهج الشاذلي في تحصيل المعرفة التحقيفيّة..... .129
1-صلة الحب بالمعرفة.....129
1.1-مفهوم الحب..... 129
1.1.1-المعنى اللّغوي للكلمة..... 129

2.1.1-المعني الاصطلاحي للكلمة..... 130...
2.1-مفهوم المعرفة..... 134...
1.2.1-المعنى اللّغوي للكلمة ..... 134...
2.2.1-المعنى الاصطلاحي للكلمة..... 135..
2-الممارسة التحقيقيّة عند الشاذلي..... 140..
1.2-ممارسة الشاذلي التحقيقيّة مع طائفة المحبوبين..... 40...
2.2-ممارسة الشاذلي التحقيقيّة مع طائفة المحبين..... 142 ..
1.2.2-مفهوم العبوديّة ..... 143..
أ-المعنى اللّغوي للكلمة..... 143..
ب-حقيقة العبوديّة عند الشاذلي..... 143..
المستوى الأول: التحرّر من التبعيّة الكونيّة..... 146..
المستوي الثاني: التحرّرمن التبعيّة العمليّة..... 150.
● التحرّرمن اسناد العمل إلى الذات..... 150.
● التحرّرمن طلب العوض عن العمل..... 156.
● التحرّر من تعظيم العمل ..... 156..
2.2.2-أسباب تحقّق المتقرّب بوصفي الحريّة الشيئية والعمليّة..157
أ- التحقّق بوصف الافتقار..... 157
ب - التحقق بوصف الاضطرار.....158
ثالثا-مقتضيات الممارسة التحقيقيّة.....160
1-ضرورة الشيخ المربي للمريد.....160
2-مبدأ الذكر.....165
الفصل السادس: نظريّة الشاظلي في الولاية.....(168 - 201)
تمهيد..... 169
أولا - مفهوم الولاية.....170
1 - المعنى اللّغوي للكلمة.....170
2 - المعني الاصطلاحي للولاية.....170

ثانيا-خصائص الولاية.....173.
1 - المعرفة..... 173
2 - الحفظ..... 175.
3 - العلم اللدني..... 180
1.3 - فهوم من الكتاب والسنّة..... 182
2.3 - وصف حالات وأذواق..... 183
3.3 - الاطلاع على الغيوب..... 184
4 - التحقّق بالمقامات..... 188
1.4 - الورع 190
2.4 - المحبّة 190
3.4 - الزهد 191
4.4 - التوكل و إسقاط التدبير..... 193
5- الكرامات 198
6- التأدب بآداب الشريعة 201

الفصل السابع : مدرسته في التصوف.....(202 - 243)

تمهيد .....203.
أولا - أصول المدرسة الشاذلية 203
ثانيا - أعلام المدرسة الشاذلية 204
الخاتمة 244
الفهارس العامة.....(248 - 279).
فهرس المصادر والمراجع.....249.
فهرس الآيات القرآنية.....268.
فهرس الأحاديث النبوية.....273.
فهرس الموضوعات .....275.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية